(كتاب الطليعة)

المزامير

تأليف : فتحى سلامه

النـــاشر
وكالة القاهرة للطباعة والنشر

كتاب الطليعة

المزامير

تأليف فتحى سلامة

سلسلة

كتاب الطليعة

تصــــدره

وكالة القاهرة للطباعة والنشر

الاهداء

الى أرواح شهداء الخامس من يونية ١٩٦٧ ..
الى ارواح شهداء معركة الحق والمصير ..
والعودة ..
الى اخى (نصر)
الجندى بالقوات العربية المسلحة ، والذى يقف على خط
النار ، لعل الله يرزقه النصر أو الشهادة ..
الى يوم موعود ..
قسما لا حنث فيه ، انه يوم قريب ..

(فتحى سلامة)

الدقى فى ١٩٦٧/٧/٢

صاح سلمان متألما ، تركنا حبات البرتقـــال تسقط من بين ايدينا ، اندفعنا نحـــوه لنرى سبب صراخه ، رأينا نقط الدم تتساقط من يده ، والدمع ينساب على خديه .

اقتربت منه وسألته :

ـ ما بك ياسلمان ؟

لم يرد ، ظل فمه مشغولا بالبكاء ـ ولكن بعد برهة قصيرة اشار ناحية البيارة لمحنا (يوسف) يتلفت فى ذعر .

تركنا سلمان فى بكائه واسرعنا لنلحق بيوسف ، ولكنه ما ان شعر بنا حتى اطلق ساقيه للريح وجرى ناحية القـــرية ، قفزنا عبر جدول صغير لنسد عليـــه الطـــريق ، ورغم انه كان يجرى بسرعة الارنب المذعور ، لحقنا به واصبحنا على وشك الفتك به ، ولكن (الشيخ جابر) اعترض طريقنا بقوة وهو يقول :

ـ هذا ولد صغير ، وانتم اربعة !

وتصايحنا فى غضب محاولين الافلات منه ، وقال (صادق) فى ضيق :

ـ ولكنه آذى زميلنا سلمان .

وابتسم الشيخ جابر وهو يمســك بنـا تماما بينما نحن نتململ فى عصبية وقال :

— المسامح كريم ياولدى .

فصحت فى وجهه :

— ولكن ..

فقاطعنى الرجل بسرعة وعيناه تبرقان :

— قلت دعوه ..

شعرت بالحنق تجاه الرجـل وودت لو اننى ضربته على رأسه ، ولكنه كان ضخم الجثة ذا وجه مخيف ونظـرات حادة ، تراجعنا جميعا وكان قد تركنا نتملص من يديه ، وعاد يقول :

— سوف ابلغ والديه بالامر حتى يؤدباه ، وفى الغـد يأتى ليعتذر الى سلمان .

لم يعجبنا كلام الشيخ جابر ، ولكن لا فائدة من الاحتجاج . لقد هرب يوسف ، واصبح فى أمان من ايدينـا داخـل منزلهم وبجوار اخته (راشيل) ، ولن نستطيع اقتحـام الدار ، فآثرنا العودة الى حيث تركنا سلمان .

كنا اربعة ، صادق ، وسلمان ، وعبـد الله ، وانا ، لا يزيد عمر اكبرنا عن الثانية عشرة من العمر ، نذهب الى المدرســة فى يافا فى الصباح ونعود فى الظهيرة الى قريتنا (أم الســلول) لنظل نعمل فى جمع البرتقال حتى المساء .

وأحيانا ، كان ينضم الينا يوسف زميلنا فى المدرسة ، ولكنه رغم تظاهره بالهدوء والطيبة وميله للبكاء ، فانه يتحـين الفرص لينالنا بالاذى ، يفرز فى ذراع احدنا سلة من أشواك أفرع الشجر منتهزا فرصة انشغالنا بجمع حبات البرتقـال ، وفى كل مرة نضربه او نطرده من صحبتنا وسرعان ما يتدخل احدهم ويتوسط بيننا لنتركه .

ولكن هذه المرة لن نقبل وساطة احد ، ولن نسمح له مهما

تباكى او توسل للانضمام الينا ، فقـــد رأينا وخزة الدبوس فى ذراع سلمان مزقت الجلد وحفرت اخدودا عميقا ظل الدم يسيل منه مدة طويلة .

عدنا الى الدور ، وكان المساء قد حل ، والقمر ظهر خلف الاشجار يعكس ظلالها على طول الطريق ، وغبار أرجـــل الماعز والخراف تطرز الطريق فى اشكال متباينة ، وترسل رائحة التراب الى الانوف ، ورياح البحر تأتى بنسمات رطبة تجعـــل البرودة تسرى فى اجسادنا ، وكان الصمت يلفنا ونحن نواصـــل المسير حتى بلغنا الجسر الخشبى الذى يفصل البيارة عن الدور ، ولكن ما ان اجتزنا الجسر حتى انهمر علينا سيل من الحجارة فجأة ، اسرعنا نجرى لنحتمى بأسفل الجسر ، وفى أثناء ذلك اصـــابنى حجر فى مؤخرة راسي ، صرخت من الالم ورفعت يدى الى موضعه فشعرت بلزوجة الدم بين أصابعى .. ولم يكن أمامنـــــا الا ان نتراجع حتى نتبين مصدر هذا الهجوم ، ولمحت ، وانا استـــدير يوسف يشير على مجموعة من الصبية كانوا معه بالهرب ، صرخت بحقـــــد :

— يوسف ، يوووو ..

وكان الاسم كافيا لان يجعل بقية رفاقى يستديرون بسرعة نحو اشارة يدى ، واندفعنا نحوهم ، ولم يكن فى ايدينـــا سوى بعض العصي من أفرع الليمون ، وانهلنا عليهم ضربا وهم يصرخون فى فزع ، وفجأة ظهر جندى انجليزى من بعيد ، وكان مشهـــورا بشراسته فولينا الادبار عائدين الى ديارنا ، قاذفين بأفرع الليمون المحطمة جانبا وبعد لحظـــات كنا نشعر ببعض الامان داخـــل منازلنا .

استقبلتنى امى فى لهفـــة وهى ترى الدماء تنزف من رأسي ودار الكلب حولى يتشممنى مصدرا صوتا مكتوما كأنه يتـــوعد ، من اصابنى ، واندفعت اختاى تسألاننى عما بى ، وانطلق صوت أبى من الداخل آمرا بغلق باب الدار والكف عن الصراخ .

جلست بالقرب من الجدار ، راح ابن عمى عبد الله يحـــكى الهم ما حدث فى كثير من المبالغة ، وكأنه تصور نفسه فى معـــركة

حربية وبكلمات حماسية حفظها عن حكاية (الشاطر حسن) راح يروى الواقعة ، رمتنى اختى ببعض الكلمات القاسية ، قذفتها ببقية ماء كان فى الكوب .

بعدها ، جلسنا للعشاء فى صحن الدار ، نأكل ونعقب على ما جرى ، صاحت اختى صباح ، وقالت :

— أهذا الصبى ، ابن بائع الخمور يضربك ؟

رميت بما فى يدى ، وصرخت :

— بخيانة ، لم يضربنى الا بخيانة ، ومع هذا ضربناهم ..

وأكمل عبد الله :

— حتى انبثق الدم من جوانبهم .

ولكنها زمجرت فى ضيق وقالت :

— لو أن أخاك هنا !

واهتزت اللقمة فى يدى ، ونظر أبى اليها فى عتاب، واضطربت أمى وهى تترك مكانها على العشاء تغالب دموعها ، ولفنا الصمت فجأة وطيف أحمد أخى يدور حولنا .

حمدان ، أو (أحمد) ، كان يتعلم فى الازهر ، وحينما جاء فى أجازة مثل كل الاعوام ، لم يعد ..

ذهب الى المسجد فى يافا ، احاط الناس به يسالونه ويجيب اخذ يذهب الى هناك كل يوم ، وفى احد الايام ، ونحن فى مثل هذا الوقت ، نجلس فى حلقة العشاء ، اذا بشلة من الجند يقتحمون المنزل ويعيثون فيه فسادا باحثين عن شيء ما ، ثم انصرفوا واخذوا حمدان معهم ..

وحاولنا فى الايام التى تلت ذلك ، البحث عنه ، ولكننا لم نستطع الاهتداء الى مكانه ، الضابط يقول ..

.. لقد رحل الى قبرص ..

والمختار يقول ..

.. دخل الجيش ، فى فرقة الاجانب ..

الضابط يقول ، والمختار يقول ، وصابر وعم خليل وعكاشة يقولون ، ولكن اخى لم يعد ، الضابط انجليزى ، يجيب فى كبرياء وبرود ، سألت أبى :

ــ أبى ، هل كل الضباط انجليز ؟

نظر ابى الى السماء ، وقال :

ــ نعم .

قفز الى ذهنى شكل الجزر الاحمر ، سألته مرة أخرى :

ــ فى كل البلاد ؟

قذف ابى بعصا رفيعة اكلها هم القلب ، وقال :

ــ نعم .

اقترب عبد الله ، وسأل أبى :

ــ هل يمكننى ان أكون ضابطا مثلهم ؟

ارتفع جبل (لا) بعد ان قذفه ابى من فمه صفيرا حاقدا فى غضب ، تسلق عبد الله الجبل وقال :

ــ لم يا عمى ؟

سكت أبى وابتلع الجبل ، ثم نظر الى عبد الله وقال :

ــ لا ادرى ياولدى .. على كل حال انت مازلت صغيرا بعد .

ثار عبد الله ووقف مشدودا بعصبية وصاح :

ــ وكتاب الله ، ساصير ضابطا .

ثم اخذ يسير فى مشية عسكرية ويهتف ببعض الكلمات ..

صاح أبى ، متبرما بحركة عبد الله :

— اهدأ ياولدى ، حينما تكبر ، ستعرف : لماذا هم الضباط دائما .

لم يجلس عبد الله ، وظل يسير فى صحن الدار يحمل عصا على كتفيه ويدور فى خطوة عسكرية .

سمعنا طرقا عنيفا على الباب ، وكلمـــات مهددة بلهجـــة أجنبية ، نظرت الى أبى فى تساؤل ، ثم الى البـــاب وهو يهتز فى عنف ، قفزت متجها نحو الباب ، ولكن أبى منعنى بيده ، وتقدم هو وفتح للطارقين . .

اقتحم ضابط وبعض الجنود الدار ، ودخـــــل فى اثرهم الشيخ جابر وراشيل أخت يوسف ، تحركت بسرعـة ابحث عن مكان أختفى فيه ، ولمحت عبد الله قد تسلق الحائط ، حاولت أن أفعل مثله ولكن امى امسكت بى ، تلفت الضـــابط حـــوله فى اشمئزاز ، وقال بغضب :

— اين هذا الولد الملعون ؟

وتقدم أبى فى مواجهته ، وقال :

— ليس لدينا أولاد ملاعين يا حضرة الضابط

ولكن راشيل اشارت بيدها ناحية عبد الله :

— انه هناك ، هذا الولد

ثم نظرت الى وقالت :

— وذاك ايضا .

وتظاهرت بالبكاء ، وتعرت فى خيال الضابط ، ولعق شفتيه فى نشوة ، وبكت راشيل ، خلعت سروالا احمر به رائحة نتنـة ، التهب الدم فى شرايين الانجليزى المولود فى شارع داى بلنــدن ، داعب شاربه ، تأوهت راشيل :

— حرام ، حرام ضربوا اخى المسكين .

نزعت عن ذراع يوسف قميصه الحريرى ، وظهـــر اللحم الابيض الناعم ، تلوثه بعض الدماء ، همهم جاويش الفرقة وحك فى أسفل بطنه ، واقترب من الغلام وراح يتحسسه فى رفق ، نظر الجاويش الى الضابط ، بعدها اندفع ثلاثة من الجند وسحبونى من خلف امى وجذبوا عبد الله من عنقه .

نظرت الى أبى ثم الى أمى ولكنهما لم يتحركا ، نظـرت الى عبد الله وجدته رابط الجأش ..

وخرجنا من الدار فى موكب مخبول ..

الملابس تمزقت والجند ينهالون علينا ضربا بلا رحمـــة ، وعبد الله لا يبكى ينظر الى ضاربه فى غضب ، وانا لا ادرى افكر احيانا فى القمر ، واحيانا فى اخى حمدان ، ومرات كثيرة فى الجنة، ثم فى الجلاد ، ولكن الجلاد يتلهى بالنظر الى السماء بعد النجوم ، الف الفان ، ثلاثة .. لاشىء مهم ، الالم يصل الى نقطة وبعـــدها يصبح نوعا من العادة ، او من اللذة المؤلمة ، ولكن هناك ما يجرنى الى أسفل ، شىء مثل خيوط الشعر الاسود ..

واخيرا جلست فوق نجمة من نار ظلت تهبط حتى هوت بى الى القبر ..

●●●●●●

- ٢ -

لم يكن الامر سهلا بالنسبة لى ، ظللت حائرا فى تفسيره ، اقلبه وانظر اليه من جميع الزوايا ، ولكنى عاجز عن تفسيره ولا ادرى ما الذى جعل الضابط يأمر بطردى من المدرسة ، وظللت فترة حائرا ثم .. ثم فهمت .

كنت متعلقا بالدراسة ، شغوفا بالمعرفة ، أقلب صفحات الكتب ملتهما ما فيها بشراهة ، وأتعثر فى رموزها ، تعجزنى اللغة أحيانا ، وأحيانا يعجزنى ما أقرؤه من حقائق اكتشفها لاول مرة ، أسأل المدرس ، ولكنه ينظر الى الافق ويصمت ، وأحيانا يقص قصة (الملك ماهوش الاول) المدرس يقول ..

. النور الاخضر يلد الضوء ، والضوء جريمة ،

ذلك من أيام الخلق الاول ، يأتى الرب من الفلوات ،

لا افهم ما يعنيه ، أتظاهر بالذكاء ، والمدرس يقول ..

.. قذفوا ريشة جناح الديك ، وقلعوا أزهار الليمون ، ورجل مأفون يصرخ فى رعب مسرور .. ياقادمون ..

قالوا مجنون وعبيط ، كنت صغيرا لا أحسن فهم الناس قلت كذلك هو مجنون توسلت اليهم وبكيت دعونى أدخل مدرستى ، أبدا .. قالوا مطرود محروم ، حرمونا نحن الاربعة من دخول المدرسة .

ورايت عيون يوسف من خلف الزجاج ، زجاج الفصل ، تبرق من الفرحة ، وودت لو بصقت فيها ، ورايت عيون زملائى تبكى من الحسرة ، وعدت حزينا الى قريتى .

جلسنا ، نحن الاربعة ، نفكر فى طريقة نتحايل بها ونعود الى المدرسة ، وتشابكت الاراء واختلفت ولكننا وجدنا ان هذا أمر فى غاية التعقيد .

تذكرت اخى حمدان ، لقد ذهب الى الازهر وعاد وهو يقول كلاما له رنة جميلة ، فاذا تحدث انصت الناس ، واذا سئل اجاب ، ان الازهر أكبر مدرسة فى العالم ..

ــ ولكن كيف الذهاب اليه .. فى مصر ؟

بدد السؤال الصمت من حولنا ، وبرقت العيون وتطلعنا ناحية الغرب كيف نصل الى القاهرة ؟ وكيف نهرب من عيون الجند وهم يراقبوننا فى كل حارات القرية وبياراتها ؟

ثرثر عبد الله وقال كلاما ضاع فى انفجار الالسنة ، وتشابكت الكلمات حاسمة وخطيرة ، نصحو فى الفجر ، ثم نتسلل خلسة قبل ان يفيق الجند من النوم ، ونسير الى يافا ومن هناك نتبع حافة البحر حتى نصل الى مصر .

ياه .. ما هذا العدد الغفير من الناس ؟ خلق كثيرون يجلسون فى صحن الجامع ورجل أسمر له لحية بيضاء يقف على المنبر يخطب فى الناس ، يصيح ، يشير بيده ، ينتفض بقوة ، يبرق العرق على جبينه ، فمه واسع مثل بئر النبع ، أسنانه بيضاء مثل حبات الملح ، عيونه سوداء مثل الليل ، والناس من حوله ينصتون ، ولكنهم هاهم أولاء يقفون ، ثم يندفعون ، يخرجون من الجامع ، يسيرون فى الدروب والحوارى ، يقتلعون الاشواك والاسلاك ، ثم يتقدمون نحو الجند ، وينهالون عليهم ضربا ، والدماء تنزف من عين الضابط ويصرخ من الالم ، يسقط ميتا ، اقترب الذئب من الجثة ، اكل الذئب الجثة .. ومضي .

ضحكت الارض ، صارت خضراء ، تثاقلت أفرع الشجر

بالثمر الاحمر ، صارت الدنيا بيضاء ، هزنى احـــدهم ، صحت فيه :

— دعنى أر .

— ولكنى لا أوافق .

استدرت بسرعة ، وسألت :

— عن ماذا ؟
— السفر الى مصر

تذكرت ، قلت حروفا ناقصة ، ارتفع حوار غاضب ، احيانا يأكلنا الحوار ولهذا تموت الكلمات ، واحيانا نأكل الحوار نمضغــه ولهذا تموت الكلمات .

صادق قال :

— هل نترك اهلنا هنا عرضة لمضايقات راشيل ؟

وساد الصمت ، مرة اخرى ، تذكرنا راشيل ..

جاءت منذ ثلاثة اعوام مع اسرتها ، واقاموا فى طرف المدينة يصنعون السلال لاصحاب البيارات ، ثم مضت الايام ، اقاموا محلا لبيع الحلوى للاطفال ومشروبات للكبار .

وانضم اليهم آخرون ، وتاجروا فى اشياء كثيرة منها مايباع همسا لا نسمعه نحن الصغار ، وسرعان ما اصبحوا اغنياء يملكون بيارة وسيارة وخمارة .

وراشيل هذه ، تسير فى الشوارع تهتز ، يحيطهـا الشبان بعيونهم ويجرى خلفها الاطفال يقذفونها بالطوب ، ولكن جنــود الضابط المولود فى شارع داى بلندن يحرسونها .

— لا بد من قتلها

— حتما

— نقتلها ثم نفر الى مصر

وصمم صادق على ان يفعل ذلك بنفسه ، يتسلل الى دكان الخمور حيث تقف راشيل ويخمد خنجرا فى قلبها ، وتمـــوت الافعى وتستريح القرية من شرورها ، وتكف العجائز عن لعنهـــا ، وتصبح البيارات اكثر امنا .

ــ ولكن الخنجر ، من اين ؟

ــ ليس فى ايدينا سوى افرع شجر جافة .

ــ نقذفها بحجر فى راسها .

ــ كيف ؟

ــ نقف على الجدار المواجه للدكان ، ونظل نرقبهـــا حتى تخرج لبعض امرها ثم ننهال عليها قذفا بالحجارة ، مرة واحـــدة معا ..

ــ وتسقط على الارض ..

ــ وتموت

وسأل سلمان :

ــ ولكنهم سيمسكوننا ، فما العمل ؟

حطم عبد الله عودا من الحطب ، وقال :

ــ المهم ان نقتلها اولا ، لقد ضربونا بسببها كثيرا .

فى اليوم التالى ، خرجنا فى الصباح ندور فى القرية نجمـــع فى جيوب سراويلنا كل ما يمكن جمعه من طوب وحجارة ، وعدنا الى الجدار المواجه لدكان راشيل وجلسنا فوقه فى انتظـــار خروجها .

ومرت ساعة ، والهواء بارد ، والجو معتم قليلا ، والجـــوع يتسرب الى بطوننا ولم تظهر راشيل بعد ، وفكرنا فى الهبـــوط والعودة فيما بعد ..

ولكن ما ان بدأنا نهبط حتى صاح صادق :

— هاهى ذى

وبسرعة خاطفة استعدنا اماكننا ، وبدانا نقذفها بالحجارة اصابتها احداها فى اسفل قدمها ، ولت هاربة تصرخ فى رعب وتولول فى خوف ، والحجارة تطاردها حتى اختفت .. ولكنها لم تسقط جثة هامدة كما كان ينبغى ، شعرنا بالالم يحز فى قلوبنا هذه العقرب التى تلدغنا جميعا وتسمم كل آبارنا وتسرق ارضنا ، تذهب الى الجحيم هى واقاربها .

هبطنا الجدار فى بطء ، ولكن ماكدنا نضع اقدامنا على الارض حتى قابلنا الشيخ جابر يبتسم فى بلاهة ويقول :

— ماذا كنتم تفعلون يا خبثاء ؟

تلاقت العيون فى اشارة سريعة ، وامتدت الايدى الى مافى جيوبنا من طوب وحجارة ، وانهلنا على الشيخ جابر قذفا ، وكانه وحده يحمل سر الكراهية والحقد والمرارة التى فى قلوبنا ، وبصرخ الرجل فى الم ، يسبنا ويتوعدنا فى حنق ، ولكننا لم نتركه الا بعد أن فرغت الحجارة من جيوبنا .

جرى الشيخ جابر مذعورا ، وبدانا نحن طريق العودة الى منازلنا ، وكنا فى حاجة الى تناول الطعام ، وسرنا عدة خطوات — ولكن سلمان صاح فجأة :

— ولكن الشيخ جابر :

وتوقفنا ، سيحضر هذا الرجل الخبيث الجند الذين لن يتركونا هذه المرة ، بل ربما قتلونا رميا بالرصاص كما فعلوا ببرقوق امس ، لم يكن هناك بد من العدول عن الذهاب الى الدور ، والافضل الخروج من القرية كلها .

اقترح صادق أن نذهب الى احدى البيارات البعيدة حيث يمكننا الاختفاء ، نقتات حبات البرتقال ريثما نعود الى ديارنا .

مشينا فى وجوم ، تهزنا مشاعرنا المظلوم المنبوذ ، والالم الاحمر فى النفوس الخضراء يميتها ، اقتربنا من مدخل البيارة ، سمعنا ضحكات ماجنة ، تقدمنا نحو المدخل رأينا مجموعة من

الشبان فى ملابس تشبه ملابس الجند فى ايديهم بنادق وأسلحة اخرى ويقفون فى اول البيارة ، شعرنا بالخوف ، كنا نسمع عن قطاع الطرق من عصابات اليهود وما يفعلونه بالدور بالسكان ، وليس بمستبعد انهم جاءوا بناء على أمر راشيل ، والويل لنا فى هذه الحالة .

عدنا نجرى فى رعب صوب الدور ، وما أن وصلنا الى مشارف القرية حتى وجدنا أهلينا فى اضطراب وفوضى واحدهم يخطب فى حماس ، ثم تحركوا فى انفعال قلق ، وما لبث ان تفرق الرجال وهرولت انا خلف أبى حتى وصلنا الى المنزل حيث اخرج بندقيته العتيقة والتى استطاع ، رغم حملات التفتيش المتكررة ، أن يخفيها حتى الآن .

وتطور الموقف تطورا سريعا ، ورغم صغر سنى فى تلك الفترة ، الا اننى اذكر تفاصيل الليلة الملعونة بكل وضوح ، وما زالت احداثها عالقة فى ذهنى ، وكل صورها مازالت مرسومة فى مخيلتى ، بل أن الكلمات التى قيلت مازالت ترن فى أذنى ، وما زال التجهم على وجه امى واصرار أبى وهو يربض ببندقيته خلف الجدار فى تربص ، وكثير من الصور الاخرى ماثلة امام عينى .

قال شيخ ضرير ، فى صوت مخنوق ..

.. نعاج القطيع جائعة ، والثعلب يعشق امرأة الملك ، والملك يعشق احد الخرفان ، والقسام مات ..

فى يومها لم افهم ما يقوله الشيخ قلت كما قالوا الرجل مجنون ، ودوى صوت كفرقعة المدافع ، وارتفع نداء مكبر الصوت كبومة تنعق فى خراب تكرر جملة واحدة :

— غادروا بيوتكم فورا ، غادروا بيوتكم فورا ..

وتصدى الرجال ببنادقهم القديمة للنداء ، وارتفع صراخ الموت ، كانت البنادق قديمة سرعان ما فقدها الرجال وتراجعوا حتى أعتاب الدور .

قال الشيخ الضرير المجنون .. فى صوت مذبوح .. اليـوم هو اليوم الموعود ، والملعون يموت ، والحر رجل مفقود ..

قلت كما قالوا رجل مجنون ، تسللت عبر الحـــوارى متلصصا بجوار الحائط ، انادى صبيـــان القـرية ، نداء مكبر الصوت وقذف المدافع يغطى على صوتى تجمع حـولى ثلاثة من الصبيان ، جرينا فى رعب ، انهمر الرصاص من خلفنـا ، سقط رفاقى ، ازداد رعبى وانطلقت اسابق الريح .

كنت حائرا ، لا ادرك ما يحدث ، ولماذا ؟

الرصاص يولول حولى ، ومكبر الصوت يصرخ فى رعب ، وظـلام دامس مخيف وكلما اتجهت الى حارة مرق بجوار راسي رصاص طائش ، وكنت جائعا اكاد اسقط من شدة الاعياء ، ولكن الخوف والهلع جعلانى افر كحصان مخبول ، اصرخ على رفاقى ، واتحسس راسي ، وانحرفت الى زقاق مظلم ولكن بريق سلاح ابيض جعلنى ارتد بسرعة ، وجريت ..

وصرخ مكبر الصوت يأمر الرجال بالتجمع امام المسجـد ، لا احد يجيب ، تساءلت لماذا ؟

الرصاص والظلام والخوف حولى ، والرعب من مجهـــول يعصر قلبى ، وصلت الى دارنا ، رايت مجموعة من القـــادمين يقفون أمام الباب ، تقدمت فى حـــذر ، بعضهم يطلق مدفعـــه الرشاش على الجدار ، والاخر يغنى ، اقتربت من الباب الخلفى ، سمعت صراخ اختى ، مختلطا بعويل مبحوح لامى ، تمـــردت انفاسي فى صدرى وتلعثمت خياشيمى ، تكرر الصراخ مرة أخرى اقوى واشد ، صراخا لطير يذبح ، عقلى تقلص ، وسقط الضـوء الاحمر على العالم من حولى ، نسيت الخوف اندفعت نحو الباب ، لم افكر فيما يجب عمله ، انزلقت الى صحن الدار ، الصراخ يأتى من الحجرة ، أختى تموء كقطة ذبيحة ، مرقت من الباب ، سقطت على ارض الغرفة ، ورايت رؤيا الرجل المخبول ..

وطفلة ماتت بعد اغتصابها تقول ..

لماذا نحن ، دون خلق الله جميعا ، تغلق السماء دوننــــا ..

أبوابها وتدفع بنا الى بئر مظلمة حالكة السواد ، حياتها جائعة جنياتها خبيثة ، شريرة ، عمقها رهيب ..

وساعتها تعاطفت مع الطفلة التى سبق اغتصابها ..

امسكوا بى ، وضعوا المدفع فى وجهى ، أمروا أختى ان تتلوى ، شريط من دم العذارى رسم علامة المسيح فوق بطنها ، ضحك الشاب اليهودى فى خشونة ، تعرى من انسانيته ، أصبح وحشا يأكل جسدا ، طار العقل وذهب الحياء ، سقطت أختى على الارض فاقدة الوعى ، الرحمة من عبد نجس لا تأتى ، عذاب فوق عذاب ، اختى الاخرى تتلوى ، تتلوى فى ألم مجنون عصف بجسد منهوك ، والوحش يرتشف الدم ويعطى للاخر جرعة .

امى ، اين امى ؟

امى كالشاة الخرساء ، اقعدها الذبح ، والذئب يلعق دم ابنتها . الكلمات لامعنى لها ، تزيد الذئب ضحكا وسعادة جمدت عيناى ، تصلبت يداى ، وكف لسانى عن لعق لعابى .

المنظر عربيد احمق ، وقف عامود نور ، كف الوحش ، شبع أو مل .

انصرفوا وتركونى ، سقطت على الارض ، أرى نعالهم تتحرك ، غرست يدى فى التراب ، نبشت لحد جدى ، وعويت كذئب أجرب ، وبصقت على الارض ، وسحبت الدمع على وجهى .

ولكن عينى سخرتا منى ، ناديت أمى ولكنى لم اسمع للنداء جوابا فقط سمعت غناء الدببة ، ونواح البوم ، ورأيت الرعد يبرق لهبا ورياح العدم تصفر فوق الربوة .

قال الشيخ الضرير المخبول ..

.. السماء تبكى ندما ، ولكن الندم لا يسقى العطشي .

الدنيا برد ، وصهيل خيول خشبية ، والجوع يصرخ فى أذنى ، والارض مبللة بالدمع ، ونساء تجمعن حول صغارهن ، وعجائز وشيوخ ونحيب ام قروية تجرى ملهوفة ، تسعى نحو سراب ، ومكبر الصوت يعلن :

- الرجال فى ناحية والنساء فى ناحية .

وبكى طفل ، انطلقت رصاصة اسكتت الطفل ، قذفته امه فى وجه المدفع وضحكت ..

صاح مكبر الصوت :

- الرجال فى ناحية .

وقف الرجال ، بقايا الرجال فى ناحية ، وتقدم شاب اعرج يتدحرج فوق الارض ، حتى وصل الى صفوف الرجال ، وكما يقلب البائع فى حبات البرتقال صبيحة يوم بارد ، راح الاعرج يقلب فى الرجال ، واختار الاعرج مجموعة وابعدهم نحو الفرب ، وهناك تلقفهم شخص آخر ، ثم تقدم الاعرج ناحية النساء ، صاح مكبر الصوت :

- النساء فى ناحية .

النساء فى البيوت امهات حرائر وزوجات ضاحكات ، يتعلق طفل بذيل الثوب ، تنهره امه ، يبكى المسكين ، يبتسم الجند فى سخرية :

- ما بك يا بنى ؟

لا شيء يا جدى ، جدى رجل طيب قرا الكتب الصفـــراء وتعلم لغة الشك واخيرا قال .. كله هراء ..

وقلب الاعرج فى النساء وانتقى مجمـــوعة منهن وامرهن بالانفصال عن بقية القطيع ، كانت اختى الكبرى بينهن ، فى العـام الماضي جاء القوم الى دارنا ، قالوا كلاما وشربوا ثم انصرفوا ، وفى اليوم التالى ضحك الصحاب معى وقالوا .. يا بخت محمود .

لكن محمود مات ، مات أول أمس ، قتلوه ..

تجمعن فى كومة من السواد المذعور ، الحزن فى بلادى أسود مثل ضفائر النساء ، ضحك ، حاملو المدافع الرشاشة ، وداعبوا النسوة بكعوب مدافعهم ، شق احدهم ثوب امراة ، تعرت فجأة ، انكمشت على نفسها ، حاولت أن تستر عورتها تدلى ثدييهـــا ، رفعت يدها بسرعة ، وظهر .. ثم ماتت من الخجـــل ، ضحك حامل المدفع وركلها بقدمه .

دار الاعرج ناحية الصبيـــة ، كنت فيهم ، ورايت وجـــه الاعرج .. راشيل ترتدى ملابس رجل العصــــابات ، حبست انفاسي ، لم استطع ، تركتها تخـــرج فى تلاحق ، راسي يشتعل والنار تخرج من اذنى ، راشيل ستطلق النـــار فور ما ترانى ، انتقاما لعرجها ، غضبت من نفسي وتمنيت أن تعود الايام لاقتلها ، ولكن الايام لا تعود ، لقد ماتت الأيام ، وراشيل تقلب فى اهلى كما تقلب فى حزمة قش .

نظرت اليها ، الى رقبتها ، اتخيل ضغط السكين عليهـــا ، وينغرس الصلب فى اللحم الابيض ، يغوص فى العروق ، وينبثق الدم كشلال جارف وتتدحرج الراس وتنقلب ، ينبت من داخلها شجرة شوك ، تطرح الشجرة حبات السم ويسقط الجسد مثل فرع جاف ، تحرقه النيران ، ويغلى القدر بمرق اللحم ، ويفـــور ما فى القدر ويتصاعد منه بخار الماء ، مثـــل قدورنا فى العيـــد ، ويصرخ طفل يطلب شيئا ، وتنطلق رصاصـــة تهشم جمجمتـــه وتنهى صراخه ، والصوت يقول :

ــ سيروا ..

الذين اختارتهم راشيل يســـيرون الى الامام ، والبـاقون يسيرون الى الخلف وكنت مع السائرين الى الخلف ، أمى صامته تنظر فى رعب حولها ، أختى الصغرى تمسك بيدى . راحــوا يضحكون ويطلقون الرصاص خلفنا صرخوا فينـا أن نذهب ، أن نجرى ، ورصاص المدافع يجبرنا على الاسراع وجرينا الى الخلف وخرجنا من القرية .

مجموعة من النساء والاطفال والعجائز والشيوخ منهـــوكو القوى ، جوعى ، ليس فى ايدينا ، ولا فى عقولنـــا شيء ، نتلمس طريقا لا نعرفه الى مكان لا نعلمه .

أخيرا وصلنا الى أول بئر فى الطريق ، واندفع القوم ، وانا بينهم أتعثر فى الارض الرملية ، لا أكاد أسير حتى أقع ، يدفعنى بعضهم وينحينى البعض الاخر ، يقذفوننى بين أرجلهم ، وغبـار الاقدام ونحيب الاطفال وصراخ النسوة وشتائم العجـائز ولهيب العطش ، كل هذا جعل السير بضع خطوات صعبا للغاية ، ولكن البئر كانت فارغة . طين أسود لزج ، لطخها اليهود القادمون من الغرب ، تركوها بئرا خربة مهدمة .

ارتميت على الارض أطلب الرحمة ، ناديت على دمـــوعى ، كفت عيناى عن البكاء ، بكى تمثال بوذا ودمعت عينـــاه ، نظرت حولى ، وجدتهم يرتمون فى اعياء بقايا شعب مدينة ..

وفجأة سمعت ازيز طائرة فى السماء ، كانت تقترب نحونا ، قفزت أجرى مع الاخرين ، اندفعت الطائرة فوقنـا ورمت كتــلا من النار ، ثارت براكين من الرمال والدخان ، وتعالت بعـــدها صرخات القوم ، استدارت الطائرة عائدة ، جرى الناس الى كــل الاتجاهات ، ذهب العقل الى المجهول وتصاعدت رائحــة الموت ، عادت الطائرة من جديد لتصب المزيد من الرصـــاص فوق فلول الهاربين الذين تدفعهم رغبة فطرية فى البقاء ، كفت الطـــائرة عن الضرب وارتفعت فى الجو .

كنت ملفوفا فى تل رمال ، أخـــرجت راسي ونظـرت الى السماء ، السماء صافية ، جامدة وكأنها وقفت لحظة من الزمن الذى تجمد ، يبدو أنه لا يعنيها ما نحن فيــه ، والشمس تقف فى

وقار فى بحر الصفاء السماوى ، ورياح البحر تأتى من بعيـــد ، رائحة معتادة ، وتذكرت ابى ..

راحت عيناى تبحثان عن ابى فى كل مـــكان ، ولـــكننى لم اتحرك ، وشعرت أن البحث عنه ليس مهما ..

.. قال الشيخ الضرير بصوت مكتوم ..

.. **حمدان مات ، ومات الشيخ القسام ..**

يومها قالوا مجنون ، الضابط قال والمختار قال ، ولم يمت حمدان ، تذكرته .. أخى حمدان ، واحسست برغبة التهام قطعة لحم ، فخذ شاة ، أبى راعى غنم ، وصرت انا ذئبا ، واخـــوتى مجموعة من الاغنام ، رحت التهم فخذ أختى ، نقط الدم تمـــلأ كفى ، ضحكت العرجاء راشيل وصرخت فى لذة ، لعق الضـــابط شفتيه ، اشارت اليه راشيل ، وبعـــدها رايت رأس أخى تسقط على الارض ، ودماء تجرى نهرا وقطعا من لحم ، واصابع مقطوعة ، وعواء الذئب فى داخلى .

رأيت نسرا رابضا فوق السهل ، عيناه تبرقان مثل ضـــوء الشمس ، قفزت فوق جناحه ، انطلق بى عبر الفضاء ، نظرت فاذا الوادى صغير ، ظلال مكسورة فوق التلال لاناس مثل أمى وأبى ، وشجيرات هزيلة تحمل ثمرات حمراء ، ثم بحر عظيم تتـــلاطم أمواجه ، تتدافع وتقذف من جوفها حيتانا تبتلع السفن ، وظـــل النسر يندفع عاليا حيث بيارات البرتقال ، مـــددت يدى وقطفت واحدة وضعتها فوق فمى ، رطبة حنون ولها رائحة طيبـــــة ، قضمت قضمة كبيرة ، سال الماء حول فمى رطبا حلوا منعشا .

قذفت الثمرة فى وجه العرجاء ، سقطت تتـــلوى من الالم ، جاء الحوت وابتلعها ، هتفت بحياة الحوت وركبت فوق ظهـــره ، وظللت أطوف بدروب قريتنا التقط القـــادمين ذوى الجـــلود السمكية ، وقذفتهم الى جوف الحوت ، لم يشبع الحوت اقترب برأسه منى ، حاول أن يخطف ما فى يدى ، ركلته بقدمى وصرخت من الالم ، سقط الكوب فوق الارض وسال الماء يتلوى بين حبات الرمل ، وصاح رجل بصوت أجش :

— احمق .

وتنبهت فاذا الكوب يرقد فى كسل على الارض ، والاطفال يمتصون أصابعهم ، ورجل عجوز يلطم خديه ، وينظر الى فى غضب وهو يردد :

— ولد احمق ، ولد احمق ..

جريت رعبا من الرجل ، صرخت امى وحاولت ان تجرى خلفى ، سقطت فى حفرة ، وظللت انا اجرى .

صدمتنى شجرة وكان بها بعض الثمرات ، جذبت واحدة وقضمتها ، كان لها مذاق مثل الشهد ، رقصت حول الشجرة فرحا اتحسس ثمراتها الجميلة ، حبات من الشهد لها رحيق الحياة يسرى عبر اخاديد العطش .

ناديت على امى ، هرع القوم ناحيتى ، تحطمت الشجرة ، تنازعوا عليها ، فتتوا ورقها واكلوه ، ولكنى رايت على البعد عدة شجيرات أخرى سرعان ما انتبه القوم لها وجروا خلفى ، تدحرجت عجوز فوق التل ، سقطت فى حفرة ، ولكنها وقفت من جديد ، جرت مرة اخرى .

الشمس نار يتلظى بها عطشان هارب يمشي طريدا فوق كثبان الرمال الخالية من الظل والماء ، ويوم يمر ، ويومان ، ثلاثة ايام والاطفال يموتون والعجائز يسقطن ويتلوى من الالم الجميع ورصاصات الطائرات وعويل المدافع ، ونسقط على الارض ..

لا ندرى ، الى اين ؟

حينما مات الرجل العجوز ، فى اليوم الاول ، قال رفيقاه :

— لنصنع له لحدا .

واجاب الجميع :

— نعم .

ثم قال رفيقاه :

— نحفر حفرة ، ثم نضعه

واجاب الجميع :

— نعم

ثم قال رفيقاه :

— نحتاج ليد تحفر

واجاب الجميع :

— نعم .

ثم قال رفيقاه :

— لاننا لا نستطيع .

وأجاب الجميع :

— نعم .

ثم قال رفيقاه :

— يبدو انه لايوجد معنا من يستطيع الحفر

واجاب الجميع :

— نعم ..

فقال رفيقاه :

— لاخيار لنا ، يرحمه الرب

واجاب الجميع :

— آمين

ومن يومها ، تساقط الكبار ، والاطفال ، والنساء مثل أوراق الخريف فى بيارات البرتقال ، تتساقط بسرعة تملأ وديان الارض وتدوسها الاقدام .

واليوم الرابع عدم ، سنتحول الى عجين الارض ، كنت صغيرا لا اعرف معنى العدم ، ولكنى احسست به ، لا ، لم احس به ، ولكنى رايته فى هبوب الريح وصفيرها ، وذرات الرمل تأكل حشايا العين وفى اطفال يكفون عن الحركة ، والامهات فى سكون .. يتركن اطفالهن فى الطريق دون دموع .

قبل المساء رايت ظلالا من بعيد ، بعد قليل تبينت انها لرجال يحملون فى ايديهم بنادق ، صرخت بأعلى صوتى أنبه قومى ولكنهم لا ينتبهون ، خشيت على نفسي وتراجعت ، تمردت على

كل الاوامر والنصائح التى انهالت من حولى ، ورحت أعـــدو راجعا لم أكن أرى سوى فوهات البنادق والمـــدافع ، ولم أكن أسمع سوى طلقات الرصاص وعويل النسوة .

ارتميت على الارض ، أحسست أن قدمى تفوصان فى بحــر الرمال ونظرت حولى فلم أجد احدا ، تركونى وحيـــدا ملقى على الارض لا أستطيع الحركة ، وسمعت أصواتا خشنـــة تأمـــرنى بالابتعاد وسمعت صوت الديك يصيح ، وأرنبا يجرى خلف التبه ورجلا يضحك فى مرارة ، وشواء تفوح رائحته ويتصـــاعد منه بخار النضج ويملأ السماء ، وأرغفة تتساقط من السحاب مثــل المطر ، وسمعت خرير مياه السيل ، والماء يعبر جـــوف الجسر ويزغرد فى نشوة ، يملأ أخاديد وحفر الارض الصفراء وينمـــو الشجر ويزهر ، زهور بيضاء ، واخرى حمراء ، ورأيت مـــلاكا يهبط من السماء وفى يده ابريق يلمع الماء على حافتـــه ويصب فى حلقى رشفة ، ثم يضع فى فمى قطعة سكر ، ثم يصب على وجهى رحيق المشمش .

وصحوت ، حاولت أن أبقى عينى مفتوحتين ، لم أستطـــع سمعت الصوت ينادينى ، واصغيت :

ــ بلال ، بلال

يتدفق الاسم عبر اذنى فى قوة وخشونة ، سمعت الصوت يأمر شخصا أن يكف عن ضربى ، دارت حـــواسي تتحسس أثر الضرب ولكنى لم اشعر بألم ، والصوت ينادى :

ــ كلوا ما رغبتم ، لا تخشوا شيئا .

شعرت بخشونة الغطاء ، وتمددت قدر استطاعتى ، وفتحت عينى رأيت جنودا حولى سمر الوجوه ، يتكلمون مثلنا ، مد الضابط يده ، كان أسمر وله وجه طيب ، قال :

ــ خذ يا بلال .

ــ لا . .

فى يوم ما قال لى أبى ، الجنود جبناء والضباط انجليز ، يومها صدقته بعد أن ذقت الضرب مرارا على أيديهم .

تقدم الضابط ولمس جبهتى ثم قال :

ــ لقد تحسنت كثيرا

وتراجعت اشد الغطاء حولى ربمــــا يحمينى من الضرب ، ولكنه جلس بجوارى ، وقال :

ــ هل انت خائف ؟

اجبته فى عصبية :

ــ لا .

ابتسم ، رايت اسنانه البيضاء ، احسست بأن نورا يشع من بين شفتيه وأن الشمس تسكن فى فمه ، قال :

ــ كنت محموما يا بطل وقلت كلاما غريبا .

فتح فى راسي نافذة ، عاد يقول :

ــ لقد قتل اليهود اخاك ؟

ــ نعم .

ــ واباك ايضا ؟

ــ نعم .

ــ وفعلوا ..

ــ نعم ، نعم .

ــ وهل ستأخذ بثارهم ؟

قفزت فى وجهه واقفا وانا اردد :

ــ نعم ، نعم ..

انتظرت أن يضربنى ، لكمته فى فكه ، وقف ساكنا فى حزن ، خجلت من نفسي ، مرت لحظات ، بعدها قال :

ــ لابد من هذا اليوم .

وعجزت عن التفكير عدة لحظات ، تبـلد ذهنى ، وددت ان افعل شيئا ، او ان اقول شيئا ، قلت :

ــ من انت ؟

ابتسم الرجل واجاب فى هدوء :

ــ ضابط مصرى ، عربى مثلك .

رنت الجملة الاخيرة فى راسي ، قذفت عينى تتحســـــان هيئته ، قال ، ويبدوا أنه لاحظ الدهشة على وجهى :

— كنت أود أن اجلس معك وقتا اطول ، ولكننـــا سنتحرك الآن ..

ويوما سنلتقى ، ولن انساك ابدا .

— حقا ..؟

— نعم ، ونعود معك الى يافا ، ونزورك فى بيتك

— بيتى ؟ بيتنا ؟

شممت رائحة الورد ، احببته ، وجدت فيــــه ابى وأخى وعمى واصدقاء حارتى ، تفتح قلبى له ، هذا الضابط الاسمر ، بحثت حولى ومعى عن شيء أعطيه له ، تذكرت تميمة كانت معلقة فى رقبتى ، جذبتها فى انفعال ، وصحت :

— يا عمى ، يا والدى ، خذ هذه .

مد يده واخذ التميمة ، نظر اليها فى دهشــــــة ، ابتسم ووضعها فى جيبه وقال :

— يجب الا تنسي .

هززت راسي ، مشي عدة خطوات ، وقال :

— مهما طالت الايام ، تذكر .

ومضي مع الاخرين ، ظللت انظر اليه ، وكانت هذه اول مرة اقابل ضابطا عربيا .

لم يبق الكثير من القوم ، رحلنا الى الجنــــوب ، بحثت عن رفاقى ، لم اجد أحدا ، بحثت عن اهلى ، فى منتصف الطـــريق عثرت على اختى ، صباح كانت تبكى . مازالت تبـكى ، لم أرها بعد ذلك الا باكية ، سألتها عن امى لم تجب ، بكت ، مددت يدى لها ، جذبتنى نحوها وسرنا نحو الجنوب ..

الذين بقوا يســـــيرون ، يتطلعون الى فراغ ، لا يرغب احد فى الحديث ..

تبعثرت حبات عقد الياقوت فى الارض الخراب ..
طوبى للعبد المؤمن ، وطوبى للمساكين اولاد الرب ..

(٤)

مرت ثلاثة اعوام ، منذ ان رحلت عن قريتى ، تعلمت كلمات جديدة : الهدنة ، اللاجئين ، الاحتلال ، الاغاثة ، الوكالة ، كلمات نلوكها بالسنتنا دوما ، ففقدت الكلمات معناها وتآكلت الحروف ، تحولت الى حفنة دقيق وقطرات زيت وبطاقة وتعلمت صناعة جديدة ، صناعة السلال ، والتسول من ايدى الزوار ، وراودتنى افكار جديدة ، اذهب الى المدرسة فى غزة اياما ، وانقطع اياما اذهب خلالها لاقف فى الطابور الحزين ، حاملا وعاء الدقيق فى انتظار دورى.

فى الطابور صادفت قوما آخرين جاءوا من مناطق وبلدان بعيدة ، سيدات عجائز ، وشيوخا وفتيانا ، كنا جميعا نشترك فى أمر واحد وهو لعبة انتظار حفنة الدقيق .

وحينما تعلو الشمس ، يأتى بعض الاجانب فى ايديهم آلات التصوير يلتقطون الصور فى مقابل بعض علب الحلوى والبسكوت ، يدورون حول الخيام ، يتفحصون ويدققون النظر الى كل شيء ، بابتسامة باهتة يقذفون النقود ، قطعا صغيرة من النقود ، ويلتقطون الصور ويضعون أصابعهم على أنوفهم ، وأحيانا يقولون كلمة أو كلمتين ثم يمضون ، قال شاب نحيل معلول .. وكلاء هيئة الامم ، وقالت أرملة .. انهم وكلاء الوكالة .. يتفرجون ويذهبون ويقبضون ، وقال شاب يمسك جريدة .. لقد تحولنا الى متحف ووكالة تجارة ، ونظر الى الجريدة ثم قال .. قالت وكالة الانباء ..

ويمضي اليوم ، وفى الظهيرة نجلس على ربوة أمام البحـر ، نحكى قصصا عن أيام مضت .. فى المدرسة ، فى البيـارات ، فى دروب قريتنا قصصا عن الماضي ، الماضي فقط ، والحديث يطول ولكن سرعان ما يتحول الى سؤال يتردد دوما : كيف نعود ؟

و .. ونضع الخطط ، ونحلم بالارض وظلال شجـــرة الزيتون أمام الدار وحبات البرتقال فى صحن البيت ، وجـــذع النخلة الراقد أمام دار المختار ، و .. ونتصور المعارك الحاسمـة والانتقام ، ولكن الوقت يمضي وصياح أهل الخيام من أجل عودتنا اليهم ، فنعود ..

تزوجت أختى صباح من رجل طيب أشفق علينـا ، وكان رجل .. رغم ما يبدو عليه من كبر السن والشيخوخة الا انه مرح وطيب المعشر ، يجلس دائما أمام الخيمة يتحدث عن بيــــاراته وزوجته وعياله الثمانية الذين ذهبوا جميعا دون عودة ، ويدارى دموعه خلف دخان غليونه .

وبرعت أختى فى عمل المنسوجات وتطريزها ، وبرعت أنا فى توزيعها وبيعها للزائرين ، أشترى دخـــانا لزوج أختى ودقيقا وسمنا لاختى وأحيانا يتبقى بعض قروش أشترى بهـــا بعض الحلوى ، بل أحيانا أشترى علبة دخان وأحتفظ بهـــا لنفسي ، وحينما ينطلق زوج أختى فى الحديث عن بياراته وعزه المـاضي ، وتنهمك أختى فى مفارشها أنطلق الى الخـــلاء ادخن فى ارتبـاك وأعيش مع أحلامى ..

أركب دبابة ، لا ليست دبابة تماما ، انها عالم عجيب ، لها الف مدفع ، بل ألف ألف مدفع ..

خيال مراهق‌محموم محروم لاجىء ، قالوا ان عالمه خرافى ،لم أصدق كلامهم ولم أصدق نفسي ، المدافع والقنابل وأشياء أخرى تبرق فى سماء خيالى ، أقف فى عظمة ، خلفى جيوش جرارة مثل جيوش التتار ، الله اكبر منقوشة على علم أخضر ، تدور المعـركة ويسقط شهداء ، أشعل سيجارة أخرى ، لهب (الكبريب) أخضر، قذفنه فى قوة ، سقط الحصن ، جذبت نفسا من سيجـــارتى ، تصاعد دخان أزرق ، سقطت دانة مدفع وتهدم جـــدار المعبد ،

الله اكبر .. صاح احد رفاقى ، أعطيته سيجارتى ، ابتسم وجذب نفسا ثم قال :

.. السلاح هو طريق العودة ، وحينما نعود ، تعود الحياة الى ديارنا وحقولنا .. قاطعته قائلا ..

.. سنبنى نصبا للشهداء ..

السيجارة تلسع يدى ، قذفتهـــا بسرعة ، قطعة معدنيـــة سقطت بجوار قدمى ، تحركت لالتقطها ، لم اقدر ، رحت احملق فى النقود دون حراك ، رايت رجلا يقف امامى ويتكلم بلغة لا افهمها لم اتحرك مثل كل مرة ، أنقض بسرعة على قطعة النقـــود واقول وانا ادسها فى جيبى بعض الكلمات الاجنبية حفظتهـــا ، ولكنى لم اتحرك هذه المرة .

الرجل الضرير كان يقول :

— سنعود يوما الى ديارنا ، والراغب فى العـودة لا يتسول ولا يلتقط النقود من فوق التراب .

مصمص الرجال شفاههم وقالوا .. انه لا يحمل هم طعـــام الاطفال فليس لديه اطفال .

جرت فتاة من المخيم القريب حينما لمحت الرجـــل ، وقع بصرها على قطعة النقود ، وانحنت تلتقطها ، ولكنى دفعت بهـــا بعيدا ، وتراجعت الفتاة فى خوف ، ابتسم الرجل الاجنبى وقذف بقطعة أخرى ، ومرة أخرى حاولت الفتاة ولكنى تناولت القطعتين وقذفت بهما قدر طاقتى الى بعيد ، وتجهم وجه الرجـــل وأسرع بالابتعاد .

وحينما أشعلت لفافة أخرى وجلست ، سمعت بكاء الفتاة ، منذ سنوات وانا لا ابكى ، لا أستطيع ، ضربونى فى المعســـكر يوما حتى سال الدم غزيرا من جسدى ولكنى لم ادمع ، فقط ، رحت أهتز فى عنف وعينى تحدق فى لاشيء ، وتركت الفتاة تبكى .

دخان سيجارتى أزرق ولهبها برتقالى ، وتترك مرارة فى فمى ، جذبت نفسا قويا ونظرت الى الفتـــــاة ، راودتنى رغبة

شريرة انبثقت من داخل امعائى ، وضعت يدى على كتفهـــا ، وقلت :

ــ سوف ابتاع لك شيئا .

توقفت الفتاة عن البكاء ونظرت الى فى شك ، قلت :

ــ معى نقود ، انظرى

لم ترد ، ابتعدت عدة خطوات ، شعرت بالمهـانة ، عاودتنى الرغبة فى ان اضع يدى على كتفيها مرة اخرى ، لحقت بها بسرعة ووضعت يدى فى تردد فاجفلت فى ذعر ، نظرت الى ، عيونها مثل مياه البحر ، مثل زرقة مياه بئر السراب ، انزلقت فى البئر دفعة واحدة ، واحسست بيدى تلتهب ، نزعتها ، وقلت فى تلعثم :

ــ اننى ابيع المفارش الملونة فى السوق .

مشت فاطمة ، ومشيت بجوارها شريدا تائها ، تتقـاذفنى امواج من المشاعر والاحاسيس ، لا اعرف معنـــاها ولا مدلولها ، خطونا نحو القمة قمة تل ، طالعتنا صفحة البحر .

جلسنا فى هدوء ، كنت مضطربا اعبث بعود جاف ، تنبهت وقذفت بالعود من يدى ، سقط على عدة مراحل ولم يتحطم .

كان هناك حجر ابيض فى اسفل التل ، خيـــل الى انه بيت مارد من .. ايام سليمان ، خرج المارد يتثاءب فى كســـل ، راس المارد سوداء شقت صدر الحجر وخرج الى الخلاء ، نادى عليـه سليمان ولكنه ضحك فى سخرية ، رايت راشيل تقترب من المارد وتمسح على راسه فى دلال وهو يتمطى فى خمول ، داعبتـــه تحت سرته وشهقت بابتسامة ماجنة ، ثار المارد وطالب بالعدل ، قذفتها بحجر تلقفت الحجر ورمتنى به ، صحت فى غضب :

ــ ملعونة

ــ من ؟

صاحت صاحبتى ، اخذت يدها فى يدى وجريت ، كان بى شوق للجرى ، للهرب ، للصراخ ، لان اسب احـــــدا ، كانت بى رغبة فى البكاء وجريت عبر اخدود تاريخى الطويل اتعثر بكلمات جوفاء وخوذات جنود بلهاء واسماء معارك ، صحت :

ــ آه ، آه ..

.. يقول الشيخ الضرير .. لا تجعل الكلمات فى فمك ، بل اتركها خلف ظهرك ، وانظر الى موضع قدميك وتبول ..

يومها قالوا مخبول ، قلت كما قالوا ومضيت .

نظرت الى رفيقتى وابتسمت ، تذكرت بعض الصـــور من احلام اراها بالليل قالت فى وجل :

ــ ما بك ؟

ابتسمت مرة أخرى ، وتصورت خصرها بين يدى ، وقلت :

لا شيء ..

ولم انم ليلتها حتى الصباح .

وفى الصباح تقابلنا ، فاطمة وانا ، هناك بجوار شجـرة فى العراء ، جلسنا ، كان بيدى بطاقة الدقيق ، ومعى بعض النقود ولفافة تبغ من صندوق الامس ، رحت اتأملها ، بشرتها السمراء ، وجه مستدير ، وعيون عميقة حزينة ، شعرها فى ضفائر تهتز فى مجرى الظهر ، رشيقة الحركة فى دلال ، لاحت استـدارة ظهرها .. ثارت فى نفسي رغبة ان اتحسسها ، أو اضع يدى على شعرها الطويل ، انبثق فى ذهنى خاطر : كيف خرجت هذه الفتـــاة من وحل المهجر ، اسرعت يدى الى شعرها الملمه ، اجفلت الفتـــاة وتراجعت ، حاولت مرة أخرى ولكنها دفعتنى فى رفق ... نظرت اليها فى عتاب ، تحاشت نظراتى ، وقالت فى ارتباك :

ــ لن نحصل على دقيق اليوم ، لاننا نلهو هنا !

قلت ، وانا ازيل ما علق على ملابسي من اتربة الخجل :

ــ نرسل فى طلبة من القدس .

ابتسمت فى سعادة ، واندفعت تجرى نحو مقر المعـــونة ، جريت خلفها وكنت مسحورا بشيء مالا أستطيع معرفته أو تبينه ، وكأنى ادخل عالما جديدا مسحورا ، وشعور بلذة أجهل مصدرها .. شيء ما يدغدغ حواسي

الطابور طويل ، وسواد الملابس يرسم خطا ملتـــويا تحت الشمس ، ولفائف الاطفال فوق الصدور تنعق مثـــل البـوم فى صدور شجر الليمون ، ورجل ابيض لا يتـــكلم ولكنـه ينظر فى صمت ، اندفعت فاطمة ، اندفعت خلفهـــا ، اصطدمت بسيدة عجوز ، انسكب اناء اللبن على الارض ، صاحت العجوز فى ألم :

ــ ملعون

نظرت الى اللبن المسكوب فى حسرة ، فكرت فى ان العقه ، جذبتنى عيون الفضب ، تناسيت الفكرة واقتربت من فاطمـة ، راحت السيدة تسبنى فى عنف وبصياح مخبول لعنت كل الاشياء ، الشيطان واليهود والمخيمات والوكالة ، ازددت التصاقا بفاطمة ، وحمل الى هذا التقارب اللذة والامن .

الدنيا بطاقة وخيمـــة وذكريات ، ونقـــود صغيرة تقذفها الايدى .

ومع هذا فالامر ليس غريبا ، الناس يتزاوجون ويتناكحون ويتناسلون ، ويلعبون كبارا وصغارا ، واحيانا يتعـــاركون على لفافة تبغ او حفنة من الدقيق ، وايضا بسبب الاطفـال ، كيف يضرب ابن صالح الكبة ابن شيحة الجميـــل ؟ وترتفـع الايدى وتتطاير الكلمات ثم يأتى المساء .. فيرقد الجميع فى أكوام بشرية يحلمون .. ويشهقون فى لذة .

هزتنى فاطمة بعنف ، وتذكرت اننى أسبح فى خيـــالات وهمية ، ومعارك خيالية واسمع طنين الاخبار المسمومة ؟ :

ــ الى أين ؟
ــ لا أعلم .
ــ والدقيق ؟
ــ لا اعرف .

.. كنت منذ قليل أعرف ، اعرف شيئا أو مجموعة أشياء ، ولكنى الان لا اعرف شيئا ، وطنى أمى أهلى اصـــدقائى عالمى .. اين ؟ ولماذا وكيف ؟ وكل علامات الاستفهام فى لفتنا ، ولا اجابة !

انا ابحث عن لذة امتصاص قطعة حـــلوى ، او عن طريقة اندس بها فى صفوف الناس ، فى صفوف البطاقات الصفـــراء لكى امد يدى واحصل على نصيب من اللبن او الزيت ، او قطعة خبز او صابون او قبضة ماء نجس من ايدى الرجال الاطهـــار الشرفاء الذين قدموا من الشمال ، واتلصص خلف كلب ضال اقتـله او قطة اخنقها ، او حتى قطعة حجر افتتها وادور حول الخيـــام لاهثا لا ادرى ما افعل بنفسي ، انظر الى زوج اختى وهــــو يلعق سيجارته قبل ان يدخنها ثم يطلق زفرات الحسرة مع دخانهـــا ، وعيون اختى وهى تمسح التراب وبداها المعروقتان تتحـركان فى بطء حول الخيوط القطنية ، وخبز معجون بزيت مر ، وسمـكة قضيت يوما كاملا اترقب صيدها ، تشدها منى قطة شرسة .

ـ الى اين ؟

ـ لا اعرف

فاطمة تهزنى ، تشدنى ، تصرخ فى وجهى ؟

ـ الى اين ؟

لا اعرف ، احيانا اسرع نحو التل ، انظـــــر الى الشمس تشرق من خلف الديار البعيدة سألتها : كيف حال جـــدارى ، والنبع الذى ينسلب اسفل الجسر ، ورائحة الورد ، وحبـــات الكرز الاحمر ؟ كيف الرمـــل ، وشجـــرة الزيتـــــون ، كيف المسجد ورائحة الافران فى الشتاء ، كيف يا شمس ؟

ـ انت مريض

ـ تذكرين ، مقعدى امام الدار ، ذلك المربع من الضوء .

طبعا تذكرين ؟ مربع الضوء فى ليل القمـــــر ، واقاصيص الشطار وصلاح الدين وحرب الكفرة ، والسيف المسـلول ورأس الغول ، والملك النعمان ، وبدر البدور ، والشاطر حسن ..؟

ـ انت مريض بالحمى

ـ بالتأكيد انت تذكرين ، يقولون ان خلايا الانسان لا تنسى ما تفعله او تسمعه حتى يوم الحساب ، فى الآخـــرة ، حينمـا

يقسمون الناس الى نوعين ، قسم الجنة وهم الابرار الطيبون ، وقسم الاشرار وهم الناس التعساء ، لا ادرى نحن من ..

فاطمة قولى لى : نحن اشرار ام طيبون ؟

ــ انت محموم ولا شك

ــ خيام مزقها الطل وسهد الليالى وهواء البحر المندى بدموع الارامل واليتامى

وحكايات قديمة ، وسهام وسيوف ومجد لا يزول ، وقصاصات أوراق قديمة تحكى عن يافا وعكا وقلاع وحصون

تلك أيام لن تعود ، يومها قالوا على الشيخ الضرير ..

مخبول ورب القدس ، ويومها قلت كما قالوا : مخبول ورب القدس

ــ انت ترتعش ، سآخذك الى اختك .

لا لا ، العيون السود هجرتنى ، هربت منى ، تركتنى للالم وحيدا لا ، ارجوكم قولوا لها ، سأموت ان تركتنى ، انها قدرى ، وسر تعاستى ، لم تجب ؟ قولوا لها مرة اخرى ، قلتم مرات ، لا يهم قولوا لها دوما ، ياحبيبتى يا قدرى لاتتركينى وحيدا .

وشعر اسود مثل ظلام الليل يلتف حول عنقى ، جدائل الشعر الطويلة الحبيبة تخنقنى ، لن أسكت ، سأصرخ بأعلى صوتى ..

عرفت معنى ان يكون الانسان لاجئا .

لم تعلق الدبابة وجهى ؟ ونسور جوعى تنهش لحمى وافاعى وجيش الحشرات ، وقنابل ، ومدافع تصرخ تتلوى ، ودماء تجرى انهارا ..

لم أنا لاجىء ؟

احسست بيد رجل خشنة على وجهى ، فتحت عينى ، كان رجلا طويلا ونحيفا ، ابتسم الرجل فى بلادة وقال :

ـ انت مثل القطط .

وجاءت صباح بقدح من القهوة للرجـــل ، كنت راقـــدا لا استطيع الحركة ، ولكنى اشعر بما حولى ، شرب الرجـل قدح القهوة على دفعتين

ووقف بسرعة ثم نظر الى وقال :

ـ كنت ستكلفنا الكثير ، والان ها انت شفيت .

ولم اجب الرجل ، ولكنه قال بعد لحظة :

ـ تصريح الدفن يحتاج الى اجراءات معقدة

وسكت لحظة ، ثم اضاف :

ـ ومال كثير .

دفن الموتى يحتاج الى تصريح مثل الحصول على بطـــاقة تموين ..

وخرج الرجل وجاءت اختى ، قالت انه اخذ منهـــا بعض المال لكى لا يسأل عن تصريح الدفن ، حتى لا تعـــرف الوكالة وينقصون التموين ، كانوا يعتقدون اننى مت .

ولم تمض سوى ايام ، وكنت اقف على قـــدمى مرة اخرى ابحث عن فاطمة ووجدتها وجلسنا معا ، كنت قد فكرت وقررت شيئا فى نفسي ..

الهرب ، الهرب من حياة ممزقة .

ارتاعت فاطمة من الفكرة ، بكت وقالت كلاما كثيرا ، وكان هذا ،بقدر ما اسعدنى لتمسكه بقدر ما هزنى واحزننى ، ولكننى كنت قد قررت ، الهرب الى مصر ، حيث كان يتعلم اخى حمدان ولم يكمل ، قتله الانجليز فى سجن يافا ، سأتعلم فى الازهر واعود ، قالت فاطمة ؟

ـ ولكن الانجليز فى القنال ، فى الطريق ؟

ـ لا يهم ، حتما سأجد طريقا واصل .

ـ واختك ؟

أختى ذات العيون الحزينة ، المنكسة دائما ، الصامتة دائما ، لم تعد منذ أن هجم عليها اليهود فى بيتنا ، لم تعد لى ولا لنفسها ، تنظر الى المجهول يشق بطن الغيب وتظهر المعجزة ، ولن اجلس انا الاخر انتظر ما تقذفه لنا بطن الغيب .

هناك خلف الوديان يوجد شيء ما ، جديد لامع

حتما ، هناك خلف الوديان اشياء تسترعى الاهتمام ، وربما اجد الاجابة على اسئلتى : لم ؟ وكيف ؟ وماذا بعد ؟

كان الفجر حزينا

صعدت فوق التل انظر الى مواقع قريتى ، نظرة وداع ، اتشمم ريحا تاتى من عشب ذكريات الدار ، تذكرت الرجل الضرير ، كان يقول الشعر احيانا ويذكر فى شعره اطلال المدائن والقرى وبكاء الحمام والعشاق ، وكنت ساعتها أنظر الى حوائط الدور واتخيل لها افواها تحكى بها ، واحدق طويلا ولكن لا شيء سوى الصمت ، وكنت اقول كما يقولون مجنون ذلك الشيخ .

قال لى ذات مرة ضابط عربى : لا تنس .

ابدا لن انسي يارجل ، وداعا يافاطمة ، وستظل عيناك فوقى تطلان على ، تذكرنى دوما ..

ورحلت ..

مرت ثلاثة أيام ، اقتات بخبز جاف حملته معى ، والطريق سهلة بجوار البحر قليلا اتوارى خلف الاشجار والتلال اذا رأيت شبحا لا حد،كان لدى شعور بأنهم سوف يمسكون بى ويعيدوننى الى المخيمات .

ومضي الزاد مع الايام ، ونسيت خوفى من الناس ، وجعلنى الجوع اتلهف على رؤية انسان ، وكنت قد وصلت بلدة العريش ، تسللت اليها فى الظلام ، مجموعة من البيوت المتراصة ، ثم اشجار نخيل كثيرة الظلام يجعل من اشجار النخيل اشكالا مخيفة ، المنازل مغلقة ، طلقات نارية تأتى من بعيد ، ثم لحظات من

الصمت ، صوت ممدود مجروح وسط الليـــــل ، اقتربت من جدار منزل صغير ، جلست فى خوف .

ذاب عقلى وسط ضباب الخيالات المرعبة ، الجـوع والبرد والخوف فى ظلام مدينة ، تمددت احلام الفزع ، صارت حقلا من نبات سام يتوسطه مجموعة من أخاديد الزمن الحجرى .

هزتنى يد جندى فى عنف ، وقفت مذعورا والتصقت بالجدار حاول ان يقترب منى ، ابتعدت قليلا ، قال الرجل فى هدوء :

— ما اسمك ؟

غسلت وجهه بعينى المذعورتين وتلفت حولى التمس طريقـا للهرب ، يبدو انه فهم هذا ، امسك بى ، وقال :

— لا تخف ، هل انت لص ؟

اجبته بسرعة :

— لا

— من اين ؟

— من قرية ام السلول بجوار يافا .

وضع الجندى ذراعه حول كتفى وجذبنى اليه وهو يقول :

— من اللاجئين ؟

كنت أود أن اقول لا ، ولكنى سكت ، انست اليه ، وقلت :

— نعم .

— والى اين انت ذاهب ؟.

— الى الازهر ، فى مصر .

ضحك الجندى ، وجذبنى لاسير معه ، حاولت ان اسرع فى مشيتى ولكنه كان يعدو فى مشيته ، أو هكذا خيل لى ، عـدوت بجواره ، كان يضحك وهو يردد :

— الازهر ، مرة واحدة !

ثم توقف وسألنى جادا :

— ولماذا الازهر ؟

قلت وانا الهث :

ــ لاتعلم .

اخذنى الجندى الى دار قريبة ، وجدت بها طعاما وجنودا رحت اقص حكايتى عليهم وانا ابتلع الطعام مع نصف الكلمــات ، وحينما انتهت قصتى ، كنت قد شبعت وشعرت بالرغبة القاتلة فى النوم .

توارت احداث الايام الاخيرة ، خلف حائط زجاجى ، وقفت فتاة النرجس خلف الزجاج ، ابتسمت الفتـــاة فى دلال ورفعت يديها فى دلال وتظاهرت بالرغبة فى النوم ، صاح جندى أسود ، مكسور اللسان .. الليلة نادية .. ضحك آخر وقال .. شكرا . هربت الفتاة وجرت مع سحابة بيضاء عبرت سماء الحجـــرة ، بعدها هال الجنود ولكنى احدهم ، ابتسمت فى بلاهة .

قال الجندى ، الذى صحبنى :

ــ هناك سيارة ذاهبة الى الاسماعيلية ، سيارة التموين ، سأحصل لك على مكان بها .

شعرت بسعادة جارفة ، رحت أردد كل كلمات الشكر التى أعرفها ، ولكن الجندى الطيب قال فى هدوء :

ــ ربما أمسكوا بك فى القنطرة ، أو فى الطريق

حملقت فى دهشة ، وصحت :

ــ من ؟

اجاب بنفس الهدوء :

ــ الانجليز .. أو جنود الحدود

ارتفع الى رأسي سيل من الدم الساخن وهتفت فى غضب :

ــ هنا ايضا ؟!

اغرقتنى الضحكات من كل جانب ، ضحك الجنـــود حتى الرجل الطيب ضحك هو الاخر ، سخروا منى ومن جهلى ، وربما سخروا من الوضع كله . قال احدهم وهو يمسح ضحكتهمن على شفتيه :

— وربما الفدائيون .

انطلقت الكلمة مثل رصاصة فى اذنى ، نظرت اليه وسألته :

— من ؟

تطوع آخر بالاجابة ؟

— انهم يقتحمون المعسكرات ويدمرونهـا ، ولا يقف أمامهم عائق

— لماذا ؟

— من أجل الجلاء ، الحرية ، حرب التحرير

تشابكت الاصوات والكلمات :

— يجب ان يخرج الانجليز من القنال .

— واليهود من فلسطين .

— ليس بالكلمات ، فقط بالدماء

— ولا بالدماء فقط ، بل ..

واخذونى الى السيارة ، كان السائق رجلا ضخما له شارب اسود غليظ يغطى نصف الوجه ، مرح ، يلقى بقفشـــاته الى من حوله ، رحب السائق بى فى فتور ، أجلسنى بينه وبين مســاعده (عم جلال) ، صهلت السيارة الضخمة ، وحينما اطلق لهـا عم برعى العنان كانت تنهب الطريق الى مصر .

كنت فى شوق الى رؤية النيل ، الارض الخضراء دائما ، الى كل ما وصفه لنا أخى حمدان من معالم البلد الحبيب ، الى شوارع القاهرة القديمة ، الى مجالس الشيوخ فى صحن المسجـــد ، الى صلاة الفجر فى الحسين ، الى حوارى ملتوية تفوح منهـا رائحة حكايات الزمن الغابر ، الى كل شيء فى ذلك المكان المسحور الذى كان يصفه لنا حمدان ، فكان حديثه كعاشق ولهان ، يصيب قلوب سامعيه بهوى حبيبه .

ظللت متفتح الذهن الى ما يمر حولى فى الطريق ، وكلمـــا احسست بدبيب النوم ، تذكرت عيون فاطمـــة ، وقريتى (أم السلول) ، ودماء أختى وكلمات الضـــابط المصرى ، حتى احفظ الطريق ، لانه طريق العودة .

حاولت ان ارسم صورة فى ذهنى عن الازهـر وكيف يكون والطريق اليه ، تحللت الصور وتشابكت بقاياها ، لم اتبين ملامح صورة واحدة ، نظرت الى عم برعى وسألته :

— هل رأيت الازهر ياعم برعى ؟

ضحك الرجل ، ضحكة خشنة ، وقال :

— طبعا ، منزلنا يطل عليه

نظرت اليه فى اعجاب ، سألته :

— اذا لقد تعلمت فى الازهر ؟

— ابدا ..

وجمت ، شعرت بخيبة الامل ، عاد الرجل يقول :

— كنا فقراء ، وكان على ان ابحث عن عمل اتعيش منه انا واسرتى .

حزنت من أجله ، اشفقت عليه ، حاولت ان ابحث عن كلمات أقولها ، لم اجد . نظرت الى الامام ، كانت سحابة بيضاء تسير أمامنا ، حاولت السيارة أن تتجنبها ولكنها لم تستطع ، لقـد داست السيارة على قلب السحابة ، سمعت صرخة طفل .

قال (عم برعى) بعد عام من الصمت :

— ولكن لماذا تسأل ؟

أجبته وانا أحاول أن اداري ما بنفسي من زهو ؟

— سأدرس فى الازهر .

هز رأسه وهو يردد :

— عظيم ، عظيم

وسادت لحظات صامته ، رأيت قبـابا بيضـاء ، ودروبا تفصلها الاعمدة ، وشيوخا يتلون الدرس ، وحروفا مثل تماثيل من رخام ، و ..

— هل تحفظ القرآن جيدا ؟

قلت وانا أسبح مع حلم يحاول الهرب منى :

— لا .

تفرس الرجل فى وجهى بدهشة ، وقال :

— كيف ؟

احسست بخطورة الامر ، تركت الحلم يهرب ، وقلت فى تردد :

— احفظ بعض الآيات ، كان ابى يتلوها فى الصلاة ، وفى المدرسة لم ندرس شيئا منه ، كانت مدرسة انجليزية .

اعتدل (عم برعى) فى جلسته ، وزاد من سرعة السيارة ، وقال فى أسف :

— خسارة !

صرخت فى ضراعة :

— كيف ؟

لم يجب ، أخذ يغنى مقطعا من اغنية مشهورة بالانجليزية ، ثم خلط بينها وبين اغنية شامية ، وبعدها صفر بفمه لحنا لم افهمه وفجأة كف .

شرح لى (عم برعى) كيف انه من الضرورى على من يرغب فى دخول الازهر ان يكون حافظا للقرآن كله حفظا جيدا ، ولذلك فان الاولاد الذين يرغب أهلوهم فى إلحاقهم بالازهر يواظبون على تحفيظهم القرآن منذ الصغر .

وكانت هناك نقطا للحراسة علينا أن نمر بها ، وحينما كنا نمر باحداها ، كان عم برعى يأمرنى بأن اندس بين الاقدام ولا اتحرك او احدث صوتا حتى نعبرها .

اصابنى ، ما قاله عم برعى ، بالهم ، فجلست حزين البال ، افكر فى احلامى التى تبخرت فى أول الطريق .

ومضت الطريق واقتربنا من القنطرة ، وكان لزاما على ان ادبر لنفسى طريق التسلل الى خارج منطقة الحراسة ، ثم اقابله فى الجانب الاخر بعد ان يفرغ من أجراءاته .

وقفت السيارة ، وخرج عم برعى وتظاهر باصلاح عطب مافى المحرك ، تسللت خارجا من كابينة العربة ، رايت ســـورا من الاعمدة ، ولكنى خشيت ان يمسك بى احدهم ، جـــريت عدة خطوات ، بعدها رقدت على الارض ، اندفع ثلاثة شبان نحــــو سيارة عسكرية انجليزية كانت تقف على رضيف الجمرك وقذفوها بقنبلة ، واحدث دوى القنبلة المنفجرة هرجـا كبـــيرا واندلعت النيران فى العربة وسقط جندى كان يقودها وفر آخر وهو يطلق النار من مدفعه لحمايته ، شعرت بنشوة تغمرنى واخــــذت انظر الى السيارة الانجليزية وهى تحترق وينفجر ما بداخلها ، وترتفع الشظايا الى اعلا ثم تسقط على الارض بسرعة .

كانت هذه فرصتى ، تسللت تحت ستار حالة الارتبــــاك والضجة التى احدثتها القنبلة ، خرجت الى الناحيــة الاخرى ، بعض النشات كانت على وشك الاسراع الى البـــر الفـــربى من القناة ، تعلقت بأحدها وحينمــا اقترب الشـــاطىء قفزت الى الارض ، جريت حتى اول الطريق ، كنت فى اشد حالات الارتباك والخوف ، لا حظت هدوء المدينة رغم ان الحادث لم يمض عليـــه لحظات ، بعض الجنود الانجليز يركبون سيارة صغيرة ، جنـــدى بوليس ينادى على بائع يتشاجر ، سيارات لنقل تقف امام مقهى صغير .

ورأيته ، عم برعى ، كان يجلس فى هـــدوء يرتشف كوبا من الشاى فى استمتاع ، وجلس حوله ، بعض الرجــــال يضحكون فى نشوة ، اشار على ان اقترب ، تقدمت فى تلصص ، ضربنى على ظهرى وضحك فى نشوة ، جلست الى جواره ، اعطـــانى رغيفا وقطعة من الحلوى وكوبا من الشاى .

بعد لحظات ، ولم اكن قد انتهيت من طعامى ، نهـــرنى عم برعى بشدة وامرنى بالذهاب الى السيارة لحراستهـا ، اخفيت غضبى من معاملته لى ، واسرعت الى السيارة ، جلست بداخلها واكملت طعامى فى ترقب .

وطوال الطريق من القنطرة الى الاسماعيليـــة ظل عم برعى على غير عادته ، يسرع احيانا ويهدىء السرعة احيـــانا اخرى ،

وتوقف ثلاث مرات فى مناطق خالية ، وفى كل مرة يخرج اليــه بعض الشبان مسلحين ببنادق ، وكانوا يعطونه اشياء ويأخـذون اشياء اخرى لم اتبين كونها ، وهو لا يتكلم وكذلك الشبان .

واخيرا ، لاحت مدينة الاسماعيلية ، مجموعة من البيــوت المتباينة فى الطول والسمك ، راح عم برعى يغنى بعض المــواويل المصرية عن الحب والصبر ، وارتفع الصوت من حنجرة مخنــوقة بدخان اللفائف منددا بالظلم والقسوة وهجر الحبيب ، وصلنا الى حديقة كثيفة الشجر ، وتوقف وهو يقول :

ــ اهبط الان ، وسر بجوار هذه الحديقة حتى تصــل الى كشك للمرور ثم اعبر الطريق الى الجانب الاخــر وسر به حتى تصل الى اول منزل واجلس هناك حتى آتيك .

لم اعلق بشيء . كنت مأخوذا بالغموض الذى يحيــط به ، وانطلقت وبى بعض القلق ، تحركات الرجل تخفى اشياء لا افهمها ، غامضة توحى بالرهبة ، ولكن به سحرا يشدنى اليه ويجعلنى أثق فى كلماته ، ثم انه الامل الوحيد فى عالم لا اعرفه .

تتشابك الجمل والكلمــات للغريب فى بلد يراها لاول مرة ، مرت ساعة وانا احاول ان اسقط فى دوامة الحلم ، ولكن لا فائدة ، العقل واقف كشرطى مرور احمــق يضيء الضوء الاحمــر لكل سيارة تمر ويسأل سائقها عن الاتجــاه الذى سيسلكه . مضى الوقت ، رايت السيارة قادمة ، اشار عم جلال ان اركب ، لم تتوقف السيارة بل تمهلت حتى قفزت اليها وانطلقت مرة اخرى بأقصى سرعتها ، لاحظت ان بيد عم برعى جرحــا ينزف دما ، سألت ، ولكنه نظر الى فى عتاب .. ولم يجب .

وصلنا الى ميدان فسيح ، سيارات كثيرة ، ومحلات وعربات يد محملة بأشياء غريبة لا اعرفها واراها لاول مرة ، اصــوات مختلطة ، ممدودة منغمة .. ووقفت السيارة فى احــد اركان الميدان ، وهبطنا جميعا ، سرت عدة خطوات فى ترقب جذبنى عم برعى الى داخل مخزن كان مفتوحا .

فى هذا المخزن تعرفت لاول مرة على اصدقاء العمر الاول ،

برهان اسمر نحيف ، شاب فى مقتبل العمر ، يدخن بشراهة ، غائر العينين عصبى الحركة ، صامت ، يرتدى سروالا وقميصـــا من لون واحد ، ويعمل سائقا .

زكى ، أو (زكوة) كما يطلقون عليه ، ربعة القـــوام ، ذو وجه ممتلىء يرتدى جلبابا ازرق بأكمام واسعة ، يتـــدلى شعر رأسه بفزارة ، طلق اللسان ، ويعمل حمالا فى مخازن البضاعة ، ثم .. ثلاثة آخرون فى أواسط العمر ، يرتدون ملابس تشبـــه ملابس الجند ويعملون فى معسكرات الانجليز ، داوود طـــويل نحيف ، أشيب الشعر قليلا ، قليل الكلام ، يعمل أمينـــا لمخزن المهمات بمعسكر الجيش الانجليزى ، هذا الرجـــل كان له تأثير كبير ، فيما بعد ، على تعليمى ، جلال ، عم جـــلال ، مســـاعد الاسطى برعى ، الرجل السمين الذى يتحدث دائما على طريقتـــه الشرهة عن الطعام ، ولكن ما أخطره ؟ وجابر ، القصير النحيف ، الضعيف كفقير هندى يتعبد فى صومعة ، المـــاكر كثعلب عجوز جائع ، السريع اليد واللسان كومض كلمة حق فى عصرنا .

ومضت الايام ، زاد فيها تعلقى بأصدقائى الجدد ، وزادت حيرتى وسط ظلام حالك من السرية والغمـــوض داخـــل نفسى وخارجها ، وبادلونى حبا بحب ، رغم صغر سنى ، وافسحوا لى مكانا بينهم ، واسكننى عم برعى فى منزله كما التحقت بعمـــل فى المقهى ، مقهى الميدان البى طلبـــات الجالسين وأوزع الماء ، وأقوم بنظافة المكان ورشه بالماء ، مرتين فى اليوم ، فى مقـــابل عشرة قروش .

احيانا تقف تفاهات الحياة فى طريق الانســـان وتستغرقه ، بل انه يعتبرها كل مافى الحياة ، وتمضي به الايام فى دوامة السحر العذب لحياة خاملة ، ويستمتع الانسان بلذة مضغ قطعـــة لحم ، ودهن يسيل حول فمه ، تلعق القطة الدهن من حـــول الفم ، وتسرى سعادة الموت فى الجسد البشرى .

ازددت معرفة بعملى فى المقهى وطبائع زبائنـــه الدائمـــين وسعدت بما اكسبه من عملى ، بل فكرت فى أن اقتصد منه شيئا ، أختى تحتاج الى ثوب جديد أحمر يلمع فى ضوء القمر ، وفاطمة

ستكون باهرة الجمال فى ثوب فضي يلتف حول الجسد المشوق ولكن .. لهفى على شيء ضاع منى ، لهفى على أيامى ، على دموع سكبتها فى ماض مظلم فى عصر سحيــــق ، لو استطعت فقط ان اقول آه ، لو استطعت فقط ان اولول مثل النسوة فى مأتم لرجل عزيز ، ولكن .. سعيد باصدقاء جدد ، وبمال كسبته ، وحزين لعدم تمكنى من دخول الازهر ، ولا استطيع مشاركة الرجال فى احاديث جادة يعملون على اقصائى من مكانهم اثناءها ويرسلوننى الى أماكن بعيدة أجلب لهم أشياء غير ذات أهمية .

دوامة الحلم ، تيار من المعايشة الذاتية ، تصنـــع لنفسك وبنفسك احداثا هامة ، تكون أنت البطــــل ، والمتهم والبرى ء ، الظالم والمظلوم ، اسد الله فى ارض الكفرة ، ورسول العــــدل فى ارض الجور ، وشعلة الخير والنور فى ارض الخراب ، وتعود لكن مثل جبل من حديد اللمات ثقيل على اسطر الصفحة لا يتحــرك ، ويتوقف السيل العذب لقطرات رحيق الشهد العلوى المقـــدس ليحل محله مرارة واقع العصر المتخلف ، حيث تصبح الكلمـــة قيد ، والهمسة قيد ، والصمت قيد ، قيود من ذكريات تكبــــل عقل ثائر لا يعرف كيف يثور !.

عدت اليهم فى المخزن ، رأيت وجوما على الوجوه ، وحزنا فى العيون ، درت حول الرجال ، أقول كلمة أو اثنتين ، ولــــكن الشفاة مغلقة فى ألم ، حاولت أن أثير عراكا ، لم يشاركنى احد ، وقف داوود ، نفرت يده من جسده وارتفعت فى الهواء ثم هبطت مذبوحة بجوار ساقه ، تشنجت عضلات وجهه ، وقال :

ــ برعى مات .

صرخ الرعب فى قلبى ، ارتفع عويل النســـــاء ، سقطت من عينى دمعة غطت الضوء ، رأيت ظلاما ، وفى الظلام لمحت بئرا ، فى البئر ثعبان يتلوى ، ارتطم بجدران البئر ، صرخ الثعبان وبكى فى حزن ، ارتفع الدم الى رأسي ..

قدرى منحوس ، من أحببته مات ، وقبـــله مات الحجــر الابيض الراقد امام دارنا ، وارتفع الثعبان الى اعلا الجدران ، نظر

الى فى صمت ، خيل الى انه يقول شيئا ، او ربما سمعت صوتا آخر يأتى من بعيد ، قال الصوت .. اقتل من قتله ، وادفع سكينا فى صدره ليسيل دمه ، لتمسح به راس المقتول ، ربما يساعده ذلك يوما ما .

وقال صوت آخر .. انتقم من قتلة المسيح ، ولتكن صرختك تشق عنان السماء ، لان السماء اصبحت اكثر قسوة .

وقال الشيخ الضرير .. ادفع شيئا للحارس ، ربما يعطيك شهادة دفن وسلاحا ، وربما يعطيك زق نبيذ وفخذ لحم ..

ونظرت .. فاذا الجدران تبكى ، وقطط ، تموء ، وبعض الكلاب ترقص ، وسألت : من هؤلاء ؟

قالوا : اشياء ماتت من زمن .

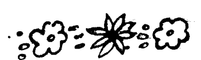
وعدت اسأل : ولماذا يتكلمون ؟

قالوا : لانهم ماتوا من زمن ؟

وضحك القمر ، ووقفت طفلة تبكى وتقول : اين ابى ؟

وذهب القمر ، وجاءت الشمس ، والطفلة تبكى وتقول : اين ابى ؟

وذهبت الشمس وجاء قمر ، والطفلة تبكى وتقول :
أين ابى ؟



فاطمة الحبيبة ، مخيمات اللاجئين ، غزة

انا بخير ..

من قال اننى قتلت ؟

مجرد جرح بسيط فى كتفى ، جـرح بسيط فى الكتف فى مقابل عشرات من الرءوس المقطوعة ، الربح والخسارة لعبة الحياة الابدية ، المكسب فى جانبى ، الانسان يصاب بجرح وهو يسير على افريز الشـارع بينما يلهو فكره حول اكلة دسمـة او فكرة خبيثـة تعشش داخله ... الجرح فى معركة فدائيـة وسام شرف .

نقلوا اليك خبرا كاذبا ، ولم اقتل .

انا فى شوق اليك ، والى ديارنا

انا فى شوق الى العودة ، وطريق العودة يبدأ من هنا ، من هذا الجرح ، الجنود البؤساء يرحلون ، جاءوا من عوالم مختلفة تحركهم رغبة رجل مجنون ، يجلس فى حجرة تقع فى منزل انيق بأحد شوارع لندن ، يشرب الشاى فى الخامسة ، ويتناول طعامه فى الثامنة ، شريحة من الخبز ونبيذ وزبد وقطعة من فخـذ خنزير ، هكذا يكفى ، الرجل يسير وفق تعليمات الاطباء ، كأس من دم انسان أسود مخلوط بقطرات من دم انسـان اصفر ،

والاجمل اضافة محلول نخاع امراة سمراء ، ثم يجلس بجـــوار المدفأة ، ابنته المدللة ، مدمنة الخمر والانحلال والتفاهة ، تجلس على ركبتيه ، تقول فى ملل .. أخبـــارك لم تعـــد تثير فى نفسي البهجة . يبتسم الرجل ويمتص شهوة تسيل من فمه ، ويقول .. ما العمل ؟ تعود فتاة الرجل لتقول .. اريد مزيدا من الدم والمال والخمر ، مزيدا من الالهة العطشي لدم الانسان .

وتأتى اخبار من باريس .. تقول القاهرة ، يلتهب لســان الرجل ويصيح فى شراسة .. احرقوا المدينة ، مساعده يقول .. الجنود يامولاى يهربون .

الفدائيون ينسفون الاصنام فى صدور عسكر الملك ، يهرب الرجل الانيق الى منزله الريفى .. ليستريح .

وعندما يرحلون ، وهذا اول الطريق ، تبدأ مسيرة طويلة ، لثعبان بشرى يمر بيافا ، والناصرة ، والقـــدس ، وقـــريتى ام السلول ، يلتهم افاعى السحرة وبعـــدها يا حبيبتى ، تسقـط الاقنعة ، ويقطع السحرة أيديهم ، ونعود يا حبيبتى الى ديارنا ..

فاطمة الحبيبة ..

وصلنى الخطاب ، مع (حسام) ، شكرا لك ، تحيـــاتى وحبى ..

(بلال)

●●●●●●

كان الوقت مساء ، خرجت من المخزن احمــل اوامر برهان الى افراد الكتيبة ، مثلما افعل كل يوم ، درت على المحلات والمقاهى بالطريقة التى تعـــودت عليها .

وفى الموعد المحدد ، اجتمـــــع الرجال فى اول حديقة المانجو ، او الموقع رقم (٨) كما كنــــا نطلق عليه ، كنت اقف بعيدا لكى أعطى اشارة الخطــر أو الامان ، انتظرنا برهان ولكنه لم يحضر ، القمر يعلو فى السماء ، عربات الجيب تقوم بمناورة على الطريق المؤدى الى المعسكر رقم ١٢ ، الالغام فى جوف السلال والايدى قابضة فى توتر على البنادق ، وصـــوت ذكر الضفدع فاقعا وسط هذا السكون المعتم .

مضي وقت كجبل موسي فى سيناء ، سمعت صوتا لارجـــل قادمة ، وحشائش تتحطم ، أطلقت اشارة التنبيـــــه ، جاوبتنى بسرعة اشارة الرئيس ، برهان جاء ، ظهر للرجال فى خفة ، انسل وسطهم ، وقال :

ـ لقد علموا بتحرك الليلة .

برقت العيون فى انتفاضة الخطر ، برهانَ عاد يقول :

ـ سيحدث تغيير بسيط .

وقال كلاما مبهما ، نظرت الى النجوم ، كنت صغيرا وسط عمالقة ، لايخافون الموت ، دخلوا معسكرات الانجليز آلاف المرات ، خربوا ودمروا ، وزعوا المنشورات على مكاتب القادة ، وضعوها فى ادراج مكاتبهم ، لهم جرأة النمر وشراسته ، ذلك لانهم صنعوا الموت ولم يخافوه ، لم ادخل معهم حتى الان ، ولكن لى دورا هاما ، ابلاغ اوامر التحرك الى المجموعات ، نقل رزم الكومى (المنشورات) ، حمل سلال المفرقعات تحت غطاء حبات المانجو أو التمر ، لم ارتكب خطأ واحدا خلال الثلاث سنوات التى عملت فيها معهم ، ولكن ملعون الكذاب والجبان ، كانت بى رغبة الدخول فى دخان القنابل ، والاشتراك فى العمليات .

قال برهان :

— قبضوا على مهران الضبع وهو يتسلل الى مخازن الذخيرة ، واجبروه على الكلام .

ووجم الرجال ، نظروا الى داوود الذى اشاح بوجهه فى غضب وقال :

— لا يهم .

داوود ، أمين المخزن ويعرف الكثير من اسرارها ، واعتراف مهران معناه النهاية بالنسبة لداوود .

لا يهم الرجل موته ، ولكن يهمه كيف يموت ، لعبة الموت لا يجيدها سوى قلة من الرجال ، اما لعبة الكلام والثرثرة فيجيدها الكثيرون ، وداوود من القلة .

قررت الجماعة نسف المخازن ومكتب ضابط المخابرات ، تعدلت الخطة قليلا ، من سرقة المخازن الى النسف ، هذا افضل ، الخطة تقتضي وجود انتحارى يقوم بعملية النسف ، أصررت على القيام بهذا الدور .

وزغرد القمر فى السماء ، وتمايلت اشجار المانجو فى نشوة ، وحملت صندوق المتفجرات ، وبدأنا الخطو ..

زحفنا ، الجو يميل الى البرودة ، ورياح خفيفة تأتى من ناحية البحيرة سور المعسكر من السلك الشائك ، كشافات الحراسة ، صوت قارب بخارى يقوم بمناورة ، الكشافات الضوئية تلمع فى السماء فى حركات خاطفة وأشباح جند تبدو فى حركة منتظمة .

لابد من الانتظار ، اختفاء القمر ساعة الصفر ، اقترب برهان وهمس فى اذنى :

ـ شديد يا رجل ؟

ابتسمت ولم أجب ، كنت فى حالة تيقظ تام ، اطبق على فمى حتى لا انطق بكلمة او يخرج تنفسي مسموعا ، اخشي ان يعرف الرجال انى خائف والحقيقة ، كنت أحيانا ، وللحظات قصيرة ، افقد الشعور تماما ولا احس الا بثقل راسي او نارا تصعد منها ، ويطفو الخوف كسحابة ويمر ، وسرعان ما تغمرنى السعادة .

وفجأة ، انبعث ضوء قوى من كشاف فى برج ، احال المكان الى وضح النهار ، اختبأنا بسرعة خلف جذوع الشجر ، وأحسست ان ضوء الكشاف يكاد يخترق جذع الشجرة التى أقف خلفها ، وأن اللهيب ، لهيب الضوء ، يلسعنى ، مرت لحظات ، ليستمر الكشاف دورة ، دار الكشاف فى بطء ، دورة كاملة ليعود مرة اخرى الى التلصص نحونا فى تعمد محموم ، ثم راح كما جاء ، اعطى برهان اشارة التحرك ، المجموعة الاولى نحو الجنوب ، بعد قليل ، تحركت المجموعة الثانية ، مندفعة ، نحو السور لتمهد طريقا لنا ، تسللنا ، بسرعة ، خلفهم . كانت الاوامر الصادرة لى ، ان اخترق السور فى المنطقة التى تمهدها المجموعة ،وجريت ، كان على ان اصل الى مخزن الذخيرة واضع المتفجرات فى مكان وصف لى جيدا ، ثم اعود ، او لا أعود ، هذه مشكلتى بعد ذلك ، وهناك ممجوعتان ستعملان على تغطية تسللى وانسحابى .

امرنى برهان بالهدوء ، مرت مجموعة من الجنود فى داورية حراسة ، كانوا يضحكون ، وودت لو قذفتهم بقنبلة ، نهرنى برهان بمجرد أن أحس بحركة يدى .

مكثنا فى مكمننا حتى اختفت داورية الحراسة ، وبدأ الزحف من جديد نحو مخزن الذخيرة ، كان هناك شارع او ممر يقطع ما بين منطقة مزروعة بالاسلاك الشائكة ومبنى المخزن ، تقدم برهان ودارت معركة صامتة مع جندى ، لمحت خنجره يهوى ويرتفع عدة مرات ، ثم اشار الى برأسه ، عبرت الممر بسرعة ، تصورت الجندى وهو يموت ، شعرت بالكآبة والحزن واستولى على شعور بالخوف من برهان .

كان على أن اصل الى المنحنى وادور معه حتى الفتحة المحددة لكى أضع المتفجرات ، لمحت جنديا يقف فى حركة مشدودة تصلبت عضلات ذراعى ، ارتفع صاروخ من النار خارجا فى اندفاع من أذنى ، كان يجب أن يرانى الجندى ، قفز برهان وجذبه الى الارض ، خيل الى ان الجندى ظل يحملق فى وجهى قبل ان يسقط ، تخطيت جثته واندفعت بأقصى سرعة بجوار الحائط ، أتحسس الجدران بيدى ، كانت الدنيا ظلاما دامسا وفجأة ، اخترقت يدى فجوة فى الجدار ، كانت المنطقة المتفق عليها،وضعت سلة المتفجرات بحذر شديد واستدرت بنفس السرعة ، اصطدمت بجندى ، آلمتنى الصدمة ، لم أفكر ، كرهته ، دفعته نحو الارض فى وحشية ، وانهلت عليه ضربا بمؤخرة مدفعه ، تطايرت قطع اللحم الحار ولامست وجهى ، انبثق شلال من الدم الساخن من رأسه ، كسي الدم وجهى وغطى على عينى ، سمعت صوت الرصاص فى الجانب الآخر .

اقتحمت باب الجب ، رأيت جبلا من الافاعى ، وضعت هديتى امام العفريت ، نظر الى فى غضب ، اطلقت ساقى للريح وهربت ، ولكن صادفنى الحوت فى طريقى ، اقترب منى وفى فمه قطعة من ذراع برهان صرخت بأعلى صوتى :

— أمى .

الرجل الطفل يصيح ، لم اسمع ردا ، قطع القماش تناثرت حولى ، منقوشة برسومات الفن الدموى الساخر وقطع اللحم ، تحول ما حولى الى اشلاء ، وتحولت الرجال الى قطع من حجارة مكسورة ترقد فى لا مبالاة ولا تسمع الاوامر .

تحرك برهان بسرعة ، ترك ذراعه للحـــوت ، وزحف على الرمال وشدنى ، لم اتحرك ، راودتنى فكرة الجنة ، النعيم الابدى وسط الحور ، بنات كما القمر الشفاف ، وتصريح دخول ، فرصة لن تعوض وجلست أنتظر الموت ، برهان رجل دنيوى ، امرنى ان أتحرك ، وزحفت معه ، لا بأس سوف أعود واحصل على التصريح ، الارض تتمدد من تحتى وانا لا اتحرك ، تشبثت بالارض لأتحقق من صحة هذا الامر ، انفتح سيل من النيران ، تراجعت عن فكرتى ، وأسرعت بالزحف من جديد ، خطوات واصـــل الى ، الى أين ؟ لا أدرى ، الرغبة فى الحياة تجرنى الى الامام ، لا اريد الموت الآن . نعم لا أريده الان ، فقط الان ، وليكن بعد ذلك ، قف .

وقفت ..

✻ ✻ ✻

حبيبتى فاطمة :

الجرح يذكرنى ببلادى ، اسمر غائر فى الذراع ، يتلوى فوق الساعد ، وفى نهايتـــــه يغضب ، يضم شفتيه ، وتحوم حوله التجاعيد .

نعم ؟ الانجليز ؟ حقا سيخرجون الشهر القادم ، نعم ، سيتركون القناة بعد عدة اسابيع ، وبعدها لن يوجد حاجز بينى وبينكم ، اعبر القناة دون تفتيش او ارهاب ، ولكن ..

هل انتهت المشكلة ؟

لا ، لم تنته بعد ، ما يزال امامنا خط طويل علينا ان نقطعه حتى بلدتنا فى الوطن الحبيب ، فلسطين .

مات من الشعب ، عم برعى ، وآلاف الالاف من أمثـــال عم برعى . قرى كاملة احرقها الرجل اللندنى بسكانها ، انصهر الحديد مع لحم الرجال ، صاح طالب فى فناء مدرسة : الاستقلال ، ووقع على الارض مدرجا بدمه ، سال الدم من فصـــول المدارس ، ملأ الدم فناء المدارس ، فاض الدم من فناء المدارس ، اغـــرق الدم شوارع المدينة ، ملأ الدم شوارع المدينة ، فاض الدم من شوارع المدينة ، وقتها تلاقى دم المدائن مع دم القرى والنجـــوع ، شبع الرجل واحس بالملل ، وهاهو يخرج من مصر .

والذى حدث فى مصر ، يمكن ان يحدث فى فلسطين ، وليس

علينا الا الصبر والاستعداد لمثل هذا اليوم ، لقد كنت اساهم فى تخريب ، وتدمير ، ونسف معسكرات القناة لانها الوسيلة الى تدمير معسكرات اليهود فى بلدى ، فلسطين .

حبيبتى فاطمة ..

تسألينني متى احضر اليكم ؟ لا ادرى ، لا انتظر سوى رؤية انسحاب الجنود ، حتى اسعد بلحظة غالية قاتلت من اجلها طويلا ، وبعدها احضر اليكم ، وربما حضر معى برهان ، من برهان ؟ ساخبرك حينما نلتقى .

حبيبتى فاطمة ..

نسيت ان اقول لك اننى اصبحت سائقا ممتازا بفضل تدريب عم برعى ، وبفضل تشجيع برهان ، ايضا .. والاكثر من ذلك استطعت ان اوفر مبلغا صغيرا من المال ، ربما حاولت استغلاله فى مشروع ما .. لاننى شديد الشوق لكى اعود اليك .

الغربة ، كلمة جوفاء لمن لا يعيشها ، عشتها انا ، رغم حنان اسرة عم برعى ، حيث اقيم ، فاننى اشعر بالغربة كلما فكرت فى بيتنا ، وفى ملاعب طفولتى ، وفى مدرستى ، وفى الاشياء الصغيرة ، تلك الاشياء التى يتشبث بها الانسان طوال حياته ، قطع الحجر الصغيرة التى كنا نلعب بها ، حفر الرمال الضحلة ، ورقات ملونة ، حمراء وصفراء ، اقلام قصيرة مبتورة ، دروب ملتوية فى الطرقات ، شتاء بارد وقطعة حلوى ، عيد باسم وقروش فرحة فى الايدى الطفلة ، أشياء يمكن للانسان ان يخاصمها ويسالمها ، ويحارب من اجلها صغيرا ، وتشرق فى ذاكرته كبيرا ، تكرار ودوار ، لفحة حر ورياح عاصفة تلعب بذرات هواء الخياشيم ، تلك هى احلامى .

احس وكاننى فى جب مظلم لاقرار له ، ولا نهاية ، ينـدفع لهيب من النيران عبر صدرى ، ويخرج من فمى ، يحرق كلماتى تخرج الكلمات ، كريونا محروقا ، واتقيا ما فى فمى من سعادة وحنان ، ملعون القائم والقاعد ، ملعون انا ، واشعر اننى لا استحق

الحياة ، اظل مشغول الفكر اقلب الامور فى عقل خرب ، لعــــلى أهتدى الى حل ، والسؤال يلح على تفــكيرى .. متى نعـــود ؟ صياح يأتى من النفق البشرى الذى صنعه المفتربون ، متى نعود ؟ متى العودة ؟.. وكيف ؟

يقول الرجل الضرير ، والصوت يأتينى عبر متــاهات الظلم الابدى ، قوة كبرى استغلت ضعفنــــا ، وقسمت ديارنا على متشردى العالم ، وهذه القوة مازالت تتحكم فى المصير البشرى .

ساعتها خالفت الرجل الضرير ، وقلت : لا . نظر الاخرون، وسالتنى عيونهم ، لم أجب ، كنت صغيرا ولم أكن أعرف الاجابة، واصل الرجل الضرير حديثه .. القوى ، الذى يملك مصـــادر القوة ، يحكم . وافقه الحاضرون بهز الرؤس ، واصل الرجـــل الضرير الحديث .. باسم القوة يحكم ، وباسم العدالة والحرية يحكم ، باسم الانسان يحكم ، ولذلك فانه يســـاندهم ، ليزداد قوة ، باسم القوة يحكم ، وتاتى الحرية والعدالة وفقا لمعايير هذه القوة .

لحظات من الصمت المتردد تمر ، تمضي ، ويسال الحاضرون: .. ما العمل؟

ابتسم الضرير ، وقال : يجب ان يفقد هذا القوى قوته .

قال السامعون : حقا قلت .. ثم ؟

قال الضرير الشيخ : الاهم مصادر قوته

سأل السامعون : وما هى يا مولانا الشيخ ؟

أجاب الشيخ الضرير : انتم .

ووجم الحاضرون ، السامعون ، الطيبــون ، الملوثون ابدا ، وكانت تفوح منهم رائحة الزيت والنساء .. والكلام .

حبيبتى فاطمة ..

بلادى ، بلادى لك حبى وفؤادى ، لك روحى ، لك الله .

كيف الحال عندكم ؟

لقد نسيت أن اسألك الاخبار ، كيف حال أختى صبــاح ؟

وكيف حال مولودها ؟ لم اكن اظن انها تنجب من هـــذا الوالد العجوز ، الذى تعدى عمر الاباء من سنين !! الحالم ابدا ببيارات ضاعت كان يملكها ، وأولاد له كان يحبهم ، والان تفرغ للانجاب !!

أنا ، أيضا ، سوف أفعل مثله ، وليكن الابن بدا جـديدة فى سبيل العودة ، ساعدا يحمل السلاح فى سبيل النصر ، فلا تثريب عليه ، وعلى من ينجب الاطفال ، ليظل الشعب مستعـدا للعودة بجنود من ابنائه . زحف بشرى : جحافل من الاطفال والبنادق تسد عين الظلم . قولى لاختى ان ترضع وليدها لبن المأساة ، وان تغذبه من عشب العودة ، وان تلفه بسروال الكفاح ، وان تضخمه برائحة تراب قريته ، لانه من المهم الا ينسي ، والويل لنا كل الويل اذا فقد الوليد رائحة تراب بلدته .

كتب التاريخ تقول : ارضعوهم لبن الغضب والثـــورة ، احفروا فى عقولهم وعلى ذوائب جفونهم لحن العودة ، لانهم جنـد العودة وجيش الخلاص .

فاطمة الحبيبة ..

اريد ان اقول كلاما حلوا ، مثل ما يقال فى هذه المناسبات ، كلاما يقطر حبا ، ويعبر عما يكنه لك قلبى من عاطفــة ، ولــكن لا هناء لفاقد الوطن فى الحب ، فلا تغضبى ، اعذرينى ، وسوف أعوضك عن هذا كله حينما نعود ، وساعتها ستصرخين طالبـة أن أكف ، ولكنى لن أسمع صراخك ، واظل اجرى خلفك وسط تلال الاوراق الخضراء لبيارات البرتقال ابثـك لواعج فؤادى ، وأدور معك حول اشجار الزيتون : واغنى لك لحن البلاد السعيـــدة ، وتفرين منى حينما تسمعين نداء (وليد) عائدا من مدرسته فى يافا المقدسة ، ويرمى الولد الشقى حقيبة كتبه على ارض الحديقـة ويسرع فى لهفة الى احضانك ، مناديا :

— ماما ، لقد عدت من المدرسة .

— وماذا علموك يا وليد ؟

وينظر الولد الى عينيك ، فى شفافية ، ويقول بلغة الطفل :

— ف . ل . س . ط — فلسطين .

وتصرخ الفرحة فى عينيك ، ويزغرد السرور فى صـدرك ، وتطفو الكبرياء حول شفتيك ، وتهللين ، ها ، لقـد تعلم الولد نشيدا رائعا .

وبعدها نجلس فوق العشب الاخضر وتحت ظلال الزيتـونة نتذكر اياما مضت ، وفى المساء يلتئم الشمل ، ونجلس جميعا فى منتدى القرية ، لا ، احلام ، لا اريد ان اعود بعقلية ما قبل الغربة ، اريد أن اعود بعقلية ما بعد العودة ، حسنا يا صـديقى ، اننى موافق على شراء ماكينات الرى الجديدة وكذلك ماكينات الانارة ، اما بالنسبة لبرنامج الاحتفال بعيد العودة الرابع فانه يحتاج الى بعض التغيير : ما ذا تقولين ؟ يجب أن يذهب وليـد الى قصر الطفل ، نعم ، لقد تغيرت الامور كثيرا .

فاطمة ..

لا ليس حلما فى ليلة صيف ، او ان حـدا ياتينى بذلك الرجل الشيخ الضرير ، اناقشه ؟

لك تحياتى ، وسلامى الى الاهل ، كل الاهل فى مخيمـات العائدين .

(بلال)

●●●●●●

عدت الى غزة :

وكان فى قلبى شوق عارم لرؤية فاطمة .

مضت سنوات على فراقها ولم يكن بيننا سوى رسائل قليلة نتبادلها ، احيانا عن طريق بعض القادمين من غزة او المسافرين اليها ، وخاصة هؤلاء الذين تعرفت عليهم عن طريق برهان ، والذين كانوا يسافرون الى الحدود مع العدو للقيام ببعض الاعمال المشابهة لاعمالنا فى القناة .

ولكن الامر الذى كنت متلفها الى فعله اكثر من اى شىء آخر ، اكثر من لهفتى لرؤية فاطمة او أختى صباح ووليدها ، هو الصعود فوق التلال والنظر الى بلادى من بعيد ، وتنسم الهواء القادم من هناك .

كانت سيارة النقل ، السيارة الضخمة التى حملتنى الى هنا ، تنهب الارض بسرعة هائلة يقودها الاسطى جلال الذى اصر على أن يوصلنى بنفسه ، والطريق يذكرنى بعم برعى وقفشاته ومرحه وشجاعته ، تهتز السيارة من وعورة الطريق ، اشعر بتوتر يشلنى لحظة وتدفق الذكريات عبر أخاديد عقلى : موال الصبر يغنيه الرجل المناضل ، الحركة والحياة التى كان يبعثها ، صدمة العواطف المبكرة وحرمانى من التعليم فى الازهر بكلمة قالها عفوا ، تدور دوامة من الصور ، يحتل الشهيد مقدمتها .. وأطلب الرحمة له .

توقفت السيارة امام نقطة الحدود ، خرج رجل الشرطة يسألنا الاوراق المختومة ، ابرزنا له ، فى ضيق ، مجمـوعة من الاوراق والبطاقات ، نظر الشرطى الى بطـاقتى ، ثم نظر الى وقال :

— أين التصريح ؟

وقفزت الكلمة امام عينى ، واصـابتنى بدوار ، تصريح ؟ لماذا ؟ لأدخل بلادى ، أو قل بقية بلادى ؟

لا لم يصل الامر الى هذا الحد ، الشرطى عربى اسمر ويقف على ارض عربية ، احيانا اصاب بالغباء ، هـكذا كان يقول لى برهان ، والان ها انا فى لحظة الغباء ، قطع هياجى الداخلى صوت الاسطى جلال وهو يصيح :

— ها هو التصريح .

واخرج بضعة أوراق من جيبه وابرزها للشرطى .

حملق الشرطى فى الاوراق بضع لحظات ، ثم كتب عليها كلمة او كلمتين وناولها للأسطى جلال واشار لنا بالمسير ، كان الشرطى بارد الاشارة والكلمات ، نفورا متأففا ، اثار فى نفسي العـديد من الاحاسيس المتباينة ، منها الشفقة ، نظرت الى الاسطى جـلال ، اخذ يغنى عن الوابور المسافر الى بلد المحبوب ، جذب يد السرعة زمجرت العربة فى غضب ، أعاده الى مكانه وهو يواصل الغنـاء انسابت السيارة فى سرعة منتظمة ، لم أجد بدا من الحملقـة فى اللاشيء .

ولم تمض مسافة كبيرة حتى استوقفنا شرطى اخر خرج من كشك خشبى كئيب المنظر ، فحص الاوراق وهـو يردد بعض العبارات ، كان يبدو لى ، من خلال النظر الى وجهه ، انه حارس الجنة وهو سعيد بتلك المهمة ، دققت النظر ، كان فلسطينيا مثلى صحت فيه :

— من اين يا اخى ؟

رفع رأسه ، ونظر ، ثم قال فى بلاده :

— من أم السلول ، وانت ؟

قفزت من كابينة السيارة ، اخذته ، هـــذا السلولى ، بين احضانى أشبعه لثما واحضانا ، صائحا بكل قوتى :

— يا اهلا يا ابن بلدى ، يا مرحب يا ابن قريتى .

كان مشهدا رائعا أثر فى نفسي الى أبعد الحدود ، وانا اعانق رجلا من قريتى لم أر احدا منها زمنا طويلا .

وانسابت الذكريات بيننـــا ساعة من الزمن ، الايام التى مضت الاصدقاء والمعارف والاهل ، قصصت ما اعرفه ، وحكى لى ما يعرفه ، احيانا تكون الاخبار والحكايات مفرحة وفقا لما يهواه الانسان ، واحيانا تكون محزنة غير ما يهواه الانسان ، والمغترب لا يملك الا الذكريات حينما يقابل مغتربا اخر ، علمت منـــه ان معظم اصدقاء القرية حضروا الى غزة ويعملون بها ، والبـــاقون رحلوا الى بلدان اخرى يعملون او يدرسون ، وسعدت به شرطيا يعمل تحت علم بلادى .

واصلنا السير ، بعد ان اخذت موعدا مع يونس للقـــاء فى غزة ، اصبحنا الان نسير فى بقية بلادى او ما يسمونه القطاع .

رائحة بلدى ، تراب بلدى ، نسيم بلدى ، ذرات هواء بلدى الخضرة والجدب ، الرمل والارض السوداء ، قنوات الماء ، حفيف اوراق الشجر ، تحيات الرجال فى الطرقات ، نهنهة طفل يبكى ، فتيات المدارس ، والاشياء الاخرى ، همس الذكريات ، تقـــابل حرف الهجاء مع مثيله فى نفس اللهجـــة ، رائع مفرح ، يفيض الشعور ، يتدفق ، اصرخ من البهجة ، هذه بلدى ، او كيف يكون الوطن .

وجدت اختى صباح وزوجها فى انتظارى ، وفى قلق لتاخرى عن الموعد الذى سبق وان حددته لوصولى .

لم يكن هناك بد من قضاء بعض الوقت معهم ، يســألوننى عن مصر وأهلها ، واخبارها ، ومساجدها ، وجنـــودها وموعد الخلاص ، وانا أجيب ، وعينى على الطريق متلفها لرؤية فاطمة .

وجاء الطعام ، واصرت اختى على ان اكل امامها ، لم تكن بى رغبة فى الطعام ، كنت متلهفا لامر اخر ، تعللت بأسباب كثيرة ، اخذت اوزع عليهم ما حملته لهم من هدايا ، وفرغت من هـــذا كله ولم تحضر فاطمة .

واخيرا ، فقدت ما حاولت ان اتصنعه من صبر وكياسة ، ونظرت الى اختى فى ارتباك ، وقلت :

ـ اين فاطمة ؟

مرت لحظات ، حاولت ان ادارى خجلا عربيـــا ممسوخ المعنى ، قالت اختى لزوجها :

ـ هل حجزت مكانا لمبيت بلال ؟

اجاب الرجل ، فى نغمة مكتومة :

ـ نعم

هززت يدى فى وجه اختى ، وقلت ، بعد عناء :

ـ اين فاطمة ؟

اشاحت بوجهها بعيدا ، وقالت لزوجها :

ـ اين يا رجل ؟

اخذت وجهها بين يدى ، نظرت فى عينها ، وقلت فى اصرار :

ـ اننى اسألك اين فاطمة ؟

اثلج الوجه فى يدى ، عاتبنى رمش العين الواجف ، واصلت سؤالى :

ـ لماذا لم تحضر وهى تعلم بموعد وصولى ؟

اهتزت فى الم ، اندفعت قطـــرات الدمع من العينـــــين الحمراوتين ، احسست بالم حاد فى أسفل معدتى ، تركتهـــا ، اخذت اعبث فى حقيبتى ، صاح زوج اختى ردا على سؤالهـــا القديم ، وقال :

ـ فندق المحطة ، قلت لك فندق المحطة .

وتطلعت اليه ، كرهته ، ذلك الرجل العجوز ، لئيم ، تزوج اختي ليأكل وليمارس الاشياء الملعونة معها ، ولا شيء .. ويكون سماء النجم الساطع ، ويكون القمر البدر ، الناهي في ملـــكوت العشاق ، ذلك يوم النحس ، ويكون ..

ـ لمن الفندق ؟

إجاب الرجل في هدوء أحمق :

ـ لك ياولدى .

ـ لا ، لن أقيم في فندق وانا في بلدى .

الرفض رؤية ، قالوا في الامثال ، الغـــربة نار تحرق كل الكلمات ، نظرت الى اختى ، تبكى ، لا ادرى لماذا تبكى دائمـــا ، والعالم يتغير ، يثور ، تغلى في أعينه جمرات الرفض ، وهى مازالت تبكى من يوم النكبة ، قلت في صوت حاد :

ـ سألتك عن فاطمة ولم تجيبى ؟

زادت قطرات الدمع ، ولم تقل شيئا ، تكومت على نفسها في الم . كان الرجل العجوز يعبث بعلبة الدخـــان ، نظرت اليــه وقلت :

ـ قل شيئا .

رفع راسه في بطء ، وقال :

ـ فاطمة يا ولدى ..

سحبت الكلمات من فوق اللسان ..

ـ قل ، ماذا بها ؟

ـ لا شيء يا بنى ، لا تقلق ..

سحابة من الغباء تراكمت فوق الذهن المكـــدود ، وزكام الثورة يمنعنى من التنفس ، تحركت يدى لتضرب الهواء ..

همست اختى ، وهى مازالت تبكى :

— انت خائف من اجلها ؟ ولكنها لم تفعل مثلك ؟

ضايقني الهمس المسموع ، صحت :

— اخبروني بالله مهما كان الامر

اندفع سيل الاسرار ، وتناول الكاهن قربان الرب ، وقالت اختى :

— حسننا ، لقد تزوجت امس .

قالت اختى ذلك وجلست تتنفس بصعوبة ، نظــرت الى زوجها ، القى الرجل بكل ما عنده ، وقال :

— تزوجت من رجل ثرى ، من اهل غزة ، له تجارة ومال ليس ، على الاقل ، لاجئا .

قفز الرخ وطار ، دار حول العالم مرتين ، وفوق جبــــل النرجس الاملس حيث الابراج الخرس ، وقف ، شعر بالرغبة فى النوم .. فنام ، نام عاما ، وعاما ، ومضت الاعوام ، وفى ذات يوم تغير وجـــه الكون ، وانسحق جبل النرجس من تحت اقــدام الرخ النائم ، كان على الرخ ، حينما يفيق من النوم ، ان يجـــد لنفسه ملجا ، و ..

لاجىء ..

وهل اردنا ان نكون ؟

فاطمة مثل القط ، القط جميل ، تموء من فقـــر المرقد ، تبحث عن الليونة الدافئة ، تجلس فوق وسادة الحرير ، الوسادة الحمراء الموضوعة ، بعناية ، فى ركن من فراش السيد ، لــكى يتناولها وقت الرغبة ، حينما يعبث به شوق المضاجعة .

فاطمة لاجئة مثلى ، مثـــل الالاف ، الملايين التعســــاء ، اصحاب الحق المفقود ، لا بيت لهم ، خيـــــامهم بليت من دمع سكبوه ..

يا قوم : انى اسالكم :

— لماذا نحن ؟

ذلك مجرد سؤال ارفعه اليكم ..
— لماذا نحن ؟

صرخ ارنب فى رعب ، وقفز ، ولكن التنين كان فى انتظاره وقبض عليه امسكه بين يديه ، واخذ يتسلى بالنظر اليه ، دون ان يلتهمه ، فقط ينظر اليه ويضحك ، التنين هائل الحجم ، كبير الانياب حاد اللسان ، فمن يقول له : لا ؟ لا احد ، الا اذا كان له نفس القوة ، وكذلك نفس الانياب . مسكين يا ارنب ، جسمك ضئيل ، رقيق ، ولا انياب لك ، اسنانك رفيعة مثل حبات الحمص ، وقلبك يا عزيزى الارنب جبان ، مذعور دائما ، فكيف تواجه قلب التنين الاعظم الذى لا يعرف الرحمة ، ولا الخوف ؟

اقترب الثعلب من زعيمه .. الثعلب جائع ، ويقولون انه يميل الى تذوق لحم الارانب ، قال الثعلب :

— مولاى الملك ، ان قلب الارنب ، اذا اكلتموه ربما ، ربما ينقل العدوى الى قلب جلالتكم ، ولهذا ارجوكم عدم اكله لانه قلب حيوان جبان .

وخاف التنين على قلبه ، وقذف الارنب من فمه .

وما ان فعل الملك ذلك ، حتى امسك الثعلب بالارنب المذعور والتهمه فى نهم ، وتساقطت دماء الضحية حول فمه فراح يلعقها فى تلذذ ، وهو يدعو لملكه بالرفعة والمجد .

والارانب كثيرة ، وكلها مذعورة ، هاربة ، تأكل كثيرا فى خوف ، وتتناسل كثيرا فى خوف ايضا ، ويبدو ان كثرة نسلها يرجع الى هذا الخوف . بينما التنين واحد ، فقط واحد ، له بضعة اطفال قليلو العدد ، هائلو الحجم ، يأكلون فى شراهة وبطء ، يدوسون دون ألم ، ولا يتلذذون الا بطعام يأتى لهم من اماكن بعيدة .

والارانب لها العديد من الاعداء ، منها التنين واولاده ، القطط ، والثعالب ، الكلاب والذئاب ، وكذلك النسور ، والكثير من اتباع التنين .

لو ان الارانب تجمعوا ، وصنعوا حائطا من اجسامهم

ووضعوا المدافع فوقها ، ثم نظروا الى التنين فى ثقة ودون خوف ، لربما أمكنهم تهديد التنين وحاشيته ، ويصبح طعم لحومهم مرا ، وبعدها يأكلون فى هدوء ويتناسلون فى هدوء ، وتقل الاعداد وتكبر العقول والاجساد .

المساء فى غزة ، بارد ثقيل ، امواج البحر تعصف فى رتابة ابدية ، واصوات مشاجرة تعلو فجاة ، ومنظر الخيام يجعلنى ارتعد ، فكرت لحظة ان امزقها ، احرقها تذكرت طفلا نائما ، تناسيت الفكرة ، اصطدم بصرى ببنايات بيضاء ، حاول الاهل تشييدها بدلا من خيامهم ، هى اقرب الى العشش منها الى المنازل ، ولكنها تذكرنا بالبيوت فى قرى الجبل .

قطعان الماعز تتسكع فى الحوارى ، تحاول مضغ النفايات . ورجال عجائز يجلسون فى صمت ، ونساء مسنات يتكومن فى جماعات احداهن تنبش قبرا فى التراب ، قبر نملة ماتت من الجوع ، وصوت فتاة تنادى على اخيها ، يقابله صوت الام ناهرا فى غضب .

وجاء الليل ، رحت اجوب الدروب ، انظر الى كل شيء ولا أعى شيئا ، لم افكر فى حادث زواج فاطمة ،تقبلته كأنه لايخصنى، كان بداخلى موجات من الالم واليأس ، تعلو احيانا واشعر اننى اود أن اتقيأ ، وتهبط احيانا ، فأشعر بدوار يجرنى الى اسفل ، الى عالم بعيد .

وظللت عدة أيام نهبا لافكار سوداء ساذجة ، والامواج تنحسر رويدا رويدا ، حتى افقت قليلا وبدأت ادرك ما حدث واتقبله جلس زوج اختى بجوارى ، كنت ممسكا بكوب من الشاى ، حدثنى عن المنزل الذى اكتراه اليوم من اجلى فى خان يونس ، ثلاث حجرات فسيحة ، ثم شرفة واسعة تطل على شجرة زيتون ، فى دار جميلة المنظر ، عليلة الهواء ، ظليلة انيسة فى نهاية شارع (القسام) .

زوج اختى شغل نفسه بمستقبلى ، وضعنى تحت وصايته، تكلم عن المستقبل والاسرة ، المال لعنة ولكنه ضرورى يابنى ، القرش فى الزمن الاغبر هذا حصان الحاجة وسيد البيت ، كن عاقلا ياولدى ، كنت فى الماضي .. وانهمرت الذكريات ..

اختلطت كلمات الرجل مع افكارى المهوشة حول المستقبل ، اخرج العجوز علبة الدخان ، راح يحشو لفافة فى هدوء واستمتاع، جرى الورق الرقيق على حافة شفته السفلى ، اغلق العلبـــة ووضع اللفافة فى جانب من فمه ، قال :

ــ تصور سيارة حديثة تمرق فى شوارع القطاع ..

اشعل اللفافة ، امتص الرحيق الساحر ، ابتلعــه ، غامت سحابة من الدمع على عينيه ، اكل الدخان ، وواصل الحديث :

ــ تقودها ..

غالب سعالا ، وقال :

ــ وحينما تعود الى دارك فى المساء تكون قـــد حصلت على مالا يقل عن نصف الجنيه ، وربما اكثر .

خرجت اختى عن مألوف طبعها ، قالت فى حماس :

ــ بل اكثر كثيرا ، زوج بدرية يحصل على اجر يقـــرب من الجنيه ، واحيانا يعطونه جنيها ونصف .

امتص الرجل اعتراض زوجته مع دخان اللفافة المشتعلة ، وقال :

ــ جائز ، ولكن فيما بعد ، فيما بعد ، الصبر .

ولكن اختى لم تصبر ، اندفعت فى حرارة ، وقالت :

ــ لقد تعلم اخى فى مصر ، وكان يقود سيارة كبـــيرة تحمل الجبل بمهارة .

ابتسمت انا فى سعادة ، وصف اختى اشاع فى نفسي نوعا من الخيلاء ، قال الرجل فى تبرم :

ــ لا يهم ، صغيرة كبـــيرة ، يقبل العمـــل اولا ثم يثبت شطارته ، حتى يطالب بأجر افضل .

الرجل صاحب ضياع وسيارات ، حينما ينوى الحاق عامل بمزرعته يفحصه جيدا ، يناقشه فى امور مهنته فى خبث ، يحطم

كبرياء مهارته ، ثم يساومه على الاجر ، كان زوج اختى يبدو لى هكذا ، قلت بسرعة :

— شكرا يا عمى ، ولكن لن اعمل سائقا .

ونشبت مشادة عنيفة ، صاح الرجل فى حنق ، ردت عليه أختى فى تبرم واتهمته باستغلالى والاتفاق على اجر قليل ، واقسم الرجل بكل المقدسات ، وانه يعرف اكثر مما نعرف نحن ، فقد كان لديه سيارة فى يافا ينقل عليها البضائع من القدس الى يافا وكان ، وكان .. الرجل يتلو ذكرياته مثل ترانيم المعابد فى العصر الوثنى .

وطال الحديث زمنا ، كنت مسرورا فى البداية ، اتحمس لحديث اختى ، أهز راسي موافقا على اقوالها ، نعم هذا صحيح الحق فى جانبها ، انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، كلمات الشيخ العجوز تخرج محطمة ، يسعل بكثرة ، يبدو ان الزوج تراجع عن مجده القديم ، ولكن سرعان ما ضقت بما يقولانه ، مللت ، اردت تغيير الموضوع قلت :

— والزوجة ، لم تذكرى شيئا عنها حتى الان ؟

وجم العجوز وسكت ، اضفت قائلا :

— ام ان بحثك لم ينجح ، ولم تعثرى على واحدة ترغب فى معاشرتى ؟

نظرت صباح نحوى فى استنكار ، قالت :

— لم انجح ؟! كيف وقد قضيت اليوم كله فى المعاينة والاختيار ؟

لا بد للشيخ العجوز من المشاركة فى الحديث ، قال :

— وبالطبع لم تختارى واحدة !

كان الزوج عند اختى قد تهاوى من سماء الرجل الفحل وانحط فى قاع الشيخوخة ، فقالت له فى شراسة :

— اسكت انت .

وسكت العجوز ، انسحب الى الوراء وجلس متكوما على

نفسه ، صدمتنى شراسة اختى واحزننى تصرف الرجل ، العالم مسحوق ناعم ، يتطاير مع ريح الالم ، قالت اختى :

— الآن امامك واحدة من ثلاث : قسمة ، سمراء جميلة تجيد جميع اعمال الخياطة والتطريز ، والثانية : هدى رقيقة بيضاء ، مازالت تذهب الى المدرسة ، وهذه اعجبتنى .

— والثالثة ؟

— مريم بنت المصرى ، جميلة رشيقة ، وماهرة ، ولكنها ..

— ولكنها .. ماذا ؟

— لا تريد أن تتزوج الان ..

لا تريد الآن ، ربما بعد يوم او عام او قرن من الزمان ، ربما لاتريد ابدا ، عادت اختى تقول :

— رغم ان امها ، وهى صديقتى ، قد وافقت ورحبت بك ، و .. هناك اخريات ، لا يعدم الذكر وجود انثى ، راحت اختى تعدد فى وصف الفتيات ، حليمة بنت بائع البطيخ ، سعيدة بنت منير ابو شهبة موظف البلدية ، عائشة مدرسة أطفال فى مدارس الوكالة حميدة وفتحية ، بثينة وخديجة ، أخريات كثيرات ، والرجل العجوز يجلس حزينا ، صامتا ينظر فى الافق ، بدا كأنه أحد شيوخ العصر العربى فى الزمن الغابر ، قسم الاسلاب والغنائم بالعدل ، عشر نساء لمعاذ ومثلها لجبل ، ونصف العدد ، لكل من جنود الشيخ لقد نسيت الشاعر الفارس ، حقا لقد نسيناه ، ليأخذ الشاعر الفارس بنت الملك .

احضروا الشواء والقوارير ، يدور العبيد حول السادة ، ترقص الاسيرات فى موكب النصر ، اهتفوا معى يحيا القائد البطل ، وانت يا شاعر : هل من جديد فى الخمر او النصر ؟..

تذكرنى اختى بسوق العبيد ، ودلال يعدد محاسن جارية ، ملفوفة القد ، رشيقة رقيقة ، خمرية اللون ، رفيقة النجوم فى الليل ، انيسة الجليس والضيف ، تجيد العزف والفناء والرقص ، تحفظ الاشعار ومأثور الكلمات والاقوال ، وهذه بألف ومائة دينار .

واخرى سمينة بيضاء ، جاءت من بلاد العجم تجيد الدلال ، تزين الدار ، تصدح كالبلابل فى فجر النهار ، تصنع المكتوف والملفوف من أطايب الطعام ، تسر النظر وتبهر البصر ، وهذه لا تساوى سوى ألفى دينار .

هربت من الدلال ، خرجت الى شوارع المدينة ، الناس فى ملابس ملونة ، والمقاهى مملوءة بالجالسين ، المتاجر تغص وتعمر بالبضائع والمشترين ، سيارات الاجرة تتابع فى سرعة ، راديو يصرخ بشكوى من حبيب جاحد ، هجر الفؤاد الذى اكتوى بنار هواه ، القوم فى جدال عنيف حول المقطع الاخير من الاغنية ، وطفلة صغيرة جلست على حافة الرصيف تبكى ، وشجار هب فجأة بين اثنين من العمال ، تجمهر الناس حولهما بسرعة ، يندفعون ليكونوا دائرة ، تتشابك الدائرة ، يعلو صوت الكل على صوت الكل ، توقفت السيارات واندفع الناس منها الى قلب الدائرة ، ذابوا فيها ، اتسعت الدائرة وملأت الشوارع ، واصلت السير فى طريقى .

قابلت وجها فى الزحام ، كأنه وجه فاطمة ، تسرب الالم الى قلبى ، شعرت بدوار فى راسي ، والرغبة فى الصياح ، ولكن ماذا يجدى الصياح فى شوارع المدينة اللاهية .

لا شيء ، يجب ان تسير ، وان تظل سائرا هكذا الى الابد ، مثل موج البحر ، يعلو ويهبط ، هكذا دائما ، والشمس تشرق كل يوم ، كل يوم سواء كنت سعيدا او حزينا ، فهى تشرق دوما ولا يهمها شعورك أنت ، ولا شعور الناس جميعا .

والمقهى مزدحم ، ودخان النرجيلة يملأ الجو ، وصراخ حول حلقات لاعبى الورق يرتفع فى هوس ، بينما وقف يونس يرحب بى فى ود ، وقدمنى الى جماعته وعرفنى بهم ، ثم ساد الجو صمت ثقيل بعد ذلك .

خرجت كلمة ترحيب قصيرة من احدهم لتجرح الصمت لحظة وبعدها يعود غطاء الصمت يغطى المكان .

شعرت بنوع من الحرج لهذا الصمت الذى وقع حين التقيت بهم ، جلسوا يحملقون فى صمت ، سألت سؤالا عابرا عن

احوال التعليم ، اجابنى احدهم فى كلمة واحدة ثم عاد الى صمته ابتسمت فى داخلى ، جبناء يخشون الضيف الغريب ، يخشون على ارزاقهم ، هذا السمين الابيض ناظر المدرسة وحوله مدرسو مدرسته ، لابد انه يقول لهم كل يوم ، دعونا نأكل (عيشا) ونطعم الصغار فى البيت ، لسانك حصانك ، ضع قيدا حوله ، ووافقه الاخرون بالطبع ، وهذا هو يونس شرطى الحدود ، يجلس حوله مجموعة من رجال الشرطة يعملون فى اماكن مختلفة ، وهم بالطبع رجال السلطة ، والحديث عندهم بحساب ، ولا يتعدى امور الاسرة والاولاد ، واحيانا فى ليلة الجمعة ، بعض ليالى الجمعة ، يدور حول النساء ، مرت فترة ما ، قبل أن يسألنى احدهم فى فتور :

ــ كنت تعمل فى القاعدة ؟

قلت فى حماس للحديث :

ــ نعم .

قال آخر فى سخرية :

ــ معهم ؟!

ابتسمت فى هدوء ، وقلت :

ــ لا ، ضدهم .

قال ثالث ، فى سخرية اشد :

ــ كيف ؟!

شعرت بسعادة ، يمكن الالسن أن تستعمل ، انفلت عيار الحرص ، وقع الشاطر فى شباك فضوله ، وهذا هو الميدان ، اخذت اقص عليهم اعمال جماعات الفدائيين ، رويت لهم الكثير ، وكانوا يعرفون بعضه ، ودارت المناقشة ، كيف تم هذا العمل ، اجيب انا فى حماس ، عمليات نسف المخازن كانت ضرورية ، السلاح فى يد عدوك ، خذه او دمره ، المنشورات ؟ نعم هامة جدا ، كنا نضعها فى ادراج مكاتب القادة .. وفى حجرات النوم بجوار

مخادع زوجاتهم ، والكل يستمع ويناقش ، انصهر الـكل وذاب التحفظ ، ولم تعد كلمات الناظر مجدية .

— هل خرج الانجليز بسبب اعمالكم هذه ؟

— بسببها وبسبب اشياء اخرى ، سلسلة من العوامل .

— يبدو ان هذه الاعمال تعجبك ، وانك تنوى القيام بهـــا هنا ..؟

توقفت ، فكرت ، التسرع لا يفيد ، الكلمات الجـــوفاء لا تصلح ، قلت :

اليست لك رغبة فى العودة ؟

قال يونس ، ويبدو انه فهم شيئا لم اتبينه :
— انه من هنا ، ولم تصب داره بسوء .
وارتبك الرجل ، ارتعد قليلا ، قال :

— أنا لم اقصد ، ولكنى اود ..
لم يدعه يونس يكمل قوله وامره بالصمت .

ران الصمت على المكان مرة اخرى ، انبعث من داخلى تحرك مارد ، تمدد فى كيانى ، واندفع الى فمى ، خلعت ثوب الرهبـــة والتردد : رحت بحماس اشرح الفكرة التى طالما راودتنى ، كانت حلما استحلبه كل ليلة فى متعة ولذة ، والان من الممكن تنفيذه ، وتحويله الى حقيقة .

لم لا ؟! ماكنا نفعله فى السويس والاسماعيلية ، فى كبريت وفايد ، فى الشط والبحيرة ، يمكن تحقيقه هنا فى بئر سبع ويافا ، فى الجليل ومستعمرات الحدود ، ما كنا نقوله فى اذاعتنا السرية فى معسكرات الانجليز ، وما كنا نطبعه من منشورات ونضعــه فى مكاتب الجنرالات وكباتن الجيش الانجليزى ، يمكن طبعه هنـــا ووضعه فى حقائب المهاجرين الى اسرائيل .

الارادة البشرية الجادة تحرر الشعوب تنتصر على اقـــوى الجيوش ، يمكن للجيش ان يكون قويا ومسلحا ولكنــه لا يملك

ارادة البشر ، ارض محتلة وعصـــابة مغتصبة وشعب يرغب فى العودة لم لا نفعل مثل ما فعلته وتفعله كل الشعوب ؟

قلت كل ما عندى وانصرفت وحدى افكر ، كان خيـــــال فاطمة يطاردنى ، حاولت ان اتخلص منه ، ولكنه كان يعود اشد الحاحا ، ويلتف حبل الحزن حول قلبى ، وتظلم الدنيا حول عينى واشعر بالضباب من حولى ، وترتفع النار الى راسي ، اننى اتقلب فى أتون من نار لا ترحم . والمدفع فى يدى ، وطريق مسدود بنار مشتعلة ، اشد الزناد الى الخلف ، اضرب بقوة ، بكل قوة ، ذلك طريق الخلاص والعودة ، اضرب فى الصـــــدر تماما ، ولتطلق رصاصتك فى الكبد ، اقتله كما قتل ولدك يوم الدم الاعظم ، ارفع يدك بسكين او قطعة حجر او بقبضة رمل ، ارفع يدك فى وجهه ولا تستسلم ، اصرخ حتى يسمع صراخك رجل حر ، ولا تسكت ابدا .

تذكرت الان حديث الشيخ الضرير ، كان يقـــول كلامه فى زمن اليأس والضباب ، ولهذا كان الناس تقول عنه ، انه رجـل مخبول ، لو امكن ان يعود الشيخ الى سابق عهـــده ليردد بين القوم الكلمات ، ليقول ونسمع ، لو عاد لقال النــــاس كما كانوا يقولون فى الزمن المسحوق مجنون هذا الشيخ المســـكين ، ولكن ربما قال احدهم غير ذلك ، فالزمن تغير وتغيرت الناس ، ربما !.

الشيخ يقول :

— لا تجعل حياتك مرفهة ، ابتعد بقدر الامكان عن الحيـــاة الحقيقية ، انبذها حتى لا تتمسك بها ، او تتمســـك بك ، حتى تلفظها فى يسر ، لا تنم على فراش مريح ، لا تأكل طعاما طيبا .. نم على حجر خشن حتى لا تغفو ..

كل قليل الطعام حتى لا تشبع ..

اجبت الشيخ بنعم ، ولكنه صاح :

— لا ، لا تكفى نعم ، لابد كى تقول نعم ان تصنع نعم .

ضحك القوم ورحلوا الى احضان زوجاتهم ينظـــرون الى اسفل بطونهن ويقولون : نعم .

ولاح لى طفيف برهان ، ومن خلفه لاحت مشـــاكل تحقيق فكرتى ، الذخيرة والسلاح ، المدربون والمتطوعون ، وامور اخرى اكثر تعقيدا .

واسرعت بالكتابةاليه ، ها هى أفكارنا تنمو وتنضج ، وهاهى ايامنا تعود ، رصاص الليل ونجوم السماء ، حلاوة نسمة الصباح لمقاتل يعود من معركة .

احضر يابرهان ، اسرع بالله عليك .

الاسطى جلال يجلس فى المقهى يدخن فى شراهـة ، قذفت اليه بمكتوبى الى برهان ، دسه فى صدره ، همست اليه باهمية الرسالة ، ضحك فى نشوة .

فى الصباح كان الاسطى جلال يحمل رسالتى الى برهان ، وامنيتى فى الرد سريعا .

احضر فورا .

لم ترد كلمات الرسالة عن هذه الجملة ، التوقيع (يونس) .

فكرت فى كل الاحتمالات التى يمكن ان تحدث .

فكرت ، ايضا ، فى كل المشكلات والصور التى يمكن ان تصادف (المجموعة) ، ولكنى لم اصل الى نتيجة .

كنت اقود سيارة محملة بالبضائع فى طريقى الى رفح ، لهجة الرسالة ، تحمل اهمية خاصة ، نفير سيارة قادمة من الخلف ، انحرفت الى اقصي اليمين ، حاذانى قائد السيارة الاخرى سبنى ومضي ، يبدو ان الحوادث فى الطريق قادمة ، توجهت الى يونس مباشرة .

ــ ما الامر يا رجل ؟!

كان سعيدا ، تحرك دون هدف ، قال وهو يشـــير الى بضعة صناديق من الخشب :

ــ انظر .

تطلعت حيث اشار ، صناديق خشبية مغلقة عليها علامات بالحبر الاحمر ، قابل الكسر ، افتح من هنا ، شركة الزجاج ..

ثم مجموعة ارقام ، فتحت الصنـدوق الاول ، صرخت من الفرح :

— اسلحة ؟!

ضحك يونس ، وقال فى سعادة :

— زجاجات الرصاص .

فتحت الصندوق الثانى ، وجدت ذخيرة بكمية هائلة .

قال يونس ، ردا على سؤالى الاخرس :

— وصلت اليوم مع الاسطى جلال ، ومعها رسالة هامة .

— من برهان ؟

— بل برهان نفسه

— برهان هنا فى خان يونس ؟

— نعم .

— أين ؟

درت حول نفسي متلهفا لرؤية برهان ، ولكن يونس أوقفنى قائلا :

— ذهب مع الاسطى جلال فى بعض الامـور ، وسيحضران هنا فى العاشرة .

نظرت فى ساعتى ، ما يزال هناك مسافة طويلة من الزمن ، تحسست الصناديق فى فرح ، الكنز الضائع عاد ، وجدته ، فرحة الانسان فى ان يجد ما يفعله بأحلامه ، بنفسـه ، كان الرجل الضرير ، شيخنا المخبول فى نظر الناس ، يقول ان احلامه لاتخيب، لقد كشف عنه الغيب ، وقـد راى فى منامه ، خاتم سليمـان ووضعه على كفه ، ومسح عليه ، فخرج له حارس الخاتم ، بعـد ان ذهب عنه الخوف ، سأله ان يعطيه بندقية ، ولكن المارد حزن حزنا شديدا ، حتى انه بكى ، لانه لم يستطـع الحصـول على بندقية واحدة ، وظل الشيخ الضرير بعدها ، يحلم ببندقية .

يومها سألت الشيخ :

— كيف يفشل المارد فى الحصول على بندقية واحـدة ..

وهو ، كما تقول يستطيـع ان يحيـــل التراب الى ذهب والذهب الى تراب ؟

ابتسم الشيخ ، وقال :

— حينما تكبر ستعرف السبب بمفردك .

يومها ، أيضا ، خرجت من منزل الشيخ خائفا وانا اردد :

— مخبول ورب الارض ، مخبول هذا الشيخ .

لكنى ، فى قرارة نفسي ، كنت اصدقه واخاف منه .

أسرعت بالسيارة الى رفح ، هاهو السلاح يا شيخ قريتنا ، البنادق يا مخبول ، جاء المارد يحمل صناديق الذخيرة ، يبـــدو انني عرفت الآن ، لماذا فشل يومها المـــارد فى الحصـــول على بندقية .

حاولت انهاء مهمتي بأسرع ما يمكن ، صرخ صاحب السيارة فى وجهى ، قذفته بنظرات باردة ، قلت فيمـــا بينى وبين نفسي كلب ملعون ، شبت مشاجرة بين عاملين على تفـــريغ الشحنة ، تدخل بينهما بعض القوم ، علت الاصـــوات بسباب جارح ، قال احدهما كلمة عن الحكمة فى اننا تائهون ، وتحـــدث الاخـر عن الايمان ، وقال الوسطاء كلاما عن الرحمة والصداقة والانسان ، ضحكت وقذفت مفتاح السيارة فى وجه السمين ، صاحبهـــا ، هرعت الى سيارة أجرة ، عائدا الى مكان اللقاء ببرهان .

كان جالسا فى انتظارى ، خيل الى انه كبر قليلا ، علامات الحزن بادية على وجهه ، لم استطع ان اكتم عواطفى ، وطفرت الدموع من عينى وأنا أرى برهان أمامى ثانية ، تعانقنا فى حرارة ، اهتزت اجسادنا فى نشوة ، قلنا كلمات كثيرة فى وقت واحد ، كنت اود ان اتشربه فى دفعة واحـــدة ، قطع برهان استرسالى فى الترحيب به ، وقال :

— كم لديكم من الرجال ؟

جلست ، فى جدية ، اخذت أجيب ، وكأن عمل الايام اتصل

وعادت القناة مرة اخرى ، صدقنى يا رجـــل ، السعادة فى ان يعيش الانسان حياته بأن يفقدها .

– والتدريب ؟

– جميعهم مروا بمراحل التدريب .

– مستعدون ؟

– طبعا .

– لقد أحضرت لك ما استطعت ، ولكن هذه الصنـــاديق لا تكفى ويجب الحصول على المزيد .

– وضمان وصوله دوما .

ضحك برهان وقال :

– التفاح الجيد يأتى من الناحية الاخرى ، الاشجـار خلف الحدود .

كلمة التفاح من أقوالى ، كنت اطلقها على الاسلحـــة التى نسلبها من العدو ، كان يطيب لى أن أطلق اسمـــاء مثـل هذه على أعمالنا :

البندورة أو الطماطم على القنابل اليدوية ، عناقيد العنب بدلا من الالغام ، هذا أفضل بالطبع ، البذور بدلا من الجنود ، وهكذا ، وكانت هذه المسميات تساعدنا بالطبع فى الرسائل .

– نعم يابرهان ، أشجار التفاح تحمل الكثير من الثمر .

– وعلينا قطفه قبل ان يتحول الى اشجار جديدة .

جاء الطعام ، يونس لا ينسي مثل هذه الامور ، يأخـــذها مأخذ الامور الجادة ، حاولت ان اشرح ما لدى ، استمع برهان فى هدوء ، علب السردين المستورد ، مائعة ، تقززت بعض الشيء ، نظرت الى برهان ، كان يضع فى فمه لقمة خبز ، ابتلعهـــا مرة واحدة ، قال :

— مثل ماء النهر ، كل نقطة تختلف عن الاخـــريات ، رغم التشابه الظاهر ، ولكن الاعماق ..

— افهم هذا جيدا ، العدو هناك كان متمركزا فى قاعـدة ، افهم ذلك ، بالاضافة الى الامور الاخرى .

— ولهذا يجب أن نغير ..

— بالطبع هذا فى الحسبان .

اخرج علبة سجائره ، اعطانى واحدة ، بدأ يدخن ، سألنى :

— هل لديكم خرائط ؟

اجاب يونس ، فى حماس :

— لسنا فى حاجة الى خرائط ، اننا نحفظ ارضنـا شبرا شبرا ، اشرت الى برهان ان يصمت ، قال برهان فى غضب :

— لسنا فى مغامرة ، انها بداية ثورة ، لقد اقاموا العـديد من المعسكرات الاستحكامات الدفاعية ، اشيـاء اخرى عديدة ، علينا دراستها جيدا قبل كل شيء . بديهيات ، كنت قد درستهـا بالفعل ، والامر فى حاجة الى انواع كثيرة من الخرائط والبيانات ، حسنا دعنا ندرس هذا كله معا .

عكفنا عدة ايام ، وعلى مدار ساعات طويلة من الليل والنهار على دراسة كافة الخرائط والبيانات والمعـلومات التى استطعنا الحصول عليها ، وعلى أساسها تم وضع خطة اول عملية .

— الليلة نبدأ اول عملية لنا .

هلل يونس ، وصاح سلمان :

— حان الوقت اذا .

اكمل برهان حديثه ، وقال :

— احتاج الى عشرة من الرجال ، بالاضافة اليكم .

ساعة الصفر ، يحددها بلال .

وجاء الليل ، وخرج الرجال مزودين بالســلاح الجـديد

والخطة ، وربض الرجال فوق التلال فى انتظار اشارة البدء .

كان القمر ما يزال بدرا ، يسطع فى السماء ، مرسلا اشعته الواهنة لتغطى قمم التـــــلال والروابى ، والريح يهب باردا . والمدفع فى يدى ثقيلا باردا ينتظر العمل .

تململ الرجال فى اماكنهم ، همست الى برهان :

— حان الوقت ؟

قال فى هدوء المحارب الذى يعرف طريقه :

— يجب ان نصبر حتى تكون الضربة اقوى .

— ولكن الرجال . .

قاطعنى بسرعة ، وبنفس الهدوء :

— لا يهم ، القائد هو الذى يحدد موعـــد بدء الهجـــوم لاحماس المقاتل .

اختفى البدر ، تحولت الارض الى ابار مظلمـــة ، ومضت لحظات قبل أن يعطى برهان الاشارة .

كان على ان اقود المجموعة من خلال درب بين حقول حديثة الزراعة ، خطوت على حافة قناة جافة ، وسرت فى حذر .

كانت هناك نقطة حراسة ، اشرت الى ثلاثة من المجمـــوعة تقدموا لمحاصرة النقطة وتحرك الباقون نحو الهدف ، وكان مخازن الذخيرة فى المستعمرة ، ليست بالضبط مخازن اسلحة وذخيرة فقط ، كان المخزن يحوى ، وفقا للبيانات التى لدينـــا ، ادوات كهربائية وزراعية .

مرت لحظات بطيئة قاسية ، العيون ترصـــد كل حركة : هذه اول مرة تخرج المجموعة فى عمل منظم واقعى بعد تدريبات قاسية ، وفى ظروف صعبة ، الموت يفقد معناه ، يتوارى الخوف خلف جدار الفعل المباشر ، زحف يونس فى اتجاه الهدف ، وبعده بعدة أمتار جلال ، حاصرت المقدمة نقطة حراسة العدو ، الترقب يكفى ، عدم الاشتباك الا فى الظروف القصـــوى ، هـكذا كانت الاوامر .

اشارة استغاثة صادرة من يونس ، تقدمت انا وبرهان حتى لحقنا به ، قال بصوت ميت :

ــ جهاز التوقيت ، لا يعمل

شعرت بالرغبة فى اطلاق الرصاص عليه ، شحنـــة بارود انفجرت فى راسي ، هالتنى حساسيـــة الموقف ، اندفعت لارى الجهاز ، دققت النظر ، كل شيء فى موضعـــه تماما ، الجهـــاز سليم ، لحظة العدم القادمة تخيف الانسان ، تربكه ، تحيله الى ذرات متشابكة غير واضحة المعالم ، التـــالف اعصـــاب يونس وليس الجهاز .

تمكنا نحن الثلاثة من وضع جهاز التفجير ، بعد ضبطه ، فى المكان المناسب ، وعدنا للانضمام لبقية المجموعة .

الامور البسيطة والتافهة تسبب النتائج الخطـــيرة ، ذرة رمل فى محرك سيارة يشل حركة التدفق البشرى وقتا ما ، بدانا فى الانسحاب ، ولكن الوقت الذى اضاعه يونس تسبب فى تأخير وصولنا الى الحدود فى الوقت المناسب وفقا للخطة ، فقـــد كانت داوريات العدو فى نقطة حتمية التلاقى .

انفجر مخزن المستعمرة فى لحظة باهرة من عمر الزمن ، تفتت لحظات الزمن وصارت دخانا أهوج لمحناه يعـــلو فوق الارض ، اقتربت لحظة التلاقى مع الداورية ، وكان لابد من الاشتباك .

كان من المحتم ، نتيجة لذلك ، تغيير الخطة ، يناوش ثلاثة أفراد العدو حتى يتمكن الباقون من التسلل عبر الحدود .

وتطاير الرصاص ، واندلعت نيران المدافع ، سمعت صيحة الم ، زدت من ضغط اصبعى على زناد مدفعى ، ورايت الرجال يزحفون ، والمدفع يوشك أن يندفع من يدى ، تقدمت قليـــلا الى الامام ، اصطدمت بجثة رجل مازال الدم يتدفق ساخنا ، عبرت الجثة وواصلت الزحف ، اشتعلت النـــيران فى عربة من عربات العدو ، حاول جندى أن يفر منها ، حولت اليـــه بشـــاق مدفعى فترنح قليلا وسقط ، وواصلت الزحف ، عربة ثانيـــة تحترق وقفز منها ثلاثة جنود حاولوا الفـــرار تحت ستـــار مدافعهم ،

احتضنهم انفجار قنبلة ، الانفجار كان هائلا ومخيفا وقريبا منى ، تصاعد الدخان بكثافة ، لا يوجد جبنـاء فى البشر وشجعـان ، لا يوجد الا البارود والدخان ، الكيان البشرى خـرافة ، السيف والحربة .

شعرت ان يدى لا تطاوعنى على الحركة ، تحسست ذراعى فوجدتها لزجة ، ضحكت ، وعدت أزحف من جديد حتى وصلت الى حافة التل ، وهناك شعرت بالهدوء يسرى فى جسدى ، واننى ادخل منطقة الظلام والعدم ، الكل هباء ضائع فى خرافة الوجود ، وكأن الشيخ قد عاد ، وكأنه ينادى :

ــ قم أذن فى الناس يا بلال .

حاولت القيام ، ولكنى متعب ، الرغبة فى النوم تشـدنى ، عاد الشيخ ينادى :

ــ آذان الفجر يا بلال ، قم واذن .

ــ لا استطيع يا عمى ، صدقنى لا استطيع ، لقـد حاولت ولم اتمكن .

ــ قم واذن يا رجل ..

ــ بالله عليك هلا أديت عنى هذا الواجب ؟

ــ لا ، من عليه الواجب يجب أن يؤديه بنفسه والا فليمت ، وهذا افضل .

ــ لا ، لا أريد الموت الآن ، امهلنى حتى أعـود الى قريتى واموت هناك .

ــ اذا : قم الآن .

تحاملت بكل قواى ، وقفت ، صحت بأعلى صوتى :

ــ الله أكبر ، الله أكبر ..

امسك بى برهان وهو يصيح فى غضب :

ــ كفى ، منذ ساعة وانت تقول هكذا .

جلست فى لحظة الوعى ، تدفقت الصور ، لقــد عــدنا ، تبينت مجموعة الصور فى نظرة كلية ، كان فى راسي سؤال :

ــ الشهداء ، والجرحى ، كم ؟

نظر الى برهان فى لحظة تخلصه من الغضب ، وقال :

ــ العملية ناجحة بنسبة مقبولة .

قلت فى ارتباك :

ــ اقصد ، اقصد ..

توارت لحظة الغضب خلف السعادة بالنجاح ، قال برهان :

ــ المهم بالطبع هو زيادة رقعة الخوف فى جدار الثقة عنــد العدو ..

وتليت عدة ارقام ، تلاها برهان فى جمود ، مخزن كامل تم تدميره ، خمسة عشر جنــــديا قتلى وجرجى ، الحصر الدقيق صعب فى هذه الحالة ، عربتان ، ومدرعة آلية ، احتراق بالكامل ، لم نعد دون غنائم ، مثل الاجداد فى الزمن البطولى ، وخسائرنا ، حقا هذا بالطبع الحصر الصادق ، شهيد وجريح .

واستدار ، برهان ، فى عصبية وقال :

ــ انت ويونس ، نعم انت ويونس ، جرحى ، والسبب انتما الاثنان .

هللت فى حماس ، تراجعت عن حمــاسي ، وسحبت تهللى ، لا يهم هذا هو طريق العودة ، القتلى شهداء والجرحى أنبياء ، لقد فعلوا شيئا ، الكلمات ماتت ، طــوفان الدم الســـاخن ، نزف الجرح ، حشرجة الموت المرتقب ، بريق عين المقتـــول توا ، دوى دوى رصاصات خرساء ، هذه كلمات حية ، لغة الزمن الظــالم ، حيث المجد كلمة تنبع من صدق القلب المقترب من النهاية .

قضينا الايام التالية فى الاعداد للعملية التالية ، الاستمرار ضرورة ، مشاكل الاستمرار تنضج ، تفرض نفسها ، كان امامنا عدة أمور ، الحصول على المعلومات ، يدخل افراد من قوتنا داخل

حياة عدونا ليقوموا بارسال الخيط الضرورى من المعلومات والبيانات اللازمة لوضع مخططاتنا ، الحصول على السلاح واستمراره ، ثم مشاكل اخرى كثيرة ، التمويل والتدريب المتطور ثم .. دائما الارتباط بالجماهير .

كان جرح ذراعى يؤلمنى ، لم استطع قيادة السيارة التى اعمل عليها ، ولم اشترك فى عمليات التدريب ، وكان برهان قد سافر وجاء موعد العملية الثانية .

العملية الثانية ، وكانت زرع الغام فى طريق قافلة حربية يسيرها العدو الى منطقة عسكرية فى جنوب النقب ، اهمية العملية وبعدها عن مركز تجمعنا ، وعدم قدرتى على الاشتراك معهم . كل هذه الاسباب جعلت منى كتلة أعصاب مشدودة ، حاولت ان اجرب يدى لكى اذهب معهم ولكنها كانت ضعيفة لا تحمل السلاح بثقله ، آثرت التخلف حتى لا احملهم هموما فوق خطورة موقفهم ، ذهب موسى قائدا لهذه العملية .

موسى ، شاب من بئر سبع ، اشترك معنا فى العملية الاولى ، ورغم صغر سنه الا انه نموذج للمناضل المخلص ، كما انه يعرف طرق هذه المنطقة جيدا .

عدت الى دارى ، قلقا مهموما ، بعد ان ودعت رفقاء السلاح ، الشعور بعدم القدرة على المشاركة يسلب الفرد رائحة العمل الطيب ، وما ان وصلت الى الدار حتى جاء رسول من عند أختى تطلب منى الحضور بأسرع ما استطيع .

واصلت السير الى المخيم ، تسللت عبر دروبه حتى أتيت اختى ، وهالنى الحزن الرابض على المكان ، وبعض النسوة يدخلن ويخرجن فى ارتباك ، دنوت منها ، وسألتها :

— ما الامر ؟

لم يتوقف سيل البكاء عند اختى ، الاحداث تولده وتنميه ، قالت ، من بين نشيجها البكائى المولود :

— زوجى .

ـ ماذا به ؟

ـ مات الليلة ..

مات ، شعرت بغضب هائل لا ادرى لماذا : مات شهيــــدا احد ابطال مجموعتنا ولم نبك ، ولم نسمح لانفسنا ان نقول انه مات ، والليلة ، بالتاكيد ، ولان هذه طبيعة المعارك ، سوف يقع منهم واحد ، أو ربما اثنان او ثلاثة او اكثر ، ولن يزيدنا ذلك الا اصرارا وتحديا ، والليلة مات رجل عجوز ، سبق موته من قبــل في عام النكبة .

ـ عند الله .

نظرت الى وهى ما تزال تحاول ان تكتم دموعها ، وقالت :

ـ كان يريد رؤيتك قبل وفاته .

ـ كيف ؟!

ـ خرج بعد العشاء الى اصحابه ولكنه لم يمــكث برهة ، حتى عاد وهو بادى الحزن ، اطرافه ترتعش ويتمتم (الويل لهم الويل لهم) ، ثم يدور في عصبية وينادى عليك ، حاولت تهدئتــه او معرفة ما به ..

ولكنه لم يفصح عن شيء ..

ـ وماذا بعد ؟

ـ ظل يتمتم احيانا مناديا باسمك ، واحيانا بأسماء اولاده ، محموما حتى مات .

ـ ولم يقل شيئا آخر ؟

ـ لا ، ظل اكثر من ساعة ينادى عليــــك حتى .. جلست في الركن الاخر بعيدا مهموما ، رأسي محمومة ، عقــلى مشتت ، اختى تلعب لعبتها الوحيدة وتبكى ، شهقات بكائها تتردد في ايقاع ابدى حزين ، الرحمة في القلب البشرى خرافة ، تقليد اخترعه البشر ساخرا من البشر ، صدقه البشر جميعا ، لعبة الانسان أن يميز نفسه عن بقية الكائنات ، لعبة زائفة ، يا للانسان المتوحش !

لم يكن حزنى على وفاة زوج اختى ، بقدر ماهو حزن على كل مهاجر يموت بعيدا عن ارضه ، وكلماته الاخيرة ليست سوى لعنة لا يملك سواها ينزلها على مغتصبى ارضه .

السماء لا تمطر ذهبا ، بل تمطر ، احيانا ، قطــرات ماء ، وحبات ثلج ، فى حين يبتسم الملائكة فى سذاجة ، ويمــوت فلاح عائد من حقله برصاص جندى اسرائيلى يتوارى خلف حــائط من مدافع امريكية ، وتمطر السماء ، لا ذهبا بل حبات مطر من ماء وثلج ، ويأمر الجندى سيارة نقل العمال العرب بالتــوقف ، ثم يامر العمال بالهبوط منها ، بحجة البحث عن البطاقات ، كان من الممكن ان ياتى بحجة اخرى ، ولكن هكذا الرواية ، قالوا الحكاية ، حكاية الذئب والحمل المعادة ، او حكاية الانسان يحمل ســـلاحا والانسان الاعزل ..

هكذا قالوا الرواة ، امرهم الجندى بالقوة التى تطـــل من مدفعه ، بالوقوف صفا ، وقفوا ، امرهم برفع الايدى ، رفعــوا وتمطر السماء وتتساقط اجساد العمال برصاص المدفع الرشاش ، ومات الكثيرون ، والسماء تمطر ، لاذهبا بل حبات مطر ماء وثلج .

نحيب نساء ، يأتى كالموج الهادر خلف سفينة ، تتـــلاطم موجاته فى رتابة ، كانه صفير ريح فى خيمة لاجىء فى شتاء بارد .

– انتهى كل شيء .

نظرت اليها ، عجوز ، كانت ملامحهـــا جادة صـــارمة ، ملابسها سوداء ، قلت فى هدوء :

– حسنا .

قالت اخرى :

– عليك ان تاخذ اختك معك .

اضافت اخرى :

– مات الرجل ، ولن يعطوها المعونة ثانية .

ارتفع صوت امراة خنفاء :

ـ كانت البطاقة باسمه .

تشابكت مجموعة من الاصوات :

ـ واليوم مات ، وربما ..

ـ بالطبع .. هى وابنها ..

ـ تموت من الجوع ، هى وابنها ..

ـ الشباب لا يفهم ذلك ، لا يفهم الا بعد فوات الاوان ..

ـ الرحمة ..

الرحمة ، المزيد من الرحمة ، شعب الرحمة ..

قلت فى تبرم :

ـ حسنا ، سيكونانمعى لاداعى للقلق .

انصرفت السيدات فى صمت ، رفعت الغلام الى وجهى .. وسألته :

ـ ما اسمك يا سبع .

اجابنى الغلام فى صوت رفيع حاد :

ـ صلاح الدين ..

اختفى القمر وراء الجبل ، زحف الرجـال الى الامام وتفـرقوا الى ثلاث شعب ، كل شعبة خمسة عشر رجلا ، مزودين بالسلاح والمتفجرات، كانت المهمة شاقة ، ولكنها ليست الاولى من نوعها ، لقد تدربوا عليها عشرات المرات ، بلغ مجموع عملياتنا فوق المائة ، وخسائر العدو فى تزايد ، والشهداء من جانبنا ايضا فى تزايد ، ثلاثون والجرحى ثمانية ، الدماء تغـلى فى العروق والسلاح فى الايدى والدرب طويل .

أعطى يونس الاشارة بالخطر ، توقف الزاحفون والاسلحـة مشرعة الى الامام ، ومرت لحظات ثقيلة باردة ، داورية الحراسة تدور حول الجبل ، كشافات عرباتها الامامية تبرق فى فضـول ، تكاد تفضح وجودنا ، وكانت الاوامر عدم الاشتباك مهما كان الامر ، الاشتباك معناه فشل الخطة ، فروسية الزمن الغابر لا تصلح الا فى خيالات الزمن الوردى فى لحظة حلم اليقظـة لفـارس يركب حصانا خشبيا ، وكان الصمت .

خشيت أن يبادروا هم بالهجوم ، فكرت فى اشياء كثـيرة ، لو استمروا يدورون حول الجبل لعرفوا الطريق الينـا ، وكانت الضربة الاولى لهم ، ودارت عربات الداورية مرتين حول الجبل ، ثم تحركت مبتعدة . أمرت بمواصلة الزحف الى الامام بسرعة ، مضت لحظات قلقة محمومة ، مرة أخرى أعطى يونس اشـارة

الخطر ، وتوقفنا ثانية ، جاءت مجموعات جـــديدة من قـوافل الحراسة فى مدرعات ثقيلة ، راحت القوافل الجديدة تلعب لعبة الشرطة ، ودارت حول المكان .

نتعلم من التجربة ، تيقنت الان ان هناك اخبارية لدى العدو بعملية الليلة ، الاصرار على البحث بكل هذا العـدد من المدرعات بأنواعها المختلفة يؤكد اليقين لدى .

لم يكن أمامنا سوى امرين ، الاشتباك ونبدأ الضربة الاولى ، او التسلل من الحصار والاختبـــاء فى اماكن اكثر امنا ، لحـين تنفيذ عملية نسف محطة الكهرباء ، وكان على الاختيار .

المدرعات والتحصينات تعطى القوة للمقـــاتل النظامى ، وخاصة عدونا ، ولكن الشعور بالخوف يتسرب الى نفسه ، لانه يحارب فوق ارض ، هو يقينا ، يشعر بأنه اغتصبها ، والاسوار ربما تحميه من الخارج ولكنها لا تحميه من داخل نفسه .

الفروسية ذهبت لتنام ، تحـــرك الافـــراد ، بعد الامر بالانتشار تسللوا فى سهولة ، عبر اخاديد الارض المطحـونة تحت صلب العجلات ، زحف الرجال بعيدا عن قوات العدو .

كانت خطتى تعتمد على تضليل العدو ، اتركهم يبحثـــون فى جدية فى المنطقة التى تم التبليغ عنها ، وبالطبع لن يجدوا شيئا ومن ثم يكتشفون كذب المصدر الذى نقل اليهم أخبار العمليـة .
واصل الرجال الزحف بسرعة ، حاذينـــا الان اشرطة السـكك الحديدية ، اندفع المكلفون بتركيب الالغام للعمل ، بينمـا قامت مجموعة القناصة باصطياد رجال الحراسة ، القتال لعبة الرجال ، وتم كل شيء وبدأنا العودة .

نحن نعرف الارض ، ولنا فيها شقوق الاسرار ، دروب من الطرق البعيدة لا يعرفها غزاة الارض ، تقدمنا خلالهـا بسرعة ، ولكن كان علينا ان نمر بأرض مكشوفة ، مساحة عديمة السرية ، مفضوحة مثل الوجه النجس ، بدأنا فى اجتيازها ، انطلقت مدافع من بعد ، عبرت الصواريخ فوق رؤوسنا ، لعبة الشلل ، الاصابة

غير مباشرة ، يبدو انهم يرغبون فى استلامنا احيـــاء ، رهـــائن جيدة ! ..

المعارك تصنع الابطال ، واحيانا يصنع الابطال المعـارك ولكن هذا يحدث احيانا ، والغالب ان الابطال يموتمون ، وتظل الشعلة هى البطل ، امرت الرجال المتقدمة بالصمت والانبطـــاح ، اشرت الى المجموعات التى مازالت تزحف بجوار التل الخلفى بالدوران خلف التل فى محاولة يائسة لتطويق العدو .

استمر اطلاق النار من جانب العدو للارهاب مدة طـــويلة الصمت المحـكم لمقاتل يوشك ان يقع فى بئر العدم ، تقدمت منا مجموعات من المدرعات الخفيفة ، تناوش فى محاولة مكشـــوفة ، أمرت رجال المقدمة برفع الايدى علامة التسليم .

كفت مدفعيتهم عن اطلاق النار ، بعد ان خيـــل اليهم ان قوات الفدائين قد استسلمت تمـاما ، وبرز قائد الداورية وفى لهجة عربية غريبة ، صاح :

— القوا الاسلحة على الارض .

تحرك الرجال ببطء ، عاد قائد الداورية واطل من مصفحته وصاح ثانية :

— أربعات تشكيل ..

انطلقت رصاصة قناص من رجالنا ، خلف التل ، واخترقت رأسه وفى لحظة واحدة كان كل الرجال يطلقون النـار من الامام ومن الخلف على الداورية التى اربكها هذا الحادث . لحظات قاتلة قبل أن تبدأ فى اطلاق نيرانها ، ولكن كانت هذه اللحظات كافيـــة لشل حركتها ، كما اعطت رجالنا فرصة التمركز واطلاق النـــار على العدو .

كان **الخطر** شديدا علينا ، وخاصة **هؤلاء الذين يحاربون فى أرض مكشوفة ، ولكنها لحظات من التوهج القتالى للاجىء يقاتل فى سبيل بيته ، المدافع حصدت ثلاثة من الرجال دفعة واحدة ، سقطوا شهداء ، فكرت ، مرة اخرى فى حيلة ..**

انحرفت قليلا عن المجموعة ، تدحرجت سريعا حتى أصبحت على مقربة من أول مدرعة من مدرعات الداورية ، فكرت ، مرت لحظات من الانبهار العاطفى ، ان كان على أن اموت فليدفع العدو ثمنا هائلا لموتى ، تمكنت من وضع قنبلة ناسفة فى المدرعة ، انسحبت بسرعة الى الثانية ، لحظات الانبهار تتسع ، انطلقت زاحفا الى المدرعة الثالثة ، احيانا تصبح الحياة لا قيمة لها ، الموت لا معنى له الا فى لحظة وقوعه ، انفجرت المدرعات فى دوى رائع جميل ، مشعلا نارا مقدسة بددت ظلمة المكان .

مدرعات العدو بدأت تنسحب بفردية باحثة عن وسيلة الهرب ، وتخبطت فى الدروب ، أحس الرجال بدون أوامر ان هذه فرصتهم وتدفق شلال نارى من مدافع وقنابل الرابضين فى صبر ، ازدادت وحشية الجنود الذين راحوا يطلقون المدافع فى خوف ، الطلقات كانت تكفى لنسف مدينة ، ولكنها طائشة اعماها الخوف.

فقدنا نصف رجالنا ، تقريبا ، علمتنا الحرب ان نكون صرحاء ، فوق ان علمتنا الحرب نفسها ، تحطمت داورية العدو الا من فلول هاربة ،ولكن المدد الجوى والبرى سرعان ما يصل ، هناك نقطة ما يحتفظ بها العدو ولا يتركها ابدا وفيها وجوده ، وبفقدها يخسر كيانه كله ، لو امكن معرفة هذه النقطة جيدا لامكن احراز النصر المطلق والابدي ، وكان لابد من الانسحاب السريع تفاديا لوصول المدد ، أشرت الى عشرة رجال للبقاء معى للمناوشة على أن يقود يونس بقية المجموعة عبر الحدود .

توقف الضرب لحظات ، ساد الهدوء ، نجوم فى السماء ، ظلام لا نهائى ، انفاس الرجال لاهثة بجوار اذنى ، نوعا من الفراش جرح الظلمة ، انبثق سيل من النار من مدفع جندى أهوج ، بدأت المجموعات فى الانسحاب ، تحركت خطوة واحدة ، كنت اود ان أفكر جيدا ، اندفع سيل من النيران فى اتجاهى ، انبطحت ثانية ، همس رجل من رجالنا :

— الالغام

وهج احمر ، كانت عيناه ، شعاع من التماع مخبوء،افسدته حياة الخيام والمذلة ، جعلته يقف مشلول اللسان والقلب واليد ،

والآن ، يكاد الشلل يتسرب ، ليأخذ طريقه نحو الموت ، سألته :

ــ ماذا تقصد ؟

ــ نضعها فى طريقهم .

الوهج الاحمر ، تحول النور الاخضر الباهر الذى يقف بين النار ووقودها .. نفذ .. لا داعى للوقوف هكذا ، الحركة السريعة هى مفتاح نجاح العمليات ذات الاهمية ، قالها حكيم هندى ، لا اذكر اسمه ، الرجال يزرعون الالغام ، كنا نفشل فى زراعة القصب ونستورد السكر ، ولهذا كان السكر مرا ، عناقيد العنب أقصد عناقيد الالغام تنبت فى الارض ، وبعد قليل تطرح العناقيد حبات السكر ، انتهى الرجال من المهمة ، بدانا نعود ، كان تقديرى للمدد الجوى وخطورته هو محور تفكيرى ، سقط رجل جريح ، حمله رفيقاه حتى حفرة كانت بتل رملى ، عربات العدو المدرعة عادت بأسرع ما توقعت ، كانت تقذف بنيرانها كنوع من الحماية ، كان لابد لنا من الاختباء ، تسلل الرجال فى سهولة عبر اخاديد الام الحنون ، ابتلعتهم ، تقدمته العربات أصبحت على وشك الانقضاض علينا ، الالغام لا تعمل ، خانتنا عناقيد العنب ، بقدر علمنا عن هذه الحبيبات القاتلة وضعناها فى الارض ، حينما نعود الى الديار ، سأحاول أن اتعلم المزيد عن هذه الاشياء الملعونة ، ولكن تقدم العدو يعنى الهلاك الكامل ، لن أستطيع ان أدرس اكثر ، ربما يحاول يونس ذلك ، لو ان بيدى مفتاح العالم ، ذلك العالم المجهول ، الذى يرقد فى حضن الارض على بعد هائل من مركز الكون ، لو ان ..

انفجر فى قلبى شريان الامل ، هتفت من اعماقى : يارب . تطايرت العربات كاللعب المحترقة فى حريق مصنع لعب الاطفال ارتفعت السنة اللهب والدخان ، عوت المدرعات فى ألم وهى تتمزق تطايرت الشظايا فى اندفاع محموم ، صرخت الاف القطع من الصلب فى فزع ، زحف الرجال عبر طريق جافة ، كانت تعمل به الجرارات الزراعية وتمهده للزراعة .

جاء الجزء الاخير من الليل يحمل الندى الرطب الذى يبلل الجباه المحمومة ، وسار الرجال فى ثقة .

كانت المسافة ما زالت طويلة ،وذلك القتـال العنيف الذى دار فى ضراوة ووحشية قد دفع الى الرجال جرعات من الفـــرح والسعادة جعلتهم لا يشعرون بالتعب ، حتى وصلنـــا الى ارض التحضير للعودة .

بالطبع ، الخسائر فى الرجال فادحة ، والامر فى حاجـة الى المزيد من الرجال ، والرجال فى حاجة الى السلاح والايمان هـذا صحيح ، الفرقة فى حاجة الى زيادة الامكانيات ، وخاصة البشرية المدربة لكى تزيد الفاعلية القتالية .

الافكار تتصارع ، تنمو داخل العقل البشرى لتـــدفع الى العالم الخارجى ببعض الاراء المشوشة الحقود ، يبـدو ان العقل البشرى ، حتى الان ، رغم اختلاف طبقات وطرق التفكير ووسائله لا يهمه هذا العالم كثيرا ، فالحروب هى التعبير العمـــلى لتلك الاراء المشوشة الحقود التى يلفظها العقل البشرى ، كوسيـــلة لتدمير العالم ، ولكن الخطر يكمن فى تلك العقول التى لا تفـــكر وبالتالى لا تفرز اراء طائشة وما زالت حتى الآن تحـــلم بالخير والسلام ، وخلاف ذلك من النظـــريات الفلسفية الغير مجـدية والتى يرغب العالم فى أن يضعها داخل العقل البشرى ، ولهـــذا قررت تبنى نظرية العالم .

لا بد لهذه الفرقة من أن تنمو ، وأن تصبح جيشـــا أو شيئا شبيها بذلك ، يخضع لأسس علمية منظمة للتدريب والتسليـح والتخطيط للعمليات ، علاوة على العديد من العمليـــات الاخرى المساندة والضرورية .

العودة الى قرانا تحتاج الى كل شيء ، وقبل كل شيء تحتاج الى التنظيم ، قالوا لى أن هناك فرقا ، مثل فرقتنا ، تعمـل فى اماكن اخرى من الحدود ، قلت ، لو أمكن وجود وحدة تربط هذه الفرق وتنسق عملها ، وتوحد خططها ..

ضحك يونس ، وقال :

— يصبح لنا جيشا !

نظرت الى الافق ، كان راسى يدور بأشياء لها بريق الذهب وقلت فى ترنيمة الصلاة :

— لم لا ؟ الحارس فى الليل يغنى ، يضع بندقيته فوق كتفه ، ويغنى ، تلك سماء الليل الوحيد ، وهذا عالمنـــا المشنوق فوق أوهام الفارس الذى يأتى ، من أين لاندرى ، والقلب لا يصــــدق **وجود ذلك الفارس القادم ، والعقل كـذلك ، وددت لو صحت فى عالمنا المعتوه ، لا فرس هناك فى مربط الخيـــل ولا فارس الا فى الاحلام .**

يونس قطع الترنيمة ، وقال :

— وأين المال والسلاح ، والارض اللازمة للتدريب ؟

هل نسيت كيف نحصل على السلاح ، وكيف نتدرب ؟

أهاجت كلمات يونس فى نفسي المـــرارة ، مرارة كنت اشعر بها واحبسها فى نفسي ، فى داخلى ، احيانا أجتـــرها فى صمت ، هؤلاء التجار الاثرياء الذين يتوسعون فى أعمالهم وينفقون بغـــير حساب ، ويعيشون فى لذة ووفرة من العيش ، وكأن بلادهم آمنة ، هؤلاء الضاحكون اللاهون ، وبلادهم باكية .

تذكرت حكاية قديمـة ، ذات مرة ، دخلت على صـــاحب الشركة التى أعمل بها سائقا ، فوجدت مائدة طعام مدت بأشهى أنواع الطعام وأطيبه ، كما رصت عليها انواع من الشراب الغـالى الثمن ، وجلس حولها مجموعة من التجار الاثرياء ، الذين راحوا يأكلون فى شراهة ويشربون فى صخب وميـــوعة ، تخيلت هارون الرشيد ، هارون الرشيد فى حكايات الف ليـــلة وليـــلة ، ذلك المفجوع المتورم من الطعام ، عـاد ذلك الحرمان الذى يسيطر على أحلامنا ، اندلعت فى رأسي نار المهانة ، يا للوطن السليب ، ربمـا يكون السبب فى ذلك الجوع الذى أحسه ، وربما اشياء اخرى ، يا للوطن الضائع ، وبنوك يأكلون ويشربون ويمرحون ، لاهين عن ماضيك وحاضرك ، ربما الحقد النابع من وجدان الطفل اليتيم ، وربما اشياء أخرى .

صرخت فى يونس :

— من مال هؤلاء ؟

قال بدهشة :

— من هؤلاء ؟

— الذين يملكون ، ويزدادون ثراء ، وتزداد بطونهم انتفاخا الذين نسوا أو تناسوا أن لهم وطنا مفقودا فى قبضة الشيطان .

طافت فى رأسي كلمات برهان ، وهو يسير معى فى شوارع مدن القطاع :

— غريبة !! الناس يضحكون !!

قلت ، وأنا لا أفهم ما يعنيه :

— لابد أن هناك ما يضحك .

— فعلا ، هناك ما يضحك .

نظرت فلم أجد شيئا مما قال ، مضت لحظات غباء داهمت عقلى ، نمقت ذلك الفكر الرتيب البليد ، الصوفى ، قال برهان فى صوت عكر صفو الفكر الصوفى :

— لا ، يجب الا يسعدهم شيء .

سألت فى بلاهة ، وعقلى مازال تائها فى حواديت القمر وتهويمات الصوفية :

— لم يابرهان ؟

اخترق صوته حاجز الطبقة الاولى لرتابة تفكيرى .

ووقفت الكلمات دون الطبقة الثانية :

— لان قراهم محتلة ، ومخادعهم منهوكة الحرمة ، ودماء قتلاهم لم تجف بعد .

اخترقت الآن الكلمات الطبقة الثانية من طبقات الفكر الصوفى ، تكومت الكلمات فوق جدار العقل الاجوف ، سمعت صدى الكلمات ، تأوهت من شدة الالم ، تاقت نفسي الى ان اقول آه ، ولكنى لم اقلها .

لا يزال على الفجر اكثر من ساعة ، وابن اختى يبكى ، رغم كل المحاولات التى تبذلها اختى فى اسكاته ، أنين طفل فى رتابة واصرار يشبه طنين النحل الخائف ، فى ساعة ما قبل الفجر ، يفتت الاعصاب ، يذروها فى ضراوة تقتلع النوم من العين المتعبة ، والاجتماع الذى عقد فى أول الليل كان صاخبا كثير المناقشة ، هدتنى الثرثرة الجوفاءجعلتنى راغبا فى النوم ، هروبا من لعبة الالسنة ، ولكن هذا الغلام الشقى يبكى فى رتابة أبدية .

خلال الاجتماع ، اتضح لى اننى يجب ان احارب فى جبهتين ، اولهما سهلة ميسرة ، فهى حرب معروفة ، مدروسة ، أقصي ما فيها الموت أو الاسر ، وهى تلك العمليات التى نقوم بها ، أما الجبهة الثانية ، او الحرب الثانية ، هى تلك التى لا يصلح معها الموت ، او الاسر بل انها أقصي من ذلك وأمر ، حرب الكلمات .. الكلمات الجوفاء ذات الرنين الاصفر ، والتى تبدأ من ابتسامة باهتة الى مؤامرة تحاك فى الظلام وتجعل منك لصا او خائنا .

خضت غمار الاولى ، وعايشتها لهبا حارقا ، رصاصا ممطرا والغاما مزروعة ، وقنابل ، فعلمتنى وجعلت منى مقاتلا ، وخضت غمار الثانية ، كلاما مثل السهام وامثالا وحكما ومناقشات ، ومؤامرات يقودها هؤلاء الذين يملكون ويخافون على ما يملكون ،

ويمشي على دربهم هؤلاء الذين يطمعون فى ان يتملكوا ويخافون على ما يطمعون فيه .

هدنى الحوار فى الاجتماع ، هاجمونى واتهمونى بالطمع والجشع والانانية ، واتهمونى ايضا بالاسراف فى الخيال والوهم ، فلن تخرجهم مثلهذه العمليات غيرالمجدية ، لن يرحل المستعمرون فى سدى بوكر ولا كل المستعمرات فى مستعمرات النقب ، لان مولدا كهربائيا قد نسفه الفدائيون ، أو عشرة امتار من شريط السكك الحديدية او حتى مخزنا للاسلحة ، واندفعت الاصوات المحللة الموضحة ، شارحة ما خفى من الامور الهامة التى لا يفهمها سواهم ، الاسلحة تأتيهم من كل الجهات ، فما معنى نسفها وتدميرها لانه سيأتيهم غيرها ، وأوضح البعض الاخر هذه العمليات تفيدهم لكى يجعلوا مورد السلاح مفتوحا دائما ، الكلمات فى لغتنا كثيرة المترادفات !..

العبارات الجوفاء ، والافكار السطحية ، لا تزعجنى بقدر ما ازعجتنى كلمات خرجت من فم رجل شاحب ، قصير القامة جلس فى المؤخرة ، منزويا على نفسه ، قال عدة عبارات ذات معنى متشعب ، اتفاق اسرائيل ودول اخرى ، واحس الرجل بانه قال أكثر من اللازم فغادر الجلسة ومضغ العبارة الاخيرة فى فمه وابتلعها ومضي .

كانت اجهزة الرصد لفرقتنا قد واصلت فى الفترة الاخيرة الابلاغ عن تحركات لجيش العدو على الحدود . بل ان احد رؤساء المجموعات فى أجهزة الرصد حمل الى خبرا مؤداة انهم يستعدون لغزو شامل لمنطقة القناة مستغلين الحوادث الدولية الموجودة الان فى المنطقة .

وقد حاولت دراسة كل هذه الاخباريات ، ومن خلال هذه الدراسة حاولت تخيل صورة ما سوف يحدث ، يحتاج الفرد الى الكثير من اليقظة الوجدانية لكى يرسم لنفسه فكرا معينا يختلف عن الافكار الشائعة ، اومايسمى بالافكار الجاهزة المعدة للاحتواء .

لا يزال الفلام يصرخ فى خرارة ، والرغبة فى النوم تشدنى

الى الفراش رغم ضربات بكاء الطفل ، ولا يزال على موعد صلاة الفجر ساعة أو يزيد ، تمنيت ان يكف الغلام عن البكاء ، وبقيت مطروحا فى فراشي .

الزمن المر يمر بطيئا ، والنفس المتعبة نفس شيطانية النوايا حامت حول رأسي افكار عديدة مهووسة ، ولكنى ، اخيرا لم أجد بدا من القيام والذهاب الى الجامع القريب فى انتظار صلاة الفجر ..

الشوارع خالية مظلمة ، هادئة ، يأتى من بعد قريب صوت هدير امواج البحر فى رتابة ابدية . توقفت اشم رائحة هواء آخر الليل المندى برائحة اليود ، عله يذيب من نفسي توتر الارهاق النفسي والجسدى ، يبدو ان هناك أصواتا تعلو على هدير البحر احيانا ، وتأتى من الجنوب فى زمجرة ، اصغيت السمع لحظات ، ولكنى متعب ، لم اسمع جيدا ، واصلت السير نحو المسجد ، خطوت الى الداخل لم يكن هناك من احد ، الفرش باردة تحت القدم المخدرة ، والسكون يوحى بالرهبة ، والاعمدة تبرق فى الظلمة ، تبدو كأشباح زنجية لامعة ، واخترقت صحن المسجد فى خشوع حتى وصلت الى دورة المياه ، الماء بارد برودة تجمد الدماء فى العروق ، عدلت عن الوضوء ، وعدت الى صحن المسجد ، وأعود بعد قليل .

النوم سلطان ، قالت ذلك امرأة ما ، فى لحظة انتظارها لزوجها العائد من المقهى ، تمددت واسندت رأسي لعمود رخامى املس ، تبخرت بعض الافكار الصبيانية من عقلى ، تمددت الصوروبدو أنها استلقت داخل رأسي ، نامت فى سعادة ، حاولت ان احتفظ بعقلى مفتوحا لتيارات اللحظة الحاضرة ، وجاء رجل يرتدى السواد وفى يده ما يشبه السيف ، قربه من موضع قلبى وصاح :

ــ انت مسلم ؟

ــ الحمد لله ..

لم اقل ذلك بالضبط ، والحقيقة لم افتح فمى ، ولكن هذا على الاقل ما أردت قوله ، وما كان يجب أن اقوله .

هاج الرجل وكشر عن انيابه ، وقرب السيف من موضع قلبى اكثر ، وقال :

— سب محمدا .

نظرت الى الرجل فوجدته قبيحا الى درجة كبيرة ، بارد النظرة ، هززت راسي علامة الرفض ، كانت بى رغبة للسخرية منه ، جلس بجوارى ثم قال :

— سب محمدا وساعطيك مالا لا يفنى ابدا .

حاولت ان اقف ، او ان اصيح ، وحاولت جاهدا ان اتحرك فقط ولكنى لم استطع وكأن قيودا تربطنى بالارض ، ضحك الرجل فى سخرية ، ومد يده الى رقبتى وراح يضغط عليها بقوة وهو يردد :

— سب محمدا ، سب محمدا .

بذلت محاولات مستميتة لكى ابعده عنى ، ولكنها ذهبت جميعها دون فائدة ولم اتحرك من مكانى ، حزنت على نفسي ان اموت هكذا بيد شيطان وانا ممدد لاحراك لى مثل فأر مذعور ، واشتدت قبضة الرجل الشيطان فوق عنقى ، وجاء آخرون راحوا يغزون سهاما فى كل قطعة من جسدى فى ضلوعى واحشائى ، وانا مقيد لا استطيع منهم فكاكا ، واخيرا استجمعت كل قوتى وضربته بيدى ، فصرخ الرجل وقال :

— قم يا بلال ، اليهود دخلوا القطاع .

وقفت مذعورا ، ذلك الكابوس المخيف تطور الى واقع ملعون .

— كيف ، كيف ؟!

— من ساعة وانا اوقظك وانت نائم لا تتحرك .

— والرجال ؟

— يقاتلون ، ولكن ماذا يفعلون ؟ اليهود يدكون الشوارع ، غمام من الطائرات تقذف حمما من جهنم .

خرجت من المسجد بأقصي ما استطيع من سرعة ، جريت فى لهفة والقنابل تتساقط بجوارى ، وكلما مرقت من حـــارة الى أخرى اجد الحرائق مشتعلة فى كل مكان ، وقنابل الطـــائرات تتساقط بغير حساب .

وتذكرت ما حدث لى منذ ثمانية اعوام فى قريتى (امالسلول) ذلك ما فعلته فى الماضي ، أجرى فى الدروب والحوارى ابحث عن بيتى ، وقنابل الطائرات تهوى على كل شيء ، اصواتها تدوى فى عويل ممقوت ، فحيحها مثل افاعى الدمار ، والدور تنهار لتتحول فى لحظة الى ركام ، صرخات امراة ثكلى ، طفل يعوى مثـــل ذئب خائف .

يبدو اننى وصلت بعد الموعد ،فقــد وجــدت دارى كـومة انقاض يتصاعد منها الدخان ، اندفعت كالمجنون ابحث عن أختى بين الانقاض .

درت ابحث بين الخرائب ، عقلى مشلول ، خرائطى محترقة ملابس فرقتى رماد ، كتبى اشيائى ، تلك القصاصات من الاوراق العزيزة على القلب ، ذلك الركن من البيت حيث كنت أجلس كل مساء ، تحولت الدار الى خرائب كريهة ، قطع من الحديد ، رماد قطع من الحجارة والطوب المحروق ، دخان يتصاعد ، هـــذا هو بيتى ..

ولكن أين الاسلحة وذخائر الفرقة ؟

طار فؤادى هلعا ، وتصورت امالى حطاما مثل دارى .

تهون كل الاشياء ، أعز اشياء ولا افقد بندقية او مجـــرد رصاصة ، تحول بحثى الى تصرفات محمومة لاهدف لها ، فجأة سمعت أنات ضعيفة ، توجهت ناحية مصدرها بسرعة ، واقتربت ، رفعت بعض قطع الخشب ، وجدت أختى راقدة فى بحـــيرة من دمائها تنازع الموت :

– أختى ، صباح ..

ردت فى صوت يموت :

– لا ، لا تقترب

— ولكن ..

وتلاقت عيوننا ، أختى ذلك الكائن الحبيب ، لم اكن اتذكر ملامح امى الا اذا نظرت اليها ، احلامى ، قريتى ، اراهم فى النظر الى أختى ..

— انتقم يا بلال ، السلاح وابنى ..

تذكرت الغلام ، قلت بسرعة :

— أين ؟

قالت فى صوت متقطع :

— اسفل البيت المجاور ..

— ولكن ..

لم ترد ، ماتت ، كفت اختى عن الحياة ، كما سبق ان كف افراد اسرتى جميعا ، عن الحياة .

ماتت اسرتى ، واللحظة الباكية مضت ، ذلك حكم غادر ، من اجل الملعونين فى السماء والارض وبسببهم ، يا الهى اين انت ! هل كل الارض تحظى عندك بنفس القدر من العناية ، ورحمتك وبركتك تنزلها علينا كما تنزلها على العالم كله بنفس القدر ، ياربى ، امدد لنا يدا ، او اقذف بنا جميعا فى اتون الجحيم ، لا تبق منا احدا ، احرق هذه الارض ، انسفها من ملكك ان كنا اخطأنا ، لكن لا تسلط علينا الملعونين من عبادك .

وعادت الطائرات فى هجمة جديدة ، وقذفت بالمزيد واندفعت طلقات المدافع مولولة خلفها ، تملكتنى رغبة فى أن أقف فى الخلاء ، تحركت ، تذكرت الغلام ، دلفت الى البيت المجاور ، وجدته يلهو فى براءة وسعادة برصاصة فارغة ، واسلحة فرقتى بجواره وكأنه يحرسها .

توقفت لحظات حائرا فيما افعل ، كيف أحمى الطفل وأبعده عن قسوة الحرب ، والضرب يأتى من كل مكان ، ماذا افعل ؟ وفجأة وانا فى حيرتى ، وجدت فاطمة تقترب وتقول :

— هات الطفل .. سيكون معى فى أمن .

ناولتها الطفل فى صمت ونظرت الى عيونها الحزينة ، بلدى هذه الرياح الشمالية ، أضناه السهم المفروز تحت اللسان شعرت ان الرب ينظر الى فى عتاب من خلالهما .

قسما لأنتقمن ، قسما بالله ، بالارض ، بالدم ، بالسلاح بالكلمة فى فم الطفل اليتيم ، لأنتقمن لك يا بلدى ، وحملت سلاحى واندفعت خارجا .

كانت المعركة قاسية وغير متكافئة ، قوات العدو تساندها قوات أجنبية اخرى ، طائرات فرنسية وانجليزية وقوات اخرى غير معروفة الجنسية ، لقد حاولت فيما بعد حينما هدأت الاحوال ان افسر الامور لنفسي ، هالنى ما تبينته ، لقد كان واقعا مرا ذلك الواقع الذى كنا فيه ونحن دون العالم لم نفهمه وحتى الآن اشعر ان هناك اشياء غير مفهومة فى صراعنا مع الحياة ، البوارج الحربية تقذف الساحل فى عنف ، الشعب اعزل من السلاح الا قليل من حملة البنادق والمدافع ، والمدافع صغيرة قليلة الذخيرة ، وكفة الحرب الحديثة مع الاسلحة الاقوى .

كان همى الاول جمع صفوف فرقتى للقيام بعمل منظم ، تبدو الاحداث الان غريبة وكأنها حدثت منذ قرن ، لو أمكن تعطيل تقدم العدو حتى تأتى النجدة من الجيش العربى .

محاولات عدة تحت وابل مطر الموت من الرصاص والقنابل استطعنا جمع نصف الفرقة تقريبا ، اتفقنا على نسف الطرق المؤدية الى قلب القطاع ، وتعطيل الوحدات الاستطلاعية للعدو الخط الامامى لمدرعات العدو ، ربما امكن عرقلة سير العدو واندفاعه لاحتلال مواقع متقدمة .

قسمنا الفرقة الى مجموعات صغيرة ، ليسهل العمل كل مجموعة تقوم بعمل منفرد ، كان الضرب كثيفا ومركزا والامل فى نجاحنا ضعيفا ، العدو دفع فى حركة مباغتة كل قواته فى هجوم من ثلاث شعب ، وذخيرتنا ليست كافية .

تقدمت مع المجموعة التى كلفت بالزحف خلف خطوط العدو الامامية ، لضربه من الخلف فى محاولة لنسف مدرعاته أو تعطيلها ،

اخترقنا الحدود فى سهولة غير متوقعة ، تمكننا من اختراق خط النار الاول والتسلل خلفه ، أصبحنا نشكل رأس جسر متقـــدم لبقية المجموعات ، لو ، لو هذه تصنع العجائب فى الزمن اللاحق ، ولكنها لا تصنع شيئا فى الزمن الحاضر ، ومع هذا لو أمكن أن ..

بدأنا فى تنفيذ اول سلسلة من العمليات ، كان العدو يعتمد على المدرعات والعربات المصفحة بعد التمهيد بعمليات الطيران ، بعض السادة يفسرون ذلك بالجبن والخـــوف ، وهؤلاء مازالوا يعيشون فى حرب الزمن الغـــابر ، زمن السيف والصيحـــة التقليدية ، ولذلك فان الجبناء سينتصرون ، استخدام المدرعات أعطانا فرصة رائعة للتسلل . خلف الخطوط .

تقدم ثلاثة من المجموعة فى عملية انتحارية لوضع الغـــام فى طريق القوات المتقدمة فى الخط الثانى ، على ان تقـــوم باقى المجموعة باستخدام القنابل لنسف عربات الصف الاول المتقدم .

وقذفت بأول قنبلة ناسفة ، جـــاءت فى الصميم ، وسط (المجنزرة) تماما ، وكأنها فقاعة هواء لمست جسما صلبة ، تفجرت العربة ، تناثرت منها القطع الصلبة مع شظايا القنبلة ، احـــدث الانفجار ارتباكا هـــائلا فى قوات العدو ، بدأت تتراجـــع بعض المدرعات ، تتساقط قنابلنا كرذاذ الملح ،تتابعت الانفجـــارات ، وقع مقاتل شهيدا داست عليه مدرعة ثقيـلة وراحت تقصف فى جنون ، واقتربت المدرعة كثيرا منا ، واحسست بقرب النهاية ، ادارت المدرعة فوهة مدفعها الرئيسي وبصقت حما تنـــاثر حول مخبئنا ، ارتفعت قنبلة صغيرة فى الهـــواء واستقرت فوق الارض بجوار جسم المدرعة تماما ، سكنت القنبلة كدمية طفل افسدها ، تنظر فى بلاهة الى بكاء صاحبها ، خيل الى ان الدبابة ضحكت فى سخرية راحت تستدير فى لامبالاة مالت قليلا على جنبها وصدر منها صوت كصوت رجل يحتضر ، ثم صرخت فى قوة ، واذا هى حطام يتصاعد منه الشظايا والانفجارات المتوالية ، وبعـــدها ران صمت هائل ، اعقبه دوى مخيف .

مجموعة كاملة من عربات العدو تناثرت بفعل اصطدامهـــا بحقول الالغام .

وكان لابد من الفرار وهذا النجـاح يكفى الآن ، وبدأنا فى الانسحاب الى المخابىء .

المعلومات ترد فى سرعة ، تعرضت خان يونس للقذف الجوى المركز ، انسحاب القوات العربية ، تمكن العدو من احتلال منطقة بالقرب من العريش ، تساقط الشهداء بصعب حصره ، الدمار يهدد المنطقة كلها ، مخازن الذخيرة والاسلحة معرضـة للنسف الكامل او الاستيلاء .

كان الشيخ الضرير يقول .. كلما ازدادت قوة عدوك ازدادت الفرصة امامك لتنال منه ، فقط كن سريع الحـركة واضربه فى موقع قوته واهرب ، افعل ذلك كثيرا حتى ينهار كبيت قديم ..

ويسكت الشيخ الضرير ولا احد يقول شيئا ، انه يقول لقوم بلغاء عرفوا الحكمة أكثر منه ، واحيانا يعلق احـدهم قائلا .. كومة القش الكبيرة تحترق بعود ثقاب صغير .. واحيانا يعلقون بكلمات من التراث ، ولكنهم غالبا يذهبون الى منازلهم لينظروا الى مواضع فراشهم الليلى .

عدت بأفكارى الى وجوه زملائى فى المخبأ ، حان الوقت للعمل اتفقنا بسرعة ، أعمال محددة صغيرة ، نسف اكبر عـدد من الجسور والطرق ، اصطياد جنود العدو ، تخريب مؤخرته .

وبدأنا العمل فى صمت .

الذين عاشوا تلك الفترة يقولون اشياء غريبـة ، ولكنهم جميعا يتفقون ، بعد سرد وجهات نظرهم ، فى امر واحد انه كانت هناك كذبة كبيرة صدقها الجميع .

وخرجت مجموعتنا وفقا للخطـة ، كان العـدو فى بداية الانتصار الخاطف الذى حققه بسرعة ، سعيداً يصخب جنـوده فى جنون ، كانت هذه فرصتنا ، وراحت ايدى الرفاق تعمـل فى هدوء ، سقط جندى احمر الوجه فى الشارع الرئيسي ، وبعـده توالت الوجوه ، خليط من البيض والسمر ، صاح جندى اسمر بلهجة مغربية وهو يموت .. كلاب .. لا أدرى من هم الـكلاب الذين يعنيهم هذا المغربى التعس .

انعزل القطاع عن اتصاله بالعالم الخارجى ، ضـوء ضئيل ياتى من أجهزة الراديو ، ولكنه ضوء يومض لحظة ، لتعود الظلمة مرة اخرى ، خطر الموت جوع وعطش بجسم على صدر القطاع ، حياته اصبحت فى قبضة عدوه دون رقيب .

اربكت هذه الحوادث المتتالية ، التى قامت بها مجموعاتنا ، العدو الذى كان يحسب انه أخمد كل مقاومة ممكنـــة ، فراح يقوم بحملات مسعورة للبحث عن الفـــدائيين ، ينسف المنــازل بسكانها دون انذار للسكان ، ويقولون بعد كل عملية نسف لمنزل أنه احد أوكار الفدائين ، ذبحوا عشرة رجال علقوهم على ابواب المنازل ، ولكن كان ذلك دون فائدة ، فقد راحت مجموعاتنــــا تهددهم فى كل مكان ، بل ان وحشية العدو زادت من عزم الرجال كما زادت حماسنا فى ابتكار طرق جديدة لاقلاق جنوده .

خلت المنطقة لعسكر الفرنجة ، اصبحت سينـــــاء ميدانا للعرض العسكرى ، اشتبكت القوات العربية مع القوات الانجليزية الفرنسية فى معركة مصير ، شاركتنا مدن القناة فى المحنــــة ، عواطفى مشتتة ، اتذكر شوارع الاسماعيلية ، منزل احبـــائى اسرة عم برعى ، قهوة مصر واصدقاء القهوة ، اللعنـــة على كل الجبنـــــاء .

كان العدو قد دفع قواته عبر سيناء ، فى الايام التاليــة ، واخذ يقيم عروضا عسكرية ومناورات فى دروب القطـــاع أو فى طرق سيناء ، وكان ذلك مفتاح الموقف لنا ، وعليه بدانا نضـــع خططنا ، وكمن الرجال فى الهضاب التى تحيط بالطرق ، الاخبار حملت الينا نبأ تسيير قافلة اسلحة وذخـــيرة لامـــداد قوات الجيش المتقدمة فى جنوب سيناء .

اليهود فى ارضنا المحتلة أجناس مختلفة من البشر ويهمنـــا جدا جمع هذه المعلومات ، وكان جنود القافلة القادمة من اليهــود الذين يطلق عليهم (الصابرا) الذين ولدوا فى فلسطـــين ، وهم ميالون الى تقليد رعاة البقر فى افلام السينما الامريكية .

اقتربت القافلة من النقطة التى تم تحديدها للهجوم ، نجاح العملية يتوقف على السرعة فى الانقضاض والضرب ودخلت القافلة

بين الهضبتين ، وما ان تحركت عدة امتار حتى انهال عليها امطار النيران من كل جانب ، حاول العدو ان يتقهقر او يتقدم فى سرعة ، ولكن الكمين كان محكما ، لم يدع لهم منفذا وتساقطوا كأوراق الشجر الجاف فى الزمن الخريفى .

أعقب ذلك سلسلة انفجارات من عربات الذخيرة ، تصاعد غاز ابيض حول الانفجارات ، تحول الغاز الى اللون الرمادى ، مازال الرجال يقذفون بقنابلهم ، تزداد سلسلة الانفجارات فى القوة والسرعة ، الفازات المرتفعة تشكل سحبا قاتمة ، بدأت السحب فى الارتفاع ويظهر خلفها مدرعات العدو المحطمة فى وضع بائس ، نجحنا ، صاح احد الرجال ولوح بمدفعه اخترقت رضاصة صدره ، حملق لحظة فى الفراغ وسقط فى هوة أسفل الهضبة ، انطفأت شعلة الفرور التى أوقدها الشهيد ، تحرك الرجال فى صمت ، تفرقوا جماعات صفيرة لابد ان الرصاصة التى أردت رفيقنا جاءت من جندى مختبىء ، سمعت صوت دفعة من رشاش ، همس الجهاز الذى معى بالاشارة المتفق عليها ، وزعت رجالى وفقا لها ، انهمرت سيول الطلقات من الرشاشات ، أعقبه ظهور بعض جنود العدو ، توقف الضرب من ناحيتنا ، تقدم الجند رافعى الايدى ، اشرت للرجال بالانتباه ، تقدم الجند خطوتين ، الفدر يأتى من أهله ، انحنى الجند فى سرعة وحاولوا الاختباء فى مدرجات الهضبة ، اندفعت دفعات من مدافع الرجال ، صرخ جندى فى ألم ، اسرعنا لتطهير المنطقة ، تلا ذلك سلسلة من العمليات المهمة قبل ان تأتى نجدتهم والسريعة دائما ، تدمير المدرعات الثقيلة الباقية ، جمع ما يمكن جمعه من السلاح والذخيرة ، محاولة لحصر الخسائر ، نقل جرحانا وعمليات أخرى ، وبعدها انطلقنا الى المخابىء .

فرحت كثيرا بالمجموعات الكبيرة التى حصلنا عليها من القنابل الناسفة ، وصناديق الطلقات ، وعناقيد الالفام ، وايضا صناديق الطعام والمواد الاخرى ، وحقيبة قائد القافلة .

جلست مع رفاقى لدراسة محتويات هذه الحقيبة الفريبة التى حصلنا عليها بمحض الصدفة ، وكانت طائرات العدو تجوب المنطقة بحثا عن القافلة المفقودة ، وعلى صوت هدير طوفان البحث

المجنون للعدو عن آثارنا ، وحنا نقرأ بالعبرية رسالة هيئة الاركان لقائد الخط الاول .

وكان من نتائج هذه العملية الجريئة ان العدو بدأ حملة اكثر عنفا وضراوة للبحث عنا ، جمع الشباب فى كل المناطق ووضعهم فى معسكرات اعتقال أعدت فى الخلاء ، وجمع الرجال ووضعهم فى العراء ،وكل فترة تأتى مجموعة من الطائرات وتمر فى ارتفاع منخفض فوقهم ويتساقط الرجال فى فزع ، ويحاول البعض الهرب ولكنهم لا يستطيعون فالجنود تطلق الرصاص للتسلية ، والبعض يقف فى حيرة ولكن الجنود لا تتركه ، اللعبة لعبة أشرار يلهون بحياة العزل .

علقوا جثث القتلى على الابواب وفى مداخل الحارات ، ازالت الدبابات بيوتا كثيرة ، الحقد كلب مسعور ، والعالم صامت لا يتكلم ، يلهو بحبل ملون مفتول بعروق انسان .

ولم يمنع هذا العنف المذعور ان تخرج مجموعاتنا لتقوم بعملياتها المعتادة ، وسقط جنود العدو تحت رصاص القناصة ، وتم نسف امتار عديدة من شريط السكة الحديد وتعطلت عدة قطارات للتموين والذخيرة ، وتتالت العمليات .

عندما يشعر الانسان بأن بلده فى خطر ، بل الجزء الباقى منها يلتهمه العدو ايضا ، فان احاسيسه تستعصي على التسجيل والملاحظة ، فالاحساس يحوله الى كتلة من اللهب المشتعل ، ولم تعد هناك اجزاء للتفكير أو التعقل أو التذكر ، بل احساس متقد ، وهذا الاحساس يصبح يأسا كاملا ، أو مقاتلا ثائرا ، ولا موقف وسط بين الاثنين ، ورغم تساقط الشهداء من فرقتنا ،ورغم المذابح الوحشية التى يقيمها العدو كل يوم فى الشوارع والميادين العامة ، الا اننا جميعا نتسابق للاشتراك فى العمليات ، كانت الرغبة فى الموت اشد من الرغبة فى الحياة تحت كل هذا الذل الذى يحاول العدو ان يسقيه لنا .

كانت فكرة الموت لا تراودنى ابدا ، كان لدى احساس بأننى اصبحت فوق الموت ، الرصاص ، القنابل ، صيحات جندى يهودى أحمق يمسك بيده مدفعا رشاشا يطلقه على كل شيء وأى شيء فى بلاهة لا ترهبنى بقدر ما اشعر بالرثاء من أجل هذا الجندى

المعتوه ، وكانت حوادث النسف والتعذيب تحدث دائما ، بجوارى وحولى ، فى تكرار عادى عديم التـــأثير فى نفسي ، بل كنت أرثى لحال هؤلاء الجند المخدرين بذبذبات عواء اجوف ، وربما يرجــع هذا كله الى الايمان الكامل فى الحق الذى ادافع عنه ، والايمـــان الصادق بانتصار هذا الحق فى النهاية وان كل هـــذه العمليات التى يقوم بها العدو هى نوع من العروض التاريخية التى يقـــوم بها التاريخ مثل الوباء والقحط ، والحاكم المجنون .

روى يونس تفاصيل ما شاهده وهم يقتلون اباه .

قطعوا يده اليمنى ثم سألوه عن مكاننا فلم يجب ، قطعــوا يده اليسرى ، ولم يجب أيضا ، سال دم الرجل العجوز ، بكى القمر ، شلال الدم المندفع من الذراع المقطوعة يلوث يد الجزار ، والرجل صامت لا يجيب ، قطعوا قدمه اليمنى فاليسرى ، مزقوا اللحم فى ضراوة ، سكت ولم يجب ، علقوه مثل الجمل المذبوح .

شرير ذلك الرجل الذى يتحدث عن السلام ، مجنـــون ذلك الذى يتحدث عن العدل ، حقير ذلك الذى يتحدث عن الانسانية ، وملعون الذى لا يصرخ فى وجه الرب طالبـــا العـــدل ، يقول الشيخ الضرير :

.. العدل يأتى من فوهة البندقية ، ومن حد الســـكين المرفوع والسلام فى حقل مزروع بالالغام ..

ويتمتم الرجال من حوله : الانسانية فى الثورة .

وفتحت الشاة فمها ، وقالت :

ــ لماذا انا دوما ، لم لا يكون غيرى ؟

الفيل اكبر حجمـــا ، والاسد ايضـــا ، بل ان الخرتيت والحوت وفرس النهر والتمساح وحيوانات اخرى كثـــيرة اكبر حجما ، وكلها حيوانات لماذا لايذبحونها يوما ؟!

قالت حمامة تقف فى خوف :

ــ فعلا لماذا نحن ؟

الحيوانات الرقيقة تذبح ولا تذبح الحيوانات الغليظــة ، لماذا ؟..

تذكر حكايات الشيخ الضرير يلهيني احيـانا ، اقسمت ان اخصص عملية للانتقام من مقتل والد يونس ، وتكون على مقــر الحاكم ، وكانت الخطة ان نتسلل الى المدينة فى الصباح ، فى ايدينا بطاقات المعونة ، ونتجمع فى المنطقة المحيطة بمقر الحاكم ، نتسول ونبكى فى هدوء ، وطلب احدنا رفع مظلمة الى الحاكم .

حاول الجند ان يطلقوا النار ، ولكن كانت هناك بعثـة من وكالات الانباء فأمر القائد بطردنا فقط ، ولكنهم لم ينفذوا الامر تركونا امام مقر الحاكم للظهور بمظهر انسانى مزيف ، تقدمت الى احد الجنود ودسست فى يده شيئا ، ابتسم فى سذاجـة ، جاء ورائى يلهث ، دسست فى يده مرة اخرى بعض الاموال ، زادت بلاهته افتضاحا ، عقدت معه صفقة ، سنقدم مظلمة الى جنــاب الحاكم ، هذا امر سهل للغاية ، تركنا نتسول .

وجاء المساء وحل الظلام على المدينة ، حظر التجول مفروض بشدة ، والرقابة مشددة ، وجاءت ســاعة الصفر ، فى خفـة وصمت تساقطت الفرقة ، كقطط وحشية ، على الحراس وسقط الحراس كبالات القطن على رصيف ميناء ، قفزت مجموعتنا الاولى الى الداخل ، اتخذت بقية المجموعات موقف الحماية والترقب .

هجمت انا ويونس على مكتب القائد ، كان يجلس فى ارتخاء سحبناه قبل ان يتمكن من معرفة الخبر ، وضعناه فى جوال مكمم الفم مربوط الايدى ، انسحبنـا بسرعة ونحن نضع كميـــة من المتفجرات فى الحجرة ، وتسللنا عائدين الى المخابىء ، وقبــل ان يفيق العدو لما حدث كنا فى مخابئنا نكشف الغطــاء عن اسيرنا العزيز .

لا ادرى كيف وقعت فى ايديهم ..

كان قد تقرر انسحابهم ، بل ان بعض قـواتهم كانت قد اتمت انسحابها بالفعل ، لا اذكـر كيف تم ذلك ، كيف وقعت فى الاسر ، الحـــوادث تختلف ، بالطبع ، اثناء وقوعها عن وصفنا لها او التحدث عنها ، ولكنى ساحاول جاهدا ان اقص كل شيء ، لا ، ليس كل ما حدث ، بل ماأستطيع تذكره فقط ، كنت اطلق النار على قوات برية متحركة ، بينما تعمل مجموعات من فرقتنا فىنسف مخزن معدات للعدو كانوا قــــد اقاموه حديثا ، ولم يكن هناك قوات كافية للحراسة ، كان على تغطية الرفاق وهم يعملون .

عملية من العمليات التى قمنا بها كثيرا من قبل ، نسف مخازن المهمات والذخيرة ، المحاولة لتطويق العدو وحصره لعبة الفدائى ، تقوم مجموعات النسف بالتسلل الى المنطقة المحددة وتقوم باقى المجموعات بالمناوشة والتغطية فى حالة الضرورة ، لم يكن فى ذلك شيء غريب او شاذ ، عملية مثل كل العمليات .

مضت الخطة ، فى تلك الليلة ، كما وضعناها من قبـــل ، مجموعات النسف تسللت الى المواقع ، تقف فى حالة استعـــداد وانتباه ، فى انتظار اشارة العمل ، ولكن ، فجاة ، ظهـــرت قوات للعدو تزحف نحونا ، كثيفة العدد والعتاد ، راحت تطلق نيرانهـا

بعنف وبسرعة ، وكأنها ، لضخامتها واندفاعها السريع ، صخرة اندفعت بعد انفصالها من الجبل ، تهوى فى قوة اندفاع رهيبة

نحو الوادى ، واليهود ، دائما ، هكذا فى هجومهم ، يتحركون بسرعة رهيبة ، ويطلقون فى قوة ، ذلك اندفاع الخائف ابدا وجبنه ، سقط اثنان من حولى ، ارتميت بسرعة على حافة التل ، وتدحرجت الى أسفل ، كانت هناك عربة مدرعة تتقدم فى اول الطابور ، الحوادث تأخذ وقتا أطول فى روايتها ، أكثر مما تأخذه فى واقعها،العربة مندفعة وخلفها رهط من العربات المصفحة الخفيفة الحركة ، جذبت قنبلة من حزامى ، قضمت فى غيظ امانها ، قذفتها ، شهقت العربة ومالت على جنبها ، دارت دورة وانفجر لهب مجنون من داخلها ، قفز بعض الجنود وهم يصيحون فى وحشية ، كنت قد مللت هذا الصراخ الحيوانى الذى يطلقه الجنود وهم يهاجمون ، دفعات من الرشاش ، سريعة حقود ، سكتت صرخاتهم الى الابد .

دوى انفجار مخزن معدات العدو ، نجحت العملية ، انضمت قوات النسف الينا ، العدو يهاجم فى كثافة وقوة ، الرغبة فى الهرب من الحصار تشدنى ، ولكن نوعا آخر من الرغبات استولى على وجدانى ، دائما نحن لانهاجم ، ندافع ونهرب ، ما الذى يحدث لو أننا الليلة نهاجم ، عددنا قليل ولا يقارن بعددهم ومدرعاتهم ، لايهم ، معركة حقيقية واحدة بيننا وبينهم ، بعدها ينتهى كل شيء ، معركة تقنع ذلك الجندى القادم من حارات باريس ولندن بأنه من الاصوب العودة الى موطنه بدلا من اغتصاب موطن الاخرين ، معركة واحدة نخوضها فى الدفاع ارعن نحو الموت ، لان الشيخ الضرير كان يقول :

— من الرغبة فى الموت ، تأتى الحياة ، ولان ..

سقطت مجموعات من القنابل بجوارنا ولم تنفجر ، العدو لا يهاجم فقط بسربه الهائل من الاوز المدرع ، بل يهاجم بوسائل اخرى ، اشرت على الرجال بالتسلل من الحصار ، مخابىء الارض يعرفونها ، زحف الرجال وتسللوا عبر الانفاق ، بقيت انا وخمسة من الافراد لتغطية التسلل ، رحنا نطلق النار على القوات

المتقدمة ، وقنابلنا تنهال دون ملل ، تصيب مرة وتفشل مرات اخرى ، ولكن تمكن الرجال من الانسحاب جميعا .

علينا نحن ان ندبر وسيلة للهرب من الحصار ، اشرت لثلاثة ان يتقدموا فى صمت عبر ممر كان بين تلين ، فاذا ما عبروا ، وتمركزوا فى الجانب الاخر ، راحوا يقذفون العدو بمجموعة من القنابل ، حتى نمر نحن ايضا ، ولا يبقى بعد ذلك الا مغامرة متابعة الزحف تحت وابل المدفعية .

المعارك ، دائما ، رهيبة ، سواء كان السلاح المستعمل فيها قنابل او صواريخ ، مدافع ثقيلة او خفيفة ، طوب وحجارة او بعض العصي ، رماح او سيوف ، فهي دائما رهيبة ، لانها أخيرا ، ومهما اختلفت الاسلحة المستعملة ، تعنى انتهاء الحياة ، تعنى الموت ، قطعة من شظية قنبلة ، تندفع ساخنة الى الصدر لا تحدث ألما بل نوعا من الخدر اللذيذ يعقبه اللاشيء ، رصاصة من بندقية تركية عتيقة ، تدخل فى نفس المكان تثير خلفها كومة من الدخان ، ثم اللاشيء ايضا ، وهكذا ضربة حجر على الرأس ، تسلل سكين أو خنجر الى مجموعة الخلايا الهشة الطرية التى يتكون منها ذلك الكائن البشرى الغريب ، وبعدها الموت .

تحرك واضرب ، تأكد ان فى داخلك وحشا اكثر شراسة من كل الكائنات الحية ، تمركزنا خلف التل الكبير ، قنابل العدو تنهمر كماء المطر فى ليلة شتاء رأس السنة ، قنابلنا نفذت ، السيل الرفيع من الرصاص الملتهب المندفع من مدافعنا الرشاشة لايصل الى صدور أعدائنا ، لا فائدة منه ، ولكنه يعطى نوعا من الأمان ، أضرب وهذا يكفى ، اصبحنا أربعة ، سقط شهيدان ، قنابل الغاز والدخان تصل الى مخابئنا ، وقعنا فى مصيدة الفار ، الموت الملعون هو موت الجب المخنوق،اضرب واخرج من الجب ، خرجنا تسلقنا مرتفعا وتدحرجنا ثانية ، هواء جديد انعش القلب قليلا تذكرت فتاة جميلة كانت تسكن فى ميدان سعيد فى الاسماعيلية ، عيونها لهب حارق ، ترسلها الى قلبى ، اصرخ من الم اللذة فى صدرى ، أرغب فى امتصاص شفتها السفلى ، استحلب منها رحيق الجسد الناعم البشرة ، جميلة تلك الفتاة ، كانت تدعى .. لا اذكر ، ربما جميلة ، ربما قمر الزمان ، ربما دينا ، ربما رجاء ،

لا يهم الاسم ، الرسم اظرف ، لكزنى رفيقى ،الرصاص نفـــذ ، لا يهم ، اضرب ، لو عادت الايام وعدت الى ميدان سعيـــد باشا ، لذهبت الى ذات العيون الذهبية ، وبادلتهـــا الحب علانيـــة فى الميدان ، ورقصت معها حول التمثال الاخـــرس ، وقصصت عليها أكاذيب العشاق ، جذبنى رفيقى ، ولكنى لا استطيع التحرك ، سمعت نداءات من حولى ، اصوات رفقائى ، احبائى فى الميدان ، مد لى يدك يا يونس ، لا تتركنى أذهب ، أحبائى اننى اهبط الى أسفل ، ادخل فى بئر سحيقة مظلمة ، أسمع مئات الهمســـات الحائرة ، أصوات أحبها ، تنادى ، احاول ان أمد يدى ، أن أقف ، أن أصرخ ، لا أستطيع .

فحيح افعى ، عواء ذئب ، والجو بارد ، اشعر به فى اطرافى كثيرا ، حلقى جاف ، تشابكت المرئيات والاصـــوات ، امتزجت ، تحولت الى صوت واحد لرجل يقول :

ــ الويل لك .

حاولت أن اتبين مصدر الصـــــوت ، ولكنى لم أقدر على الحركة كانت جدران البئر المليئة بالطحالب اللزجـــة تمنعنى من الحركة ، ورجل يعوى كذئب مصاب ، ودودة تسير فوق أهـــداب عينى ، تتراقص ، تتلاعب فى رشاقة ، تتمايل ، كادت تسقـــط فى قاع العين ، تمالكت نفسها واحتفظت بتوازنها ، اقتربت قطـــة شرسة من الدودة ، نظرت اليها فى حذر ، ثم اقتربت منهــــا ، لاكت فمها بلسانها فى شراهة متحفـــزة ، رفعت يدها وأرادت ان تقبض على الدودة ، فشلت وآن غرز مخلبها فى جفونى ، حاولت القطة ان تسحبه ولكنها فشلت أيضا ، ضحكت الدودة وراحت ترقص فوق مخالب القطة ، فوق المخلب الاســير فى جفـــونى ، القطة تبكى من الالم ، الرجل هناك يصيح ، يصرخ على رجل اخر اخرس ، جذبت القطة يدها بقوة ، خرجت اليد بدون مخـــالب ، بقى المخلب مقطوعا فى جفن العين ، سمعت صوتا يأمرنى بالحركة تحركت ، سرت على قدمى شعرت أن جسمى يميل قليلا ، حاولت ان احرك يدى لاحفظ توازنى ، ولكن الصوت امرنى بالـــكف عن الحركة والسير فى صمت ، حاولت ان احرك اصـــابعى ، شعرت بألم هائل فى نصف راسي وكأن شيئا يتمزق داخل عقـــلى ، لم

تستجب اصابعى للامر ، كففت عن المحاولة ، وهـدأ الالم بعض الشيء .

تفـــيرت الارض من تحتى ، شعرت اننى اسير على ارض صلبة ، وبعد قليل اصطدمت قدمى بدرجة سلم ، صاح صوت :
ــ قف .

وقفت ، اردت ان افتح عينى بقوة ، ولكنى لم ار سوى ظلام وسادت روح اليأس فى نفسي ، كنت أود فقط ان اعرف من انا أو ماذا افعل ؟ ولكن دون جدوى ، امر الصوت ان نصعد سلمـــا ، وبدانا نرتقى السلم ، بضع درجات بصعوبة بالغة ، ثم امرنا الصوت بالسير يمينا ، وبعد عدة خطوات أمرنا بالسير يسارا ، وخطوت أربع خطوات ، خيل الى اننى ادخل سردابا ، وخيل الى ان هناك بابا أغلق وان هناك اصواتا غريبة ، تعثـــرت قـــدمى فى شيء ما وسقطت على الارض ، سرت فى بدنى برودة شـــديدة ، كأن الارض مغطاة بالجليد ، ومر وقت وانا لا اعـــرف اين انا ، والالم يمزق راسي وانحدر الى احشائى ، يدى مخـــدرة فى الم ابدى ،

عقلى يدور فى فراغ ، وتتلاحم صور خبيثة ، ولا استطيع التفكير فى شيء ، وكلما حاولت تركيز تفكيرى تسرب ، تحت ضغط الالم الهائل ، الى تخيلات مبهمة .

لا ادرى لماذا امتلأ خيالى بالثعـــابين والحيـــات والذئاب وافراس النهر والكلاب المتوحشة وحيوانات لا شكل لها ، ورءوس مقطوعة ، وقطع من الجبن ، وزجاجات ماء ، وقرص شمس يجرى على الارض يتدحرج على التل ثم يسقط فى بئر ، فتظلم الدنيـــا تماما ، ويأتى كلب أجرب يحمل فى فمه لقمة ، لو انه اعطـــانى قطعة .

السماء لونها اخضر وعلى حوافها اشجار الفـــول الاخضر تتدلى قرونه ملآى بالحبوب ، واستطال جسدى حتى لمس السماء .. ولكن قرون الفول تفتحت وسقطت منها حبات الفول ، حاولت ان اعود بجسدى من السماء ولكنه ظل يستطيل الى اعلى .

سمعت بابا يفتح ، واقدام البعض تدق الارض بعنف وداروا حولى ، ثم عادوا وعاد الباب يغلق من جديد ، وبعدها لا ادرى

كم مكثت فى هذه الحالة ، لا اذكر شيئا ولا اريد ، وكلما حاولت التذكر احسست بألم هائل فى راسي ، ودوار ، كل ما اذكره ان الالم كان رهيبا .. نوع من الانحلال يدب فى جسمى ، مئـات الديدان والسوس تأكل فى احشائى ، مئات من الخيالات المزعجة ، وكأن آلافا من الافاعى تهاجمنى ، واقترب اسد كسيح يسير على مساند خشبية ذات عجلات صغـيرة ، واقترب حتى لامست انفاسه وجهى ثم مد يده واخذ قطعة من لحم كتفى ، واكلهـا ، ونظرت فاذا عظم كتفى بارز عارى ، وبعدها أخذ قطعة اخرى من الكتف الثانية ثم اقترب من الراس وقضمهـا ، تدحرجت الراس داخل فمه ثم احسست بألم هائل ، وبعدها لم اعد اشعر بشيء .

تقدم الرجـل ورفع الرباط عن عينى ، فزاد الالم ، وبدت عينى كأنهما ملتصقتان ولا يمكن فتحهما ، وشعرت بالنور يتسلل الى وجهى ، ورايت اسلاكا من الوهج ونقطا من الضـوء ، ثم غطى المكان لهب احمر ، وبعدها ، استطعت أن ارى ما حـولى ، حجرة كئيبة ، بعض المقاعد الخشبية ، لاتوجـد نوافذ ، أمامى مائدة ، ورجل يبدو طبيا ، سمينا الى درجـة الترهل ، ابيض الوجه ، تقدم منى وقال :

ــ لقد انقذناك من الموت .

ودهشت ، وراحت آلاف الاسئلة تطوف برأسي ، من انا ؟ ومن يكون هذا الرجل ؟ وأين انا ؟ ومن هؤلاء الذين انقـذونى وكيف ؟

عاد الرجل السمين ، يقول :

ــ تركك زملاؤك لتموت وهربوا ..

نظرت الى الرجل الابيض السمين الى درجـة الترهـل فى دهشة ، ولكنه قال فى اصرار :

ــ لقد خانوك .

زملائى !! واصل الرجل حديثه فى حنان ظاهرى :

— كم عمرك ؟ انك تبدو فى مثل عمر ابنى ، تماما مثل عمر ابنى ، انه يعمل استاذا . .

شعرت بأننى فى حاجة للحديث ، مجرد رغبـــة فى ان احرك لسانى فسألته :

— ابنك من ؟

ابتسم الرجل ، وتناول علبة البسكويت وفتحها فى هـدوء ثم اخذ واحدة وراح يقضمها ، فى رقة وتلذذ ، اصدر فمه صوتا خشنا ، ابتلعها وقال :

— ابنى (سام) ، انه يعمل استاذا فى أكبر جامعات امريكا وانتدب اخيرا مستشارا فى البيت الابيض .

الكلمات فقدت مدلولها الحقيقى ، تحركات شفـــاه هذا الرجل السمين ترسم لوحة بلهاء ، الامور غريبة ، متشـــابكة ، تبدو عسيرة الفهم ، واصل الرجل قضم قطع البسكويت . .

— تصور ان الرئيس لا يفعل شيئا قبل ان يستشيره !!

انا لا يهمنى ابنه ولا رئيســـه ، لا البيت الابيض ولا من يسكن البيت الابيض ، الذى يهمنى ان اعرف من هـذا الرجل ؟ بل من أنا ؟ انتابنى أشد حالات الهياج الداخلى ، أريد ان أحدد موقفى وموقف هذا الرجـــل السمين ، ولـكنى اشعر بالارهاق والالم ، ولا أقدر على التفكير ، عاد الرجل يقول :

— كانت حفلة رائعة ، حضرها منـدوب الملك وكثـــير من الشخصيات الهامة .

وضحك فى سعادة وفخر ، انتهى من علبة البسكويت وقذف بالورق الفارغ ، وقال وهو يهدهد بطنه المتدلية :

— كان الطعام بكميات هائلة . .

أحسست بلهفة شديدة للطعـام ، كنت جائعـــا ، بل اكاد أموت من الجوع ، قلت صائحا :

— انا جائع .

وكأنه لم يسمع ما قلت ، واصل حديثه فى نفس الحماس والسعادة ..

ــ والشراب ايضا ، الطعام والشراب ، كميات هائلة بدون حساب ، ان دولتنا تملك كل شيء الطعام والشراب والحب ..

اخفض الرجل صوته ، وسألنى :

ــ هل أقول لك سرا ؟

قلت فى ضعف :

ــ ولكنى جائع .

اقترب منى وهمس فى اذنى قائلا :

ــ لقد كان مندوب الملك هنا ليتفاوض معنا بشأن ما ترسله دولتنا من الطعام .. واشياء أخرى ..

لقمة واحدة فقط ارجوكم ، لقد نسيت آخر مرة أكلت فيها ، ربما لم أكن من قبل اشعر برغبتى فى الطعام ، ولكنى الان جائع وكأن وحشا فى امعائى يأكلها ، لو اننى تمكنت من لقمة واحدة .

عاد الرجل يهمس فى اذنى :

ــ انه ملك المسلمين وطاعته واجبة على كل مسلم لانه ولى الامر ، انا شخصيا أطيعه ومن أجل هذا ..

صمت الرجل وراح يعبث فى ادراج المائدة ، ثم تناول علبة بسكويت اخرى ، ومد يده ليقدمها لى وهو يقول :

ــ انت مثل ابنى ، ولن أدعهم يذبحوك ، وسأدافع عنك .

اخذت علبة البسكويت ، وبدأت اتناول واحدة ، ولكن جنديان جاءا واخذانى الى غرفة صغيرة دون ان آكل شيئا .

يبدو انها نفس المكان الذى كنت فيه من قبل ، ولاول مرة أرى المكان حجرة صغيرة قذرة للغاية بها ماء يرتفع ويغطى القدم ، نافذة ضيقة فى أعلا الجدار ، تركنى الجنود واغلقوا الباب .

تخبطت فى الجدار اثر دفع احد الجنــود لى وهـــو يغلق الباب ، ترنحت قليلا ثم سقطت على الارض ، حـــاولت ان اقف ولم استطع ، نظرت فاذا بيدى اليمنى مقطوعة ، الحقيقة الرهيبة غطت على عقلى ..

يدى اليمنى مقطوعة ..

يدى اليمنى قطعوها الكلاب ، واسير فى معتقـــل مخنوق حقائق الموقف مثل شهب الليل ، الاشياء اكثر حـــرارة حينمـا تعرفها ، الامور بدات تتضح الان ، تبخرت سحب الدخان ، ظهر الرجل السمين الحنون المظهر مثل حية رقطاء جميلة المظهـــر ، مميتة السم ، ملعون ذلك الجبان .

الجوع يحط من قدر الانسان ، يجعله حيوانا يتشمم رائحة عفن الخبز ، والحجرة قذرة ضيقة ، حاولت الحـركة ، تذكرت يدى ، يدى اليمنى حيث مقتل الرجل ، يحمل سلاحه وخبزه ، تصله بالعالم تربطه بما حوله ، يعيش بها ، كيف يقـــاتل عنترة بدون سيف ، لان السيف تحمله قبضـــة رجل ، والقبضـــة ضاعت ، والويل لك يا عنترة ، الويل لك من الكلاب .

حاولت ان اصرخ ، ولكنى لم اقدر ، والجوع ينهش امعائى وددت لو احطم راسي فى الحائط ، أرقد على الارض فى الماء القذر ، الصق بطنى بالجدار ناظرا الى السقف ، لو .. ولكننى لم اتحرك ، ظللت جالسا فى بلاهة ، ولا ادرى كم مر على من الوقت على هذه الحالة .

ومرة اخرى اخذونى حيث يوجد الرجـــل السمـــــين ، واجلسونى امامه ، ران صمت طويل قطعه الرجل فجـــــاة وهو يقول :

— نحن نساعدكم

— ..

— تبدو هادئا اليوم ، هل نمت جيدا ؟

— ....

— يبدو ذلك ، ولكن ..

كنت انتظر أن يعطينى علبة البسكويت ، ولكنه وقف بجسده المترهل ومال على المائدة وقال هامسا :

ــ انهم دائما يطلبون لحوما والبانا معلبة واشياء اخــرى كثيرة جدا ، ونحن نرسل لهم كل شيء ، نحن معكم .

ــ ...

ــ الا ترى ذلك ؟

ــ ..

ــ حسنا يا بنى ، لقد قلت لهم انك شاب طيب ، كنت على حق فى ذلك ، تبدو عليك الطيبة بالفعل وستفعل ما يطلب منــك تماما ، اليس هذا صحيحا ؟

ــ ...

ــ نعم ، ماذا تقول ؟ بالفعل انت على حق ، يبدو أن الفترة الطويلة التى قضيتها هنا ، وخاصة فترة مرضــك ، جعلتــك جاهلا بما حدث ولم تعلم بتطور الامور .

ــ ....

ــ ابدا لقد انتهى الامر ، اصبحنا اصدقاء الآن ، احبــاء ، اولاد عم ، نساعدكم ، فنحن كما تعلم اكثر تطورا وعلما ، كمــا اننا أولاد عم ، اليس كذلك ؟

ــ ....

ــ بالفعل ، والان قل لى يا بنى ، ما عددكم فى ســوريا ؟ اقصد كم كان عددكم ..؟

عبث بالصندوق الملىء بالبسكويت أمام عينى ، تظــاهرت بالعمى ، اقراص البسكويت المستديرة تتدحرج امام عينى ، تمثل لى طبقا من الطعام الشهى ، قلت اجــرب استخــدام فمى فى الحديث :

ــ لا اعرف . من تقصد ؟

— المخربون ..

— لا اعرف .

ابتسم فى سعادة ، والتهم فى لقمة واحدة مجمــوعة من اقراص البسكويت ، ملعون هذا الرجل السمين ، أننى أحب ان الهو بعينيه ، اضع اصبعى فى بلعومه ، طافت فى راسي ذكرى احد الرفاق ، كان شهما وجريئا ، وكان يقول ، دائما ، كلمات ليست لها معنى ، ولكنه كان بطلا فى المعركة ، ولا يتكلم ..

ابتسم الرجل السمين فى خبث ، وقال :

— لا يهم ، لم يعد الامر مهما الان ، لم نعد اعداء وضع علبة البسكويت فى جيبه ، وقال :

— أنت متعب الان ، يجب ان تستريح .

اعادونى الى الغرفة اللعينة ، والجوع يهزنى ، يهز آدميتى ، ولكنى أصبحت أكثر ثبـــاتا الان ، تيقنت من وجـــودى بدات بدات افهم اشياء لم اكن افهمها من قبل ، وفكرت فى طريقـــة للخلاص .

بدات اشعة الفجر تدخل من النافذة الصغيرة ، وعصفور يشقشق فى مرح يقف على حرف النافذة برهة ثم يطير الى الفضاء ، واشعر انه لا يعود ، وتمضي اللحظات وانا فى انتظاره ، انه كائن حر طليق يغنى بحرية ، ويعود العصفور ثانية يلعب معى لعبة الترقب والانتظار ، يطير الى الفضاء لحظات ويعود ليقف لحظات اخرى فوق النافذة يفرد لحنا عصفوريا متقطعا ، ربما يغنى للسماء ، وربما يغنى لمحبوبته ، وربما لا يغنى ، يبكى ، نعم انه يبكى ، هذا جائز جدا ، فالعصافير ، لكونها كائنات رقيقة ضعيفة ، فهى دائما مهددة بخطر ما ، ولا شك انها خائفة دائما ، هلعة دائما ، والخائف لا يغنى انما يبكى ، هذا اكثر اتساقا مع وضع العصافير .

العصفور يغنى ، يغرد ، يبكى وهذا محتمل ، افكر فى اللاشيء ، العالم قد انتهى ، وصار ما حولى عدما ، الموت لا معنى له ، يدى المبتورة صارت مثل عود حطب جاف ولم تعد قادرة على فعل شيء ، لم اعد اهتم بما يجرى فى الخارج ، اعتقد انهم اغبياء لانهم يحتفظون بى ، لست ذا نفع لهم بل اكلفهم نفقات الحراسة ورغيف الخبز وكوب الماء اليومى ، حتى هياجى تخليت عنه ، فقد معناه ، لم يعد يهم احدا ، الرجل السمين لم

بعد يقابلني ويقص على ما جرى مع الملك وعن ابنه ميمون الطالع المستشار فى البيت الابيض ، ويبدو انه نسي وجودى ولم اعد ذا اهمية .

كانوا فى الايام السابقة ، لا اذكر تحديدها ولا أريد ، ياتون ويسألون ويقولون كلاما ، وانا اصرخ واصيح واهتز فى عصبية من لذعات الحقن واسلاك الكهرباء ، ثم اعود الى غرفتى ، غرفة الاسر ، مهيض الجناح جائعا وبى رغبة فى القىء ، وجرح يدى يعذبنى .

ويأتون فى اليوم التالى ويسألون ، يعطوننى شرابا مرا ، ينعشنى الشراب ويجعلنى أتذكر اشياء كثيرة ، ويسألون ، واشعر بالرغبة فى الاجابة ، وينبض قلبى بشدة ، ويظهر فى الافق البعيد ، بشارة رفيقى فى عملية نسف ابراج محطة الكهرباء ، ويسقط بشارة قل شيئا ، هل انت .. ذهب بشارة ، صعد الى السماء ، جلس مع الرب ، قصة الشهيد الموجود ابدا ، لا ، بشارة قف اتكلم ، لا تتركنى ، ما هذا الذى تقوله يا رجل ، ستعد معنا ، جريحا وستشفى هناك فى المغارة ، ويصيبنى الدوار ، لا اريد ان أتكلم ، لا أريد ، ويحقنوننى بمادة زرقاء اللون ، اشعر بالالم يمزق نصف راسي ، لا لن أتكلم عرفت معنى المقاومة ، مهما تعددت هذه الحقن والاشربة لن تقدروا على الوصول الى ذلك المكان من العقل البشرى ، وأقاوم كل شيء ، حتى الذكريات ، حينما تطفو على سطح عقلى ، ارفضها ، والعرق يبلل جبهتى ، ولسانى جاف ، والعذاب ليس له مقياس ، وكلما ازداد العذاب كلما تضاءل الاحساس به .

جاءوا برجل وقالوا : هذا طبيب دعه يراك ..

نظر الى الطبيب ، وقال :

ـ كلب .

وانت أيضا ، قلت ذلك فى نفسي ، كنت اود ان اسبه ، راح يعمل فى ذراعى فى صمت ، أضاف الى آلامى بعضا اخر لمدة من

الوقت ، بعدها احسست براحة بعد ذلك ولم يعـــد يفوح منها رائحة نتنه .

أصبحت على علم كبير بتأثير هـذه الاشربة والحقن ، كنت أحيانا انتظرها ، انتظر اخذها ، رغم ما تسببه لى من آلام رهيبة، بفارغ الصبر ، ويتحول الالم لذة ، لذة الالم نفسه ، وربما لذة العناد ، يبدو ان هناك نوعا من التقارب نشأ فى نفسي بين المقاومة وتأثير هذه الانواع من الحقن والاشربة ، وخلق هـــذا نوعا من اللذة .

وفى ذات يوم قادنى جندى الى خارج الغـــرفة ، ثم الى خارج المبنى كله ، شعرت بنوع من الخوف ، واحسست ببرودة فى أطرافى ، تصورت مقصـــلة ثورة باريس ، قطعـــة من الصلب تسقط فجأة على العنق تماما ، تنفصل الاشياء ، ويتحول الكل الى العديد من الاجزاء ، وتحول الجزء الى العديد من الخـــلايا المليونية ، وتتحـــول الخـــلايا الى ذرات كربونية غير مرئية ، تنذثر الاشياء وتصير النهاية ، النهاية للشكل الواحد ، ليبدأ من جديد شكل آخر . ركبنا سيارة زرقاء ، عرفت تراب بلدى ، احسست بنشوة جددت الدماء فى وجهى ، توارى الخوف ، عادت الاجزاء الى واحد ، رأيت شجر الزيتون ، انبثق داخلى غنـــاء قديم ، بلدى ، أرضي ، وكلمات أخرى تدفقت عبر الاذن مندفعة من ماضي لا اذكره جيدا ، ولكنى احمله ، لكزنى جندى بجوارى ، انسحق الماضي وانقطع الغناء ، الجندى يلوك شيئا فى فمـــه ، لعنته ، لم تخرج اللعنة عن حدود الحلقوم ، وضـــع على عينى عصابة سوداء ، اختلطت الاشكال وصارت لهبا مجنون الالوان .

مرت ساعة أو يزيد ، وتوقفت السيارة ، أمرونا بالنزول ، قادونى الى مبنى ، احسست بجدرانه قبـــل ان اراه ، سمعت صوتى ينطلق دون ارادتى ، وسألت :

— اين انا ؟

رجع الصوت دون جواب ، رفعوا العصابة عن عينى وتدفق النور الخجول ، سيدات فى رداء ابيض ، وجوههن بيضاء ، حقا الذى يغير شكل المرأة هو ذلك العالم الغريب الذى تخلقه حولهـا

نظرات الرجال ، اقتربت احداهن وغرزت فى ساعدى حقنة ، يدها ناعمة الملمس ، رقيقة ، استدارت وتركتنى اريح نظراتى المتعبة على ظهرها ، انزلقت نظراتى حتى لامست الارداف ، جميلة تلك الخلفية لامرأة صغيرة ، تكورت الارداف وانفلتت هاربة داخل حجرة وسقطت نظراتى على ارض المكان ، مستطيلات بلهاء من البلاط ، مسطح من الصمت الاحمر لامعنى له ، بجواره مساحة أخرى من اللون الاسود المزيف ، انفتح الباب وتقدم منى رجل نحيف طويل القامة ، تفحصنى باهتمام لحظة وذهب ،عادت المرأة الاولى ، وعادت نظراتى تتصفح الوجه الابيض ، لا اذكر منذ متى رأيت النساء ، لاشك ان هذه المرأة الصغيرة الدقيقة الملامح جميلة ، راعنى الصدر البارز فى تواضع ، سقطت نظراتى فجأة فى منطقة ما تحت الوسط ، كانت المرأة تضع على رأسي بعض الاسلاك ، لم يكن بينى وبين استدارة تلك المنطقة سوى بضعة سنتيمترات ، لم تستطع تثبيت الاسلاك جيدا ، اقتربت أكثر ولم استطع التنفس ، انغرز أنفى فى المنطقة اللينة من أسفل بطنها ، خنقتنى اللذة ، تألمت ، شعرت انه لا فرق بين اللذة والالم ، الامر يبدو نسبيا ، ازدادت المرأة اقترابا وانهماكا فيما تفعله ، ازداد لدى الشعور بالاختناق ، حرارة جسدها مرتفعة ، تصبب منى العرق بغزارة ، واخيرا تحررت ، ابتعدت المرأة ، واستدارت ، كنت مشغولا بحريتى ، اخذت أتنفس بحرية وفكرت فى الوقوف ، شدتنى الاسلاك المثبتة فى قسوة ، وتركت هذه المحاولةألما هائلا فى رأسي ، لقد قيدتنى هذه المرأة الملعونة .

أحاطونى وراحوا يمطروننى باسئلة لا معنى لها ، لم أجب كانت تجربة المرأة سببا فى ذلك ، سجلوا اهتزازات الاسلاك واعطونى مزيدا من الحقن ، ولكنى لم أتكلم ، وكانت لعبة الصمت هذه تعجبنى وتعطينى بعض السعادة الممزوجة بالألم .

وعدنا فى ذلك اليوم بنفس السيارة ، وبعدها لم يسألنى احد وتتكرر صورة كل يوم ، يأتى الجندى فى الصباح ويقذف الى برغيف خبز اسود ويضع كوبا من الماء بجوار الباب وهو خائف ومرتبك وينظر الى فى ريبة وحذر ، ثم لا يعود الا فى اليوم التالى وكان هذا الجندى هو الشخص الوحيد الذى أراه ، وانظر الى عينيه أجده حزينا خائفا دائما وكان هناك ما يحزنه دائما

ويخاف منه ، تكسو ملامحه علامات الحزن القاسي ، داخلنى نوع من الشفقة عليه ، وراودتنى نفسي ان أسأله عمـا به ، ولكنى لم افعل ، كنت كسولا .

فى أحد الايام تقدم الجندى من الباب ليضـع كوب الماء ، ولكنه تعثر فسقط الكوب من يده وسال الماء على الارض ، بدت ملامحه وهو ساقط على الارض مثل حبة تفاح فاسدة ، متقلصة مذعورة خائفة ، نظرت اليه وانا قابع فى ركن الزنزانة فى اشفاق ، لم تكن بى رغبة للسخرية منه ، قام الجندى فى ارتباك وهو يلعن كل الاشياء ، ثم حملق فى وجهى ، بعـد أن وقف ، وقذفنى بالرغيف الاسود وبصاقه واغلق الباب بسرعة واختفى .

ظللت طول اليوم بدون ماء ، جلست امضغ قطع الخبز فى بلادة وخمول ، خيل الى اننى تحولت الى بقـرة ، والجسد نترهل ، والاصابع تتحد وتتثاقل ، وتتحول الى حوافر خشنة لبقرة عجوز ، رقدت على الارض واخذت احك اذنى بحـوافرى الخلفية واهش الذباب بذيلى ، وسيل من اللعاب ينسـاب على صدرى ، صدر البقرة ، ورائحة عفنة تفوح من الارض .

وعاد الجندى فى اليوم التـالى ، قـذفنى برغيف الخبز اليومى ، وقال :

— أنا لم أر من هو اغبى منك !!

ولكونى بقرة لم أرد عليه ، تمـددت على راحتى على أرض الحظيرة ، قال الجندى فى حدة :

— لماذا لم يقتلوك حتى الان ؟ او تقتل نفسك فتريحنى ؟

وتصورت عدة طلقات من رصاص مسدس جيب صفير تشق الهواء لتستقر فى صدرى ، أو حبلا غليظا يلتف حـول رقبتى ويضيق ثم يضيق حتى أموت ، ولكنى لم اتحرك ولم اجب بشيء ، اغتاظ الجندى من نفسه ، وسكب الماء بقدمه امامى وهو يقول :

— سأحرمك اليوم ايضا من الماء .

وانصرف بغضب ، نظرت الى الماء المسكوب فى لامبـالاة ، غير مهم لست راغبا فى الشرب ولا اشعر بالعطش ، بعـد قليل

ستمطر السماء، وتملأ الارض انهارا من ماء السماء العسلى المقدس ، وجلست فى انتظار مطر السماء .

حينما جاء الليل احسست انني اختنق واود التخلص من جسدى ، تلهفت على نقطة ماء واحدة ، ووددت لو انني اصرخ فى ضمير ذلك الجندى الحزين ابدا ، ولكنى تراجعت فلن يسمع ندائى احد ، لانه هنا لا يوجد ضمير ، لا يوجد ، القحط فى داخل النفوس وخارجها ، انفجر داخلى شريان الانسان المعذب ، وحيدا تأكله نيران الرغبات الحيوانية لحيوان الغاب المجروح ، وامتلأ الجو حولى بفقعات من ضباب ، وقطرات من الندى ، رحت الهث وأنا أحاول امتلاك نقطة واحدة ، ولكن القطرات تتساقط فى كفى لتنزلق سريعا على الارض ، افتح فمى وارفع رأسى ، ولكن لافائدة لا من نقطة واحدة تسقط فيه ، اندفع محنيا على الارض ولكنها جافة خشنة تزيد من التهاب لسانى ، وقطرات الماء تزداد حتى تصبح سيلا منهمرا ، وادور بجسدى فى محاولة للحصول على بعض هذا السيل ، ولكن لافائدة ، لا يدى ولا فمى ، ولا أية وسيلة يمكننى بها الامساك بنقطة ماء واحدة .

كل شيء ينقضي ، يمر ويذهب ، الدائرة لها نقطة نهاية ، هكذا يقول الفلاسفة ، ليس هكذا تماما ، ولكنهم يقولون مايشبه ذلك ، وانقضي الليل ، وجاء الصباح ، وكنت احيانا اعتقد أن الصباح لن يأتى ابدا ، وجاء الصباح ودخل الجندى فى حذر ، كان فى نيتى ان اقتله ، أن أهجم عليه وامتص دمه ، وضع الرغيف اليومى الاسود اللون والطالع وضعه فى صمت وترقب ، احجمت عن التعرض له ، كانت البقرة ، تخيل اننى بقرة ، استولى على مرة اخرى ، نظرت اليه ، فقط ، فى غضب ، أغلق الباب بعنف وهرب .

ومضت عدة أيام وكان يأتى فى صمت وينصرف فى صمت ، ينظر كل منا الى الآخر فى شراسة وحذر ، احيانا كان يبدو عليه أنه انسان مثلى وضع فى مكان غير مناسب وانه يود أن يجلس فى استرخاء على وسادة ويمدد قدميه ، ويدخن غليونه ، أو يشرب كوبا من الشاى ، ويضحك وهو يداعب أحد الغلمان ، واحيانا اتصوره قردا يتصرف تبعا لاوامر سيده ، العب يا ميمون ، يلعب

الميمون ، كيف تنام العجوز ، حسنا هـــكذا ، ارنا كيف يكون العاشق ؟ العب يا ميمون ، ارنا كيف تقتـــل كيف تسرق كيف تغتال ؟ وايضا كيف تكذب ؟

عظيم يا ميمون ، احسنت دورك ، ارنا كيف يأكل الكلاب ؟ ويلعب الميمون ، لا يفهم ولا يريد ان يفهم لماذا يلعب ولماذا لا يلعب سيده ايضا ؟

فى الصباح ، صباح احد الايام ، قال الجندى :

ـ اسمع يا هذا ، سوف استريح من وجهك القذر ، لقـد امروا بنقلى الى معسكر اخر .

قلت فى ضيق :

ـ لا بد ان هذا راجع الى سوء سلوكك .

انتفض فى غضب ثائر ، رفع بندقيته وضربنى بشـــدة ، اصابت الضربة كتفى ، ايقظتنى ، دفعت جسدى بعيدا ، اشتدت ثورته ودفعتى فى صدرى بكعب البندقية عـــدة مرات ، سقطت على الارض لاهث الانفاس ، حاول ان يدوسنى بقـــدمه ، لمحت اربطة الحذاء امام عينى ، تذكرت ، نقطة ماء من هـذا الابليس ، جذبت القدم بفمى ، سقط مثل عود الحطب ، وضعت قـــدمى اليسرى على فكه وضغطت ، انتفض جسده بشدة ، جـــذبت البندقية بيدى السليمة ، اصطدمت رأسه بالارض الصلبـــة ، تقلصت عضلاته فى تشنج زدت من ضغط قدمى ، هدأ جسده ، وحينما رفعت قدمى كان قد مات .

فى لحظة كنت قد استبدلت ملابسه بمـــلابسى ، انطلقت خارجا ، ليس فى ذهنى تصور لخطة محددة ، ولكن كان فى داخلى ثورة انسان يود أن يموت فى حركة نضال عن حيـــاته ، اغلقت الباب كما اعتاد الجندى ان يغلقه ، تشدقت ببعض الكلمـــات العبرية البذيئة ، وضعت كم يدى المبتـــورة فى جيبى ، مشيت ووضعت البندقية على كتفى ، حيانى بعض الجنود بكلمات قصيرة ولم ارد ، درت حول المكان ، كان بالخلف دورة مياه وبعـــدها بعدة خطوات سور من الحجر يبدو عليه القدم والتهدم ، خطوت

عدة خطوات احتضنت المكان كله فى نظرة واحدة ، ارتفعت المرارة فى فمى ، لقد كنت سجينا فى بيت قديم متهدم ، ومن المفروض ان اموت هنا مثل الجرذان ، ومجموعة من الجند يلهون بكرة بيضاء ، يتلقفونها فى سرعة ومرح ، تحركت محاولا ان اعيد الى نفسي الاحساس بالخطر اننى اتعرض للموت الان فى كل لحظة ، وهى لاشك آتية لا ريب ، ولكنها لحظة سعيدة ان يموت الانسان وهو يناضل .

ارتفع صوت ينادينى بالعربية ، لهجة أهل المغرب وتوقفت وإنا اتظاهر بالنظر الى الحائط وكأننى اترقب حركة ماحتىلايرانى صاحب الصوت مباشرة ، صاح الصوت من خلفى :

— الى اين انت ذاهب ؟

لم ارد ، حاولت ان اتذكر كيف انطق مثل لهجته ، سبنى بكلمة قاسية ثم قال :

— انت ذاهب بعد ان سحبتنى الى هنا ، انت السبب فى كل هذا البلاء ، ملعون . .

لم ارد ، وعاد هو يقول :

— مجد الرب !! من قال لك ان هذه الارض وحدها هى ارض الرب ؟ وبقية العالم ارض الشيطان ؟!

ضحك فى سخرية ودفعنى فى ظهرى بقوة ، شعرت ببعض الدوار ولكنى تماسكت ، ووقفت صامتا انظر الى الحائط ، عاد يقول :

— يقولون انك مصاب فى عقلك وسينقلونك من هنا الى فرقة الزراعة ، ستكون هناك اسعد حالا ، تصور . .

ستكون عاملا فى مزرعة . .!!

المجد للرب !!

وقفت حائرا ، هذا الجندى الثرثار ، يبدو انه صديق الآخر ومن نفس الوطن ، راح يسب فى ضيق ، استدار اخيرا وهو يقول :

- لن اراك بعد الان ، الوداع يا صديقى ، تذكر وانت راقد فى سريرك انك انت السبب فى كل هذا ، تذكر .

مضي الجندى الثرثار وهو يضحك . قفزت فوق السـور وتخطيته ، وجدت نفسي فى حقل ، راودتنى الرغبـة فى النوم ، تذكرت الجندى المقتول ، وتذكرت البحث المجنون ، اندفعت باقصى سرعتى ، وكان همى البحث عن مخبأ .

مضي الوقت وشعرت بارهاق ، كنت قد وصلت الى ارض رملية ، خضت فى الرمال دون هدف ، لاحظت عدة حفـائر فى الرمال ، يبدو انها منطقة عمل او ابحاث تنقيب يبدو انهم يبحثون عن شيء ما ، ربما عن تاريخ لا يعرفونه او حلما فقد من أحدهم ، وصلت الى تل مرتفع قليلا ، صعـدت التل ، كبلنى الارهاق والجوع ، صنعت لنفسي حفرة وسط مجموعة من النبـاتات الرملية النامية قليلا والتى تتوسط التل ، ورقـدت ، وضعت سلاحى فى وضع استعداد وتمددت مترقبـا فى توتر ، وكانت بى حاجة الى الراحة حتى يهبط الظلام .

الوقت يمضي ، يبدو اننى غفوت بعض الوقت ، تنبهت على اشعة الشمس تميل نحو المغيب ، تسرب البـرد الى جسمى تحسست بكف يدى حبات الرمال الباردة ، حنون وحزين هـذا الرمل الناعم ، لمست يدى ساق نبات اخضر خشن ، جـذبت الساق الذى تحطم فى يدى ، قربت السـاق المحطم من فمى فى تردد ، لاطعم له ، مضغته ، زاد جفاف فمى وحلقى ، بصقته فى ضيق ، شعرت بالتهاب حاد فى لسانى .

وفجاة رايت شبحا قادما لرجل وحيد ، تنبهت حـواسي للخطر تناسيت الى ، وضعت مؤخرة البندقية فى كتفى واصابعى على الزناد ، لم اكن قد جربت اطلاق النار بيدى اليسرى ، اقترب الشبح ، اتضحت معالمه رويدا رويدا كلمـا اقترب ، انه يرتدى ملابس تشبه ملابس العمال ، ويحمل لفـافة فى يده ، اقتـرب الرجل واصبح فى مرمى الضرب من بندقيتى ، صحت فيه :

- قف .

وقف الرجل مذعورا رافعا يده وهو يقول :

- ها هو التصريح ياسيدى .

لم افهم ، كان الرجل ضامرا تبدو عليه عـــلامات المرض ، ولكن لهجته ليست غريبة على اذنى ، انها لهجـــة اهلى ، قلت بفرحة ، اخشي التغرير بى :

- ارنى التصريح يارجل .

وتلفت الرجل بحذر ، وقال :

- ولكننى لا اراك ياسيدى ..

- اقترب .

اقترب الرجـــل رافعا يده ، كان بداخلى ، رغم لهجته وصوته ، بعض الشك ، صحت بالعبرية :

- قف مكانك وضع يدك على راسك .

لو كان منهم فسوف يسبب لى متاعب كثيرة ، لابد ان اكون على حذر ، قررت أن اتخلص منه ، وقفت وانا احمل البندقية ، واقترب منه ، كان يرتعد فى خوف حقيقى ، قال فى توسل :

- معى تصريح ياسيدى ، معى تصريح ..

- ارفعه الى أعلى .

بطاقة صفراء عليها صورته ومجموعة اختـــام ، لم أتبين المكتوب جيدا ، ولكن زال بعض الشك .

- قرب يدك يا رجل .

تبينت الكتابة بالعبرية ، تصريح لمدة ليلة واحدة للانتقـــال من قرية الى اخرى ، عربى مقيم فى الارض المحتـــلة ، صحت فى فرح بلهجة أهل البلاد :

- عربى فلسطينى ؟

قال الرجل فى ثقة بنفس اللهجة :

- نعم يا سيدى ، هذه قريتى .

واشار ناحية اليسار ، نظـــرت ولم اتبين شيئا ، ولكنى اخذت احملق فيه ، اشمه ، اشم رائحة بلادى ، المسروق يعرف قرشه من بين كافة القروش المتشابهة ، حقا ، هذا الرجل أعرفه ، ليس حتما أعرفه شخصيا بالاسم ، ولكنى أعرفه واعرف فيـه سمات اهل بلدى ، عدت أسأله مرة أخرى :

ـ حقا انت فلسطينى ؟

هز الرجل راسه علامة الايجاب وتقدم عدة خطوات وقال :

ـ وانت الاخر ، لقد عرفتك .

ابتسمت ، ارتخت يدى ووقفت حائرا ، اخـــذ الرجـل مبادرة الحديث والسؤال :

ـ نعم عرفتك ، واننى اعلم ، كما يعرف اهل القرية كلها ، امورا كثيرة عنك ، ودائما نتحدث عنك ، ولم اكن اصدق نفسي حينما رايتك .

تمدد حبل الثقة بينى وبين الرجل ، طلبت منه ان يجلس معى فى الخندق ، تقدم وجلس بجوارى ، تمـــددت انا فى راحة وكأننى فى بيتى ، نوع من الهدوء شملنى ، قال الرجل :

ـ معى تصريح لزيارة اختى على الحدود ، حصلت عليـــه بعد عام من التسويف والالحاح .

ثم نظر الى الشمس التى مالت بشدة ناحية الغـــروب ، وقال :

ـ يمكننى ان ادلك على الطريق .

ـ لكن . .

وقف وتحرك هابطا التل وهو يقول :

ـ هذه فرصتنا الوحيدة ، اننى اعرف الطريق جيدا .

ويجب ان نسرع .

قفزت خلفه ، انزلقنا على الارض الرملية ، شدنى الرجل

فقد كنت لا اكاد اقوى على السير وعلى وشك السقوط ، ناولنى علبة من التمر كانت معه ، اخذت ابتلع حباته فى شراهة .

كان الرجل ، مع ما يبدو عليـــه من الهزال والمرض سريعا نشطا يسير فى حيوية ، يرقد على الارض ويضع اذنه على الرمال يستمع خطوات الداوريات ثم يقف ويسير بعد ذلك فى ثقة ، وانا أتبعه متعثرا فى خطواتى فيجذبنى اليه ، ويحملنى على السير .

الليل والظلام ونجوم تلمع برهة وتخبو ، وحشرات صغـيرة تلسع الوجه ، والرمال تعوق الاقدام ، والرجل يشدنى ، وينهرنى اذا وقفت وهو يردد :

ــ لقد اقتربنا من الحدود ، تقدم

ــ منذ مدة طويلة وانت تقول هذا .

ونسير عبر وادى الرمال ونتخطاه ، واشعر بأن نهـــــاية العالم قادمة ، وتتراخى خطواتى ولكن الرجل لا يترك لى فرصة الراحة ، يجذبنى اليه ويقول :

ــ لقد اقتربنا ..

ــ وكيف نتخطى الحدود ؟

ــ يساعدنا الله .

الخطر الحقيقى يكمن هنا فى عبور الحدود ، ليس من العدل الانسانى أن اعرضه لنفس الخطر الذى أتعرض له .

ــ اذهب انت يا اخى ، لك اسرة واطفـــال كمـا ان معك تصريحا بالسير ..

ــ لن أتركك .

ــ انا خطر عليك ، انهم يبحثون عنى .

ــ ابدا والله لن ادعك وحدك حتى تعبر الحدود .

ــ صف لى الطريق ، ودعنى فأنا ..

ولم اكمل جملتى فقد جذبنى معه الى الارض ، ودوى طائرة تدور فى السماء فوقنا ، قال الرجل هامسا :

ــ انها داورية ليلية ترقب تسلل الفدائيين .

الفدائيون ، يا له من لفظ جميل ، كلمة موسيقية عــذبة تدفق عبر اذن التعساء فى الارض ..

ــ وهل يتسلل كثيرون من هنا ؟

ــ عمليات الفرق الانتحارية تأتى من هذا الجانب .

ذهبت الطائرة ولم تعد ، جلست أستريح ، هالنى اكتشاف هام ، لم أكن اعرف زميلى تماما ، تنبهت وسألته بلهفة .

عبد الله ، هذا هو اسمه ، فى الخامسة والثلاثين ، يعمل فى مزرعة ، ليس لديه فرصة للراحة ، لا يتركون له فرصة لالتقاط انفاسه ، العمل المرهق تحت ضغط الحاجة والجوع والارهاب ، هذا هو الطريق لكى لا يعطونه فرصة للتفكير فى الامر كله ، الاجر قليل والاسعار مرتفعة جدا ، الفكر مشغول بتــدبير الحــاجات الضرورية لاسرته ، كبلوه بالحياة لكى لايجد وقتا ، ويجدالاخرون هذا الوقت ، ربما تجمعوا وفعلوا شيئا .

يقول عبد الله :

ــ نحن هنا مجرد ارقام ، انظــر التصريح الذى حاولت الحصول عليه منذ عام ، عامل رقم كذا ولكى تنتقل من مكان الى اخر ، مهما كانت المسافة ، لابد من تصريح ومجموعة اجراءات .

ــ واليهود أيضا ؟

ــ معظم اليهود

ــ كيف ؟

اعتدل عبد الله ، نسى لهفته الاولى للعبور ، وقال :

ــ اليهود ، أيضا عبيد هنا ، وخاصة هؤلاء القــادمون من أوربا الشرقية وآسيا وشمال افريقيا ، عبيد لا قيمة لهم .

قلت في سخرية ، وكانت مثل هذه المعلومات تصلنا من عيوننا اثناء عملي قبل الاسر :

— والاخرون ؟

— عبيد ايضا ، انهم افضل درجة — نسبيا — ولكنهم عبيد ايضا .

تدفق عبد الله في الحديث ، وكأن لديه خـــزانا هائلا من الكلمات الحبيسة ، خرافة اليهود والوطن القومي ، ضعف البلاد العربية ، ثرثرة الرجال عندنا ، الخرافة الكبيرة التي نعيشهـا ، واليهود ايضا يعيشون في خرافة ، انهم يعملون لصالح الاخرين في البلاد الاخرى .

سكت بعض الوقت ، ثم قال :

— الخوف ، هو الذي يمسك زمام الامور هنا .
الخوف هو القانون في هذه المستعمرة .

كلمات لها مدلولها من رجل عاش النكبة وما بعـد النكبة ، تمسك بأرضه ولم يبارحها ابدا لانه ربما فهم اللعبـــة كلهـا ، سألته :

— من المستفيد من كل هذا ؟

— المستفيد !! الا تعلم من المستفيد ؟ بعد ان قطعوا يدك ، هؤلاء الذين حاربتهم في القناة اصحاب هذه الاقطاعية التي تسمى دولة ..

— ولكن يا عبد الله ..

— انني اعمل في الحقول وسط اخرين قدموا وهم يحلمون بالمجد والشهرة والثروة ، ولكنهم الان يندمون ، ولكن بعـد فوات الاوان ، لقد وضعوهم امام خط النار ، الخوف ، اقتل دائما او تقتل ، السلام لا يعني لك الا الموت ، انت تعيش وســـط مائة مليون ، احمل السلاح واقتل ولا تتوقف ابدا ، قانون الخوف .

بدانا نتابع السير نحو الحـــدود ، ومضي الوقت وانا اقلب كلمات رفيقى ، انها بعض الحقيقة ، لان الامر كله خدعة كبرى ، حالة من حالات التاريخ الشاذة ، البعض خدع البعض ، ولم يعد الان يمكن التمييز بين الخادع والمخدوع لانهم جميعا اشتركوا فى اللعبة ، لعبة القرن العشرين ، ونحن وحدنا دافعوا ثمن هـذه اللعبة .

ولكن الحقيقة مهما اختلفت اشكال الكلمات ، ومهما تغيرت عبارات الجمل ، فالحقيقة واحدة لا تتغير بتغير الكلمـــات ولا الجمل ، انهم اغتصبوا أرضي وطردوا اهلى وقتلوا اخوتى وشردوا عشيرتى ، ولن ترجع الارض الا معركة مصيرية ضــارية بيننا وبينهم ، نخوضها فى بحور الدم .

ــ ولكننا يجب أن نعود .

ــ حتما .

ــ سنفترق هنا يا رفيقى .

سقطت دمعة من عينى تقابلت مع دمعة رفيقى ، بحر الشوق مثل بحر الغربة يتكونان من قطرات دمع ساخن من عيون محرومة الرؤية العذبة ، ولكن ربما نلتقى يوما ، حتما سنلتقى ..

ــ انظر هذه قرانا فى غرب اردننا العزيز .

لابد ان تتسلل قبل الفجر ..

ــ ....

ــ وجودى معك يجلب لك الضرر ، اذهب الان .

ــ كن على حذر ..

ــ كن على حذر ...

وابتعد ومشيت ، نحو النقطة ..

كان على ان اجازف ، فالارض مكشوفة والتلال منخفضة لا تصلح للتستر خلفها ، وجنود الحدود ، فى مراكز بعيدة ، يراقبون فى تيقظ . ونور الفجـــر يقترب ، والارهاق يسلب ارادتى ، واحســاس بقرب النهاية يجعلنى ، اكثر اضطرابا وقلقا .

وكان على أن أزحف فى حذر وفى جرأة ايضا ، فان كان لى حظ الحياة نجوت وان مت كان هذا أفضل واموت شهيدا ، ولكن يا للهول ، مر برأسي خاطر ، ماذا لو أمسكوا بى وأعادونى حيث كنت لاموت بعد ذلك ميتة كلب اجرب ، اندفعت زاحفا ، الموت فى الحركة أفضل والمغامرة محببة .

والزحف على اليد اليسرى متعب وبطىء ، والارض رطبة ، مبللة ، والرمال تنزلق من كفى ، سراب أتشبث به ، الحياة تدفع الدودة لان تزحف باصرار حتى حافة الحفرة ، ولا تكاد تقترب من القمة حتى تسقط الى القاع فتعاود الصعود مرة أخرى ، ويتكرر سقوطها ، وتتكرر محاولاتها للصعود ، واخيرا تنجـــح الدودة فى ارتقاء القمة وتنظر الى ما بعدها ، حيث الهوة السحيقة بعيــدة الغور ، وقفت حائرة لا تدرى أى مسلك تختـــار ، السقوط فى الهوة أم العودة الى الحفرة التى خلفها ؟ وفى كلتا الحالتين ستموت جوعا أو قتلا !! .

قديما كان يقول العارفون ، فى مثل هذه الاحوال ، ووفقا لكلمات الشيخ الضرير ، ان السقوط افضل الف مرة والمـــوت

قتلا مرة واحدة افضل من المكوث في الحفرة حيث المـــوت على دفعات ، وبما ان الموت هو المصير الحتمى لكل الكائنات الحية ، وحيث ان اللعبة كلها لا تستحق الانتظار ، فالافضـــل بالفعـل ممارسة الموت .

وقررت المجازفة ، وعبرت جهنم ، ربما اجد الجنـــة حيث التمر والليمون ، وحيث تلك الاشياء البديعة التى تفوق النساء جمالا ، تخطيت بعض الاسلاك ، المجد للسماء ، المجد للانســـان ، أعبر الشوك الى حوض الزهور .

الدودة تقدمت فى خطوات حلزونية ، يراقبهـا صقر جائع انقض عليها فى لهفة ، ملعون هذا الصقر الجائع ، التقطهـــا بين فكيه وارتفع بها الى السماء ، وشعرت الدودة بالدوار وتتبـاعد المرئيات امام عينها ، رهيب ذلك المحيط من الفـراغ والصمت ، قطع الصمت صوت طلقة نار ، هوى الصقر من شاهق يولول مثل امرأة حبلى ، تلك طلقة صياد ماهر راى الصقر من كـل هـــذا البعد ، سقط الصقر على الصخور ، صرخ من الالم ، لم يتحكم فى فمه ، سقطت الدودة على جذع شجرة جاف ، ارتطم جسدها اللين بالجذع الخشن ، ويصاب جسد الدودة ، ولكن رغبـــة فى الحياة بقيت فى الجزء السليم من جسدها تزحف به وتصـل الى مرقد آمن فى جذع الشجرة ، ترقد تلملم جسدها المنهوك وتعوى فى الم ، تتحين فرصة مواتية لمواصلة الحياة من جـديد بعد ان تدارى جراحها .

والشجرة لا ثمر فيها ، جافة حزينة ، فروعها مشرعة الى السماء كأيدى اطفال جوعى ، وألم فى فخذى ، احـركه بصعوبة بالغة واجره بقوة ، اسندت راسى وظهرى لجذع شجرة كبـيرة ، شجرة رضوان ، يجلس تحتها ملاك الجنة يقدم للجوعى الطعام ، طعام الابدية ، وللظمآى شراب الفردوس ، ويضع يده على جراح المعذبين ، ويأتى ملاك آخر يحمل فى يده سلال التفاح ، واخرون يدورون حوله بالشموع الموقدة ، يرقصون رقصة الحياة العلوية وطفل يصرخ ويعوى كذئب ، يطلب جرعة من اللبن ، والملاك يطلب منه الصمت والصبر ، ولكن الطفل يعوى فى ضراعة طالبا جـرعة

ماء ، والملاك يعود ليطلب منه الصمت والصبر ولكن الصمت يتخلى عن الطفل ويتركه ، لقد شعر الصمت بالاهانة فيذهب ، والصبر هو الاخر يلم اطرافه من حول الطفل ويحمل اكياسه الناعمة الرقيقة والتى كانت تسند الطفل ويطير بعيدا ، واناء الماء قريب لا يبعد سوى مقدار قبضتين من يده ، ومددت يدى لامسك بالاناء ولكن يدى انغرست فى الرمال وقبضت على رأس حية ميتة قذفتها فى رعب ، وعاد اناء الماء ، من جديد ، تتساقط من حوله قطرات كدموع الرجل الشجاع ، غزيرة براقة صادقة ، ولكن الشيطان يأتى ويسكب الاناء ويريق الماء على الرمال ويصيح فى الطفل طالبا منه الصمت والصبر ، ويغضب الملاك ويصرخ فى الطفل طالبا منه ان لا يسمع كلمات الشيطان ، ويقول الملاك ، أيضا ، انه يجب تعلم الصمت والصبر . والطفل حائر ايهما سيعطيه الماء ليشرب .

ويعاود الطفل البكاء ، انه يطلب جرعة ماء ، ويعود الملاك ليطلب منه الصمت والصبر ، ويرقص الشيطان فى رشاقة حول الطفل ولكنه لا يكف عن البكاء ، فيطلب منه الشيطان الصمت والصبر ، ولكن الملاك ، يخشي على الطفل ، فيسارع ليطلب منه ان لا يسمع كلام الشيطان وأن يتعلم الصمت والصبر ، ويقذف الشيطان بحجر فيحطم رأسه ويصرخ الشيطان من الالم ، وتسيل من رأسه الدماء ، ويبكى الشيطان فى توتر انسانى ، فيتقدم منه الملاك ويطلب منه الصمت والصبر ، ولكن الشيطان يثور ، كرامته تهان شرفه الشيطانى ، سمعة الجدود ، يجب أن ينتقم ، ويقذف الملاك بحجر ، ويصطدم الحجر بجسم الملاك الذى يتحول الى قطع صغيرة ، تجرى فى خوف وهى تبكى فى صوت مكتوم ..

الاقصوصة مازالت تروى ، والبطل غلام فى المهد ما يزال ، المهد نحاس احمر ، ليس ككل الغلمان غلامنا هذا لانه ابن ملاك هبط من السماء الثالثة عشرة ابنة رجل راعى غنم .

ينفجر الماء من نبع قرب الطفل الذى يمهد يده الى النبع ويأخذ حفنة من الماء يدفعها الى فمه ، وتسيل المياه من بين اصابعه وتتساقط على صدره ، وينتفض الطفل فى سعادة ويعود

ليأخذ حفنة اخرى من النبع ، ولكن رجلا ضخما يقف بينـه وبين النبع ويقول :

— يجب ان تذهب بعيدا عن القرية .

يقول العارفون ببواطن الامور ان غلام المهد لم يكن محبوبا من احد ، ويقول العارفون ، ايضا ، ان الخوف حيث منبع كل القوانين هو الذى كان يسيطر على العلاقة الموجودة بين الغـلام والمحيطين به ، وحيث ان الخوف هو العلاقة الطبيعية ، بين كافة الكائنات الحية التى تعيش فى عالمنا هذا والذى لا نعرف ، حتى الآن ، عالما سواه ، فان من الطبيعى ايضا ، كما كان يقول الشيخ الضرير فى الزمن السابق ، ان يتصرف الانسان وفق هذا القانون الطبيعى ، وتأتى تبعا لذلك لعبة الطرد .

— اذا علموا انك لجأت الى هنا فانهم سوف يدمرون القرية كلهـا .

الرجل كان أسمر عريضا طويلا وله لحية سوداء ، تبـدو عليه امارات السلطة .

— أين أنا ؟

سألت الرجل ، لم أفهم ما يدور حولى تمـاما ، لم يجب الرجل بل واصل ماكان يقوله للاخرين :

— المهم ان يسرع بالابتعاد عن هذه الناحية .

وجوده يهددنا بالخطر .

اعترض آخر كان يجلس بجوار رأسي :

— ولكن الاصابة خطيرة و . .

— وتحتاج الى عناية ، وهذا ليس موجودا هنا ويجب . .

— ولكن . .

— فقط من الممكن الانتظار بعض الوقت

— . . . . .

— لا تدعونى أفقد اعصابى ، انه خطر علينا وعلى نفسه .

يبدو ان الرجل يملك عليهم سلطانا ، انساقوا وراءه ، تقدم منى شابان وساعدانى على القيام ، نظرت الى قدمى ، كانت ملفوفة فى ضمادات بيضاء ، لا استطيع السير عليها ، حينما وضعتها وحاولت ، شعرت بالالم ، لاحظت سيدة تقف بمدخل الحجرة قالت :

— احملوه يا شباب ، فهو ما يزال مريضا .

رفعنى احدهما من الجانب الايسر ، والاخر من الجانب الايمن ، خف ثقل جسدى ، استطعت ان احرك قدمى فى صعوبة .

خرجنا من البيت ، وسرنا فى احد الدروب نحو الميدان ، الميدان يبدو من بعيد ، الدرب ضيق ، الجو خانق ، اشعر بالرغبة فى القىء ، احس وكان الهواء يخترق جسدى من كل اتجاه ، ومع هذا اشعر بالاختناق وضيق فى التنفس ، وآلام حادة فى ظهرى ، الرغبة فى الموت ، او الرغبة فى لحظة عدم ، حيث لا تكون مهتما بكل الاشياء ولست مسؤلا عن شىء . الرغبة فى الاختفاء والانزواء والبعد عن كل ما يحيط بالوجود البشرى .

— أين انا ؟

— أنت فى بلدك ، جئنا بك منذ ثلاثة ايام .

— منذ متى ؟

— لقد وجدوك جريحا على الحدود ، فنقلوك الى هنا واحضرنا طبيبا ليراك .

— على الحدود ، كنت جريحا ، فى ساقى ترقد دفعة رشاش .

— نعم .

— والى أين الآن ؟

— نرجو الا تغضب ، منــذ ثلاثة أيام وانت ترقد فى دار الحاج سلام ، ونحن على الحدود مباشرة ، وهم دائمــا يأتون ، يخربون ويدمرون .

تصورت ما حدث ، تتابعت الصور فى سرعة هادرة ، الحدود الرشاشات المجنونة ، دفعة رشاشــات استقرت فى ســاقى ، حملونى جريحا ، نوبات الحمى ، لذعة مــرارة المرض مازالت فى فمى ، وصلنا الى الميدان ، بدات اشعر بالقدرة على الســير ، خطوت فى سرعة ، ولكن الالم ارتفع كالصاروخ الى رأسي ، تمهلت شعرت بضعف يسرى فى جسدى كله .

كنا قد وصلنا الى أول الميدان ، قال الآخر :

— سوف نضعك الان فى سيارة متجهة الى اربد وهنــاك ينتظرك زميل لنا اسمه حسين ومعه الاوراق اللازمة وسوف يقدم لك المعاونة لكى تصل الى عمان .

وساعدانى على الجلوس فى السيارة بجوار النافذة ، ووضعا معى بعض زجاجات الادوية والاربطة ، وجلســا معى حتى تنطلق السيارة .

اردت ان اقول لهما شيئا ، ولكنى لم اقدر ، كنت مرهقا ، محطم الاحساس ، فى حاجة الى اعادة التفكير فى خطط الحيــاة ، ضائعا لا أمل لى ، يخشانى أهلى وابناء وطنى ، كنت اود ان اقول لهما ، كما كان يقول لى الشيخ الضرير حينما كنت اجلس اليــه صامتا حزينا لانى أخشي غضبه من شيء سيء فعلته ، كان الرجل يقول :

— هل أنت خائف بالفعل أم انك تتظاهر بذلك حتى يخف عقابى لك ؟

قال الشاب بعد فترة صمت طويلة :

— نرجو الا تغضب من الحاج سليم .

هززت رأسي علامة النفى ، عاد نفس الشاب يقول :

— اننا على الحدود ، ونحن ..

أشرت اليه بالصمت ، وابتسم الاخر ، وهو يقول :

— كنت تتحدث أثناء مرضك وتقول اشياء غريبة .

وعقب الاخر ، وكانت محركات السيـــارة بدات تدور ، وقال :

— لشد ما قاسيت ، ولكن لا تيأس ، سننتقم لك .

وقفز الشابان ، والسيارة تتحرك ، ثم لوحا لى بأيديهما .

الطريق يبدو طويلا ، والسيارة تهتز فى عنف ، جســـدى يتفكك مع هزات العربة ، يتحلل يصبح اجزاء محطمة ، الركاب من حولى ينظرون الى ، بعضهم يقـــول شيئا كانه يواسينى ، وبعضهم يكتفى بالنظـــر ، وانا أتململ بقـلق فى جلستى ، قص أحدهم قصة هجوم خاطف قام به اليهـــود على مجموعة من المزارعين فى حقل يزرعونه ، خطفوا ثلاثة من الرجال وذبحوا ثلاثة ، .. واصابوا صبيا وامراة بجراح خطيرة ، ابتسم جالس فى الصف الاول وقال بعض الاحكام العامة لا معنى لها ، تشنج شاب يجلس فى مؤخرة العربة وطالب بالثأر ، وافقه بعض الركاب ، لم يستمر الحديث على هذا النحو سوى دقائق ، استوعب الركاب منظرى غير المألوف ، لم اعد مثارا للحديث والنظر ، تحول الحديث الى حلقات صغيرة عن النساء والازياء وكرة القدم .

وصلنا الى المدينة ، توقفت السيارة فى مكان يشبه السوق باعة واصوات عالية ، بعض الصبية يجرون خلف شخص يصرخ ، هبط الركاب ، نظرت الى الشارع ، تقدم منى شاب طيب الملامح وعاوننى على الهبوط من السيارة ، وحمل زميل له ما معى ، ثم ساعدانى فى الوصول الى منزل من دور واحد من طــراز عربى قديم ، دخلت البوابة الرئيسية ولم نقابل احدا ، سرنا فى المدخل برهة ، ثم دلفنا الى حجرة بالداخل واجلسانى على مقعد وثير من طراز قديم ، وشعرت بالراحـة ، وسرى فى جســـدى نوع من الرطوبة شعرت بعدها بالبرودة اسرع احد الشبان واحـــاطنى بالوسائد .

مرت لحظات ، تشممت رائحة المكان الرطبة ، قال احـــد الشبان :

ــ أهلا بك ، سامحنا يا أخي ، سوف تمكث هنا قليــلا من الوقت حتى يمكن تدبير وسيلة لنقلك الى عمان .

عمان ، ماذا افعل في عمان ؟ اريد العودة الى حيث كنت ، خان يونس الباقية ، حيث الصحاب والاحباب ، ولـــكن من بقي منهم حتى اليوم ، من مات ومن عاش ، تلعب معنا الايام لعبـــة غريبة ، نتآكل مثل شاطىء رملي تحت وطأة موج عربيـــد ، الى متى يستمر هذا التآكل ؟ هل يمكن وقفه .

سألني أحد الشبان :

ــ ان كان لك طلبات فنحن سعداء لنؤديها لك .

ــ شكرا .

جميلة تلك اللهجة ، حبيبة الى قلبي ، أخشى ما أخشاه أن تذهب ، تزول ، تصبح مثل نقوش الاجداد .

ــ بماذا تأمر يا أخي ؟

ــ نحن في خدمتك يا أخي .

ــ شكرا .

خرجا ، تركاني وحيدا ، تذكرت حوادث قديمة ، تذكـرت (المندرة) في منزل ابو خريس المهاجر الفلسطيني في الاسماعيلية والجلسة الاسبوعية في داره ، واقداح الشاي الصغيرة المرة ، ثم اقداح اخرى اقل مرارة واكثر حلاوة ، ثم طواجن اللحم والثريد ، ثم حبات البرتقال ، وبعدها القهوة السوداء ولفائف التبـــغ ، ويمتلىء المكان بالضحكات واخبار عفاريت المعسكرات وقنـــابل تنفجر ، وتتطاير الشظايا ، وبريق الكشافات ، وعربات الجيب ، ومكامن الفدائيين في حدائق المانجو .

يبدو انني رحت في النوم لفترة طـــويلة ، فلم اشعـر الا والشاب يوقظني ، قائلا :

— لم اكن اود ان اوقظك ، ولكن مضي وقت طويل ولم تاكل ، كما انك لم تتناول الدواء .

شعورى باننى عاجز يؤلمنى ، خدمة الاخـــرين تسلب منى حيويتى ، اهتمامهم بى يربك تفكيرى ويشل عقلى ، تعـودت على نوع من الاهانة ، نضال من اجل الحصـــول على شيء اما هــذا التدليل فلم اكن متعودا عليه .

لزمت الدار ثلاثة ايام ، دار حسين ، وهـــو اسم مضيفى الشاب ، بدات اشعر بتحسن ، رفعت راسي فى امـــل ، المرض يسلب الانسان قدرا كبيرا من الامل ، يضع على عينيـــه ستارة حزن ، رايت الدار ، تمشيت بمساعدة الشـــاب فى حجراتهـــا وطرقها ، قص على الكثير من حوادث جرت فى الدار ايام جــده وجد جده ايضا ، انها عتيقة تلك الدار عاصرت اجيالا من العـــائلة أعطتهم الامان والدفء هنا رقد جنرال انجليزى مريضا وعالجه اهل الدار حتى شفى وبعدها عاد ليأخذ الجد الى السجن ، هكذا رد الجنرال الانجليزى الجميل ، هنا فى هذه الحجرة الرطبـــة ، كان الجد الثانى يجمع الاسلحة تجهيزا للثورة ، وهنا ايضا زارنا الشيخ وجلس فى هذا الركن ، عالم ملىء بالذكريات ولكن ما دور الدار الان ؟

وشعرت بالم الفراق يعصر قلبى ، حينما ودعت صديقى صاحب الدار ، وسقطت دمعة كبيرة وهو يلوح لى بيده من نافذة السيارة ، رحت ارقب يده وهى تتحرك فى الهواء والعربة تهتز فى بداية حركتها ، حاولت ان اقول له كلمة ، ولكنى لم استطـــع ، اندفعت السيارة فى سرعتها واختفى صديقى حينمـــا انعطفت السيارة فى طريق جانبى ، الى عمان ، صـــوت الراديو يعزف موسيقى عسكرية ، نظر الراكب فى اول الصف الى سائق السيارة وقال له :

— ترن ترن ، يا عم حول الراديو .

نظرت الى الطريق ، قلت للاشجار :

— مع السلامة .

ادار السائق مؤشر الراديو ، اختلطت الاصـوات ، تعرض السائق لنقد شديد من شاب يجلس بالقرب منه وطـالب بالعودة الى محطة المارش العسكرى ، صاح راكب من مؤخرة العربة متهما الشاب بالاستعراض امام ركاب السيارة ، مازالت الاصوات تنبعث من الراديو متوائبة ومختلطة .

صاح رجل عجوز فى ضيق :
— اغلق هذا الماخور .

ساد الهدوء الشامل الا من أزيز محرك السيـــارة ، وران الصمت حتى وصلنا الى عمان .

وفى عمان قضيت ثلاثة اشهر فى ضيافة (الداجورى) وهو رجل من بئر سبع ، كـــريم الخلق ، على جانب كبير من يسر الحال ، يعمل فى التجارة ، استقبلنى بنفسه فى محطـــة الركاب وساعدنى على الهبوط من السيارة وحملنى فى سيارته حتى بيته حيث استضافنى .

كان فى جيبى خطاب للسيد الداجورى على ان اقـــدمه له وكنت أعلم أنه خطاب توصية ، لم أحاول ان ارفض اخذ الخطاب من حسين ، وايضا لم احاول ان اعطيه للداجورى ، قيـــل لى ان الداجورى يدعم الحركة بماله ونفوذه ، وقيل لى اشياء كثيرة عن هذا السيد الثرى وقدراته المالية والسياسية ، بل ان احـــدهم همس لى ان اذهب الى بلدان الخليج عن طريقه وربما اجد هناك عملا مربحا يفوق أحلامى ، كانوا يقولون كلاما كثيرا ، ولكنى كنت على يقين واحد لن اتخلى عنه .

ما اكثر تغير الاحوال ، وما اكثر المصادفات فى حياة البشر ، وخاصة هؤلاء الذين يعيشون فى منطقة الاحداث ، لحظات ابدية تغير ملامح الزمن ، كم من الايام مرت ، بل من الاعـــوام ، مرت وانا اتعرض فى كل لحظة للموت والجـوع والالام ، فقـــدت يدى واصيبت ساقى ، وحرمت من الاسرة والاولاد والبيت ، ولا ادرى ماذا أفقد بعد ذلك .

عاود السير على قدمى ، كانت الخطوات الاولى صعبـــة ،

العرج يبدو واضحا ، اكاد اسير على خط وهمى يفصل بين النار والبحر ، وفى كل خطوة اخشى الغرق او النار ، ولكنى حاولت ، وكانت حديقة الداجورى فسيحة جميلة ، كثيرة الشجر ، ساعدتنى على ان اجرب السير بمفردى ، وسعدت ، رغم الالم ، بقـــدمى وهى تتحرك ، دون سند ، تاركة اثرا لينا على حشائش الحديقة ، وفى كل مرة من مرات التدريب اشعر بتقدم ويزيدنى هذا تحمسا للمحاولة .

فى احدى مرات التدريب ، التدريب المنفرد الذى احاول ان اجعله بعيدا عن الاعين ، رأتنى (حسناء) ابنة مضيفى ، وتقدمت منى وهى تقول ، بينما وقفت مشدوها :

— مبروك .

تماسكت حتى لا اقع ، ونظرت اليهــا فى فرح ، كان فى قلبى رغم ما مر بى ، دماء الشباب ، وهى جميلة رشيقة مرحة .

وخفق قلبى ، قلب المحروم الحالم ابدا ، وقلت :

— شكرا لك .

مشيت عدة خطوات نحوها ، من باب التظـــاهر بالقـــدرة الرجولية ، تقدمت منى هى الاخرى ، وقلت فى فخر ، متظـــاهرا بالمرح وحب النكتة :

— استطيع الان ان ادخل سباق الجرى مع بطل العالم .

ضحكت ، كانت ضحكتها كدقات الوتر المشدود ، نغمـــة مرحة حالمة فى احدى ليالى العيد ، ضحكت انا فى توتر .

قالت ، فى انبهار تمثيلى :

— هكذا مرة واحدة ..!

تقدمت عدة خطوات اخرى ، بعدها كنت بجوارها ، لا ادرى ما الذى يدفعنى الى مداومة النظر اليها ، حاولت عـــدة مرات الابتعاد وعدم الاهتمام باستراق النظر اليها ، ولكنى لم انجح ، كان هناك ما يشدنى اليها ، انها جميلة ، رقيقة مثل الحلم الحلو

مرحة كطير طليق فى وادى السعادة ، صغـيرة نضرة كزهرة الياسمين فى ليلة صيف ، سعيدة زكية كطفلة اسرة الحب ، ترقص فى مشيتها على نغم من ارغول راعى الكتاب المقدس ، تطير فى وثبها على سلالم البيت ، يتدفق حديثها حيوية كشلالات الخير الخالص الهابط من السماء ، مالى وهذا الملاك .

قلت فى كبرياء :

ـ نعم ، مرة واحدة .

جلست على اول السلم ومددت ساقى لاستريح ، جلست حسناء بجوارى وهى تقول :

ـ انت بطل .

انها تعاملنى برقة لم اتعودها ، وبكثير من الاعزاز يجعلنى أخجل من نفسي ، قلت فى لعثمة حقيقية :

ـ لا بطولة هناك .

اقتربت منى أكثر ، ارتفع وجيب قلبى ، اضطرم الدم فى عروقى ، تخيلت نفسي ادور معها فى رقصة ، رقصة اسمها الحياة ، احملها فوق كتفى واعبر السحاب والموج ، الف يدى حول خصرها وانطلق فى الوادى الاخضر مترنما بأغنية الحب الابدية ، ادق معها ابواب الامل ، اصارع معها ومن اجلها تقلبات ذلك الزمن العربيد .

ـ ها أنت تعود مرة أخرى الى صمتك واحلامك .

ـ انا ..

ـ نعم ، دائما تكف عن الحديث فجأة .

كانت هناك نبرة عتاب ، والعتاب لا يكون الا بين الاحباء والاصدقاء ، استدرت اواجهها ، تلاقت عيوننا ، وكأننى سقطت فى بئر عيونها الزرقاء الصافية الزرقة ، حاولت ان اجذب نفسي واصعد الى اعلى ، ان انتشل روحى من الغرق فى بحر من الهوى ، ولكنى لا اقدر ، مسلوب الارادة انا ، غريق فى عذاب جميل ،

وودت لو قلت لها كلمات تدور على اول لسانى وانشدها فى قلبى من آيات الشعر .

— انظر ها انت تعود الى صمتك .

قذفتنى بباقة من الزهور ، تحركت محــــاولا الاندماج فى حديثها ، قلت بصوت فاحم قادم من مؤخرة فرن الفحم المنطفىء :

— اننى احب الاستماع اليك .

— بل تحدثنى عن اعمالك معهم .

تمنيت ان اضمها الى صدرى ، ان احتويهــا ، ان اداعب شعرها المسترسل فى طراوة ، ولكن الحياة لا تعطى بقدر ما نرغب لكن بقدر ما ترغب هى ، قلت وانا وانظر الى باقة الزهور :

— ولكنى قصصت عليك كل شيء .

قالت فى دلال :

— لا ، ليس كل شيء ، انت تحاول اخفاء بعض الامور .

— كيف ؟ انا . .

— أرجوك ، قص على كل شيء .

بدات أقص عليها من جديد ، وكلما ذكرت شيئا على عجل ، راحت تسأل عن التفاصيل وهى تنظر الى فى نهم ، وكأنها تحفـظ أقوالى ، والجلسة تطول والحديث يمتد واشعر فى أعمـــاقى بالسعادة وأنا أعبر لها عن كثير من الامور التى كنت دائما اخفيها بين نفسي ، بل كنت ، أحيانا ، أحكى لها بعض خـــواطر نفسي ، وهى بكل هذا سعيدة مبهورة ، ولكن الجلسات تنتهى ، لقـــد حضر بعض الاصدقاء ، ويتفرق الشمل الثنائى ليذوب فى دوامة المجموعة الهائجة التى تزن فى رتابة .

رائع ذلك الشعور الذى يدغدغ حواسي ، ولكن الى اين ؟ والى متى يظل هذا الامر ؟ لابد من معاودة السؤال ولابد من وضع الحلول لمشاكل الحياة ، لا وقت للرفاهية .

لقد شفيت تقريبا والرحيل لابد منه ، الرحيل !!

الرحيل وهذا الوجه الصبوح ، وجــه حسنــــاء الملىء بالحياة ؟.

والسعادة ، اليس لى جانب انا الاخر من السعـــادة ؟ الم يخلق الله لكل منا حظا من الحياة ؟ وانا مثل الاخرين ؟!

اعلم ان هذا الحديث ، عقيم ورومانسي فى هـــذا الزمن الطيب ، زمن النابالم المغلفل : ولكن الزمن الطيب هــذا بناباله وحشوده المدرعة يخلق عالما اكثر رومانسية من كلامى : انه يخلق عالم الفناء .

ذات مرة قال لنا الشيخ الضرير حكاية لطيفة عن رجـــل اراد الوصـــــول الى الاشراق الالهى ، فجلس فى صومعتـــه يدعو الله :

يا الهى ، امدد يدك ، ساعدنى فى عبـــور النهر ، اجعـل ملائكتك يرسلون الى حبلا يتدلى من السماء اصعد اليـــه لارى وجه القمر .

وتدلى الحبل ، وكان سميكا بدرجة كافية ، واخذ الرجل فى الصعود ، وظل يصعد اياما وشهورا ، دون جدوى .

وصاح الرجل :

— يبدو أن القمر لا يريد أن يرانى ، يا قضـــاة الشفقـة ارحموا العبد الذى لا يريده القمر .

خرج اليه القضاة ونظروا القضية ، واشاروا عليه بالهبوط الى الارض .

وصمت الشيخ الضرير ولم يزد ، همس من حوله بسؤال ولكنه ظل صامتا ، انصرف الناس عنه ورددوا قولهم المـــأثور عنه ، مجنون والله ذلك الشيخ ، ويومهـــا قلت كمـــا قالوا ، ولكنى اليوم ، اسأل نفس السؤال الذى همس به مريدو الشيخ .

اجتمعت قضاة الشفقة واصدروا حكمهم ، كان القاضي هو المنهم ، والمتهم ممثل الاتهام ، وصدق القضاة العدول على الحكم الصادر وكان النفى من الجنة .

وصرخت ملائكة الرحمة ، ولكن لافائدة ، رأيت دموعا مثل حبات اللؤلؤ تنحدر على الوجه الجميـــل ، ولمحت الاسي يجلل الوجه الصبوح ، واحسست ان الحياة تختنق فى الصدر الحنون ووددت لو اننى قفزت من الطائرة ، ولكن الطـــائرة سبقتنى وقفزت الى السماء وحملتنى الى مكانى القديم ، تاركا فى عمـــان قلبا أخضر يرنو الى الحياة بعين بللها الدمع ، واهداب تتساقط من فوقها ذكريات الايام الجميلة ، وتركت معها أملا حلمت به ، وحلما سعدت به ، وعيونا غرقت فيهـــا ، يا قوم الا أسألكم عن شيء ؟

— من منكم عرف الرحمة ؟

صاح ملاك الرحمة ، وكان يركب نهرا ، وقال :

— انا يارجل .

قالها والتهم ظهر سمكة ، فضحكت .

ضحكت وتذكرت شيخنا الضرير ، المخبول المجنون كمـــا كانوا يطلقون عليه ، كنت لحداثة سنى أقول كما يقـــولون ، هذا شيخ مجنون ، **كان الشيخ يقول ، وهو بارد النظـــرة عصبى المزاج :**

— انكم يا قومى لا تعلمون ، ولا تريدون أن تعلموا .

تاكلون وتسمنون ، ثم تبحثون عن نقـــود لتاكلوا ، ولان النقود لا تكفى والطعام كذلك ، فانتم تشترون بكل النقود طعاما ، وتاكلون كل الطعام ، خوفا من الجوع ، ودون ما تدرون تسمنون وتتخمون ، وينام العقل لا يصحو الا للبحث عن نقود جـــديدة لشراء طعام جديد ، وتتعذبون .

صرخت فى الملائكة ، هبط ملاك منهم وفى يده سوط الرحمة ضرب الجلاد ومزق لحم الساق لسافك الدماء ، ولكنه يهبـــط اكثر ، ويزداد هبوطا حتى لم يعد يرى الرحمة فلقد هبط دون مستوى الرحمة ووقع فى قبضة الضعفاء ، وانطلق الصوت :

ـ القاهرة ترحب بكم وتهنئكم بسلامة الوصول ، ورحت فى دوامة الحياة فى المطار ..

●●●●●●

عدت الى غزة ..

عدت حيث كنت ، تغير الحال ، عاد العمـران يغطى الارض من جديد ، وانهمك التجار فى الاسواق .. وبدات وفود الزوار تعود ، وعجلة الحياة تدور ، لا تنتظر احدا ، لا تهتم باحد ، ولا تعتمد على احد ، انها تدور مع اجساد البشر وفوقها .

عادت الحياة صارخة نابحة ككلب مسعور ، تنهش فى خرقة بالية باقية من رداء كاهن عجوز ، والكاهن حى ميت ، ينتظـر الرب يجود بعطاء قادم من زمن سـاحق يأتى عبر الالام البشرية للشعب الذى مات .

وهناء القلب قد مات ، والاحساس بالظـلم يؤذى النفس يحولها الى شيء من رماد محروق ، اسود كالفحم المبلول ، تتحرك لتأتي عملا ، لتلهو ، لتحيا ، لتفعل مثل كل الافعال لكل الكائنات الميتة ، بدون رغبة ، وبدون أمل .

لم أعد سائقا ، ولم اعد صالحا لذلك العمل ، ولكنى مطالب بعمل ، البحث عن عمل لبطل عائد بوسام ، ذراع مقطـوعة ، وجسد هزيل وساق مريضة ، انقب عن الاصدقاء القـدماء ، لم أجد منهم سوى اربعة والباقى قتلوا ، ظلوا يتعقبـونهم حتى أبادوهم تماما ، لم تعد فرقتى التى كونتها ودربتها ، ماتوا جميعا،

موسى ، يونس وجلال ، عبد الله وقاسم ، وآخرون كثيرون ذهبوا ، قتلهم اليهود ، بطشا ، عدوانا ، والان ما العمل ؟

وتذكرت ابن اختى ، لقد اخذته فاطمة معها يوم العدوان ، لابد انه اصبح الان صبيا يافعا ، ان كان على قيد الحياة ، هاقد مرت سنوات وانا لم اره ، بل اننى كنت قد نسيته خلال معاناتى الشخصية .

وذهبت الى خان يونس ، العمائر حديثة كثيرة متشابكة ، والشوارع مرصوفة جديدة ، تلمع فى وجه الشمس ، تنزلق من عليها العديد من اطارات السيارات السريعة ، الحيـــاة تدب فى هواء المدينة ، ابنية شاهقة لمدارس تتابع فى الشارع الواحـد ، كنت اعرفها ، ونظرت الى السائق فى امعان ، يبدو اننى اعرفه او هكذا خيل الى ، كنت راكبا من اول محطة لسيـــارات التاكسي وكلما نظرت الى احد يخيل الى اننى اعرفه ، واحملق فيه ، هذا الرجل مثلا ، له وجه مألوف لدى ، هذه الملامح اعرفهـــا ، ولكن لا ، انه يبدو غريبا حتى لهجته ، انه ليس من هنــــا ، انه يسأل عن شيء ما ، ليس من هنا بالطبع لانه لا يعرف هذا المكان الذى يسأل عنه ، مكان مشهور بالقطع ، من لا يعرف الميدان ؟ وخاصة من سكان القطاع ، انه هناك يارجل ، لا ليس هنــــــاك ، لقد اخطات .

ابتسم الركاب لجهلى ، ولكن هذا السائق اعرفه .

وقفت السيارة وهبط منها راكب وصعد آخر ، نظرت الى وجه السائق فى مرآة السيارة ، اعرف هذه الملامح ، وصلنا الى الميدان ، بات على ان اهبط من السيارة ، انصرف بقية الركاب فى عجل ، تقدمت اعطى السائق اجرة الطـريق ، مـددت يدى بعشرة قروش ، قال دون ان ينظر الى وجهى :

— ليس لدى فكة .

حاولت ان اعثر على قروش صغيرة فلم اجد ، قلت :

— وانا الاخر ليس معى فكة .

توقعت ثورته ، ابتعدت قليلا استعدادا للرد فى حالة الدفاع عن النفس ، ولكنه ماكاد ينظر الى ، بوجهه الغـــاضب ، حتى صاح :

ـ بلال !!

حسنا لم يخب رجائى هذه المرة ، ها هو يتعــــرف على أيضا ، قفز من السيارة واحتوانى فى احضانه بنشوة وشوق ، كان سمينا مترهلا وانا فى حجم ذراعه ، رفعنى عـدة مرات الى الهواء ، و هو يردد :

ـ بلال ، يا مرحب يارجل ، من يصدق انك حى !!!!

لقد حسبناك شهيدا .

ثم لف ذراعه حول كتفى ، وقال :

ـ سوف نذهب الى البيت فانا فى شوق اليـــك والى حديثك . اركب يارجل ، اننى اكاد ابكى من التأثر .

كنت انا أيضا متأثرا ولا استطيع الكلام ، ودفعنى ثانية الى داخل السيارة ، اغلق الباب بسرعة ، وفى لحظـــات كان يقود العربة منطلقا نحو منزله ، كانت دفعات الذكريات تدافع فى قوة وبدون تنظيم على لسانه فى يقول كل شيء ولا شيء ، يقذف الكلمات من فمه ، تخرج مطحونة مضغوطة تحت الكثرة الهـــائلة التى فى المرة الواحدة ، بسام صديقى فى عمليات الاقتحام الانتحـــارية ، هو هكذا يود ان يأخذ الحياة فى لقمة واحـدة ، كان يصمم على العمل طوال الليل ، ويحلم بالموت وينتظره فيظل ساهرا ، يعمل فى توليف المتفجرات ، فى دراسة احدى العمليات ، فى الخروج الى عملية انتحارية ، فقط لا تتركه خاليا والا سيثور عليـك وعلى نفسه والعالم كله ، يبدو انه مايزال على طبعه ولم يتغير .

بسام يتحدث فى تدفق وحيوية ، يهتز جسده مع ضحكاته ، تهتز ارطال اللحم حول بطنه وكتفيه .

حاولت ان اعرف منه كل شيء ، ولكن معلوماته تحتاج الى

وقت وصبر حتى استشف منها ما أريد ، تفـــرق الشمـــل للصحاب ، انشغل الجميع فى أمور الحياة بعد العدوان ، هدمت الحرب منازل كثيرة ، وخربت متاجر وبيـــارات ، تفككت اسر كثيرة ، ابتسمت فى مرارة ، قلت :

— يبدو انك أعطيت جسدك عناية اكثر حتى تراكم هــــذا الشحم كله واصبحت غير قادر على الاعمال التى كنت تجيدها ؟

زمجر غاضبا ، كادت العربة تصطدم بجدار بارز فى الشارع ، انقذها فى اخر لحظة ، قال :

— لا والله لا تقل هذا ، الزمن فقط هو الذى فعل بى ذلك .. ولكن وقت الجد أنا مستعد .

صمت لحظة ، دارت راسي وخيـــل الى اننى اسقط من حالق ، تمالكت نفسي قليلا ، موجـــة قوية من الصـــداع تعصر راسي ، عاد بسام يقول :

— ولكن انت ترى ، هاهى قوات البـــوليس الدولى تقف بيننا وبينهم .

كانت السيارة تمرق فى طرق ملتوية ، ترتفـع وتنخفض ، وترتفع السيارة وتنخفض مع الطريق ، وفى تفاوت بين الارتفاع والانخفاض اشعر وكأننى معلق فى الهواء ، اهبط فجاة فيسرى فى جسدى لذة مرتعشة وينتابنى الكسل ، والسيارة أمريكية حديثة الطراز ، زودوها بكل مريح يجلب النوم والكسل للراكب ، عاد بسام يقول :

— أقول لك الحق ، لقد اتت على فترة من الزمن كنت فيها لا اؤمن بشيء ، وفقدت الثقة فى العالم كله .. حتى نفسي ..

تعجبنى رفاهية السيارة ، موسيقى هــــادئة تنبعث من الراديو وسائد ومساند ملونة ، حرير يزهو بالوانه البهيجـــة هزات السيارة تأرجحك فى متعة ، يقول العارفون بحكمة مصائب الدهر ، ان الرفاهية الزائدة تذهب العقل وتثقل اللسان عن قول الحق .

نظرت الى بسام ، الى عيونه المنفوخـــة بشراب اللذة الحسية ، مقاتل وضع سلاحه ونام ، وفى نومه يحلم بالســلام وعندما يصحو لا يستطيع ان يفرق بين الحلم واليقظة ، فيصدق انه يعيش فى زمن السلام ، وهكذا ينسي المقاتل سلاحه او ربما يبيعه لبائع السلع المستهلكة ، روبابيكيا ..

- انت تعس يا صديقى المسكين ، أليس كذلك ؟ .

وسكت بسام ولم يجب ، اطرقت فى أسف ، شعرت اننى آذيت احساسه ، ثم اننى الاخر مرت على فترات مثلها ، بل ان الجوع احيانا ما كان يدفع الى بافـكار ، لو اننى نفذتهـا فى ساعتها ، لتغير تاريخ حياتى ، واحسست باللوم لنفسي والنـدم لاننى كنت قاسيا عليه .

توقفت السيارة امام منزل صغير حديث يتكون من دورين ، قال بسام وهو يشير الى المنزل :

- ها هو المنزل ، اننى بالشقة العليا .

وقفز من السيارة بعد ان عزف لحنا بنفيرها ، وقف يحيى الجيران باشارات يده ، وجـذبنى الى مدخـل الدار ، حاولت الاعتذار فلم يجب ولم يقبل عذرى حاولت ان اشرح له المهمـة التى قدمت من أجلها ولكنه اصر على تناول الفداء اولا ثم اشرح له ما اريد ، لم يكن امامى سبيل اخر ، صعدت معه الى شقته .

المسكن جميل هادىء ، ونقوش المفارش والستائر عربيـة اصيلة ، ونقوش المنسوجات دقيقة رقيقة ، احسست ان سيدة البيت جاءت من منطقة يافا ، وشعرت بالارتياح ، رحت اتطلع الى ما حولى فى سعادة ، احساس بالبيت يحتـوينى نوع من الامان فى الوطن ، تنفست بعمق ، شممت رائحة البيت الفلسطينى .. بسام راح يحدثنى عن زوجته وبيته وعن ازدهار الحيـاة فى مدن القطاع ، أشم رائحة لحم مشوى ، بسام يقول هامسا :

- سوف يتحقق حلمك القديم يا رفيقى .

سألته ، ورائحة الشواء تخدرنى :

— ما هو ؟

ابتسم فى فخر ورفع صوته قائلا :

— الجيش .. سيقيمون جيشا من شباب فلسطين .

الجيش !! جيش الخلاص ، رائع ورب السماء ، ان الاوان للعمل حقيقة ، سابذل جهدا اسطوريا .

قلت :

— سننضم جميعا للجيش .

كان بسام مشغولا عنى ، ينادى زوجته غاضبا من تاخرها فى احضار الطعام .

مضي الوقت ، وكان لابد من الذهاب للبحث عن ابن اختى ، طلبت من بسام السماح لى بالانصراف ، ولكنه قال :

— انتظر فان زوجتى ترغب فى رؤيتك .

وبعد برهة ، تقدمت سيدة شابة فى خجـــل ، وسلمت فى وقار ، عرفنى بها بسام .

— مريم ، زوجتى من يافا ، بلدياتك .

رددت بعض عبارات المجاملة ، رفعت السيدة عينيهـــا الى وجهى وقالت :

— كان بسام يحدثنى عنك كثيرا ، كما ان هنـــاك شخصا اخر يعرفك ويود رؤيتك .

قلت فى لهفة ، وبعض الامل يشع فى صدرى :

— من هو يا سيدتى ؟

ابتسمت السيدة فى خجل عربى لا مبرر له ، ثم قالت :

— بالتحديد هما شخصان ، اعتقد انك عرفتهما الان ؟

— فاطمة ؟

— وابن اختك ايضا .

— أين هما ؟ لقد جئت ابحث عن ..

لم ارغب فى اتمام جملتى ، كنت قادما للبحث عن ابن اختى ، لا داعى للكذب ، لم يكن ابن اختى سوى الحجة الشرعية ، لا ادرى الان ، المقاتل بشر ايضا ، ذهبت السيدة لتحضر القهوة وتركتنى مع تعليقات هذا الرفيق المترهل مرتبكا من قفشاته وتعليقاته ، عادت السيدة بالقهوة وراحت تصبها ، امتدت لحظات الصمت ، كان بى احساس بالخجل فلم ارغب فى افشاء سر نفسي ، وآثرت السكوت ، بعد لحظات قالت زوجة بسام :

— كان بسام يقص على ما كنتم تقومون به ، وعرفتك من احاديثه الطويلة عنك ، فقد كان دائما فخورا بك .

تناول بسام رشفة قهوة فى صوت مسموع وقال :

— كانت تقول : ارايتم ؟ ابن بلدى .

مرة أخرى اجد السيدة الشابة تضع على وجهها شالا وتدارى خجلها ، سرى فى جسدى رعشة غريبة من حركتها المتظاهرة بالخجل ، قالت :

— فى ذات يوم قابلت فاطمة فى السوق ، وكانت هى دائما تسألنى عنك ..

— وأين هى الآن ؟ وكيف ..

قاطعنى بسام :

— بخير يا أبا الابطال .

قالت زوجته :

— ولكنها فى حاجة الى من يرعاها .

— وزوجها ؟

— زوجها !!

سكتت مريم ونظرت الى زوجها ، قال بســـام فى صوت حزين :

ــ ذبحوه ايام العدوان ، حاولوا تهـديدها لكى تدلهم على مكانك فذبحوا زوجها أمام بيته .

ــ وكيف تعيش الان ؟

تنهدت مريم فى الم لا نهائى ، وقالت :

ــ كما يعيش المنكوب ، تعمل فى مشغل لترعى الصبى .

وقفت بى لهفة لرؤيتها ، ولكن مريم قالت :

ــ انها تعلم انك مفقود ، بل ان بعض القـوم اخبرها بأنهم قتلوك ، ولكنها لم تكن تصدق .

قال بسام بسرعة :

ــ وانت ايضا ، كنت تقولين انه يقود المقـــاومة فى مكان آخر .

ردت مريم ، باصرار ، وبدون خجل مفتعل :

ــ نعم ، وقد رأيت بنفسك ، المناضل لا يموت .

صهلت ضحكة بسام ، مجموعة خيـول جامحة هـــذا الصديق . قال وهو يحاول جذب أعنة ضحكته :

ــ تصور حينما قالوا ، فى عيد الميلاد المـاضي ، ان داورية يهودية تعرضت لهجوم من الفدائيين قرب الحدود ، صاحت مريم مهللة ..

قاطعته زوجته قائلة :

ــ الم اقل لكم ، انه هناك يقود من جديد قوات المقاومة .

قال بسام ، فى حرارة ، ونحن نهبط السلالم :

ــ كانت هذه الاخبار تساوي العمر كله .

خرجنا من المنزل وانطلقت بنا السيارة عبر الشـــوارع ، كلمات مريم عن المقاومة تهزني ، حقيقة انني سمعت اخبار تلك المنظمة التي بدأت اعمالها ليلة عيد الميلاد ، كانتقام لصلب المسيح ولكني ، الان ودائما ، تأكدت ان هذا هـــو الطـــريق الوحيد للعودة .

– ستكون مفاجأة لها .

كانت مريم تجلس في المقعد الخلفي ، قطعت جـــو الصمت المحيط ، بكلماتها ، هزبسام راسه وقال :

– فاطمة تحملت الكثير .

فاطمة ، كيف هي الان ؟ كيف تبدو ؟ هل تغيرت كثيرا ؟

هل هي على عهدها ام ان الحياة غيرت ما بها ؟

ووقفنا امام المشغل ، وهو عبارة عن جزء من مبنى قديم في شارع جانبي ، يقف على بابه رجل اسمر ، قال في بلادة حينمـا لاحظ وجودنا :

– الحاج غير موجود .

دفعه بسام برفق وهو يقول :

– لا نريد رؤية الحاج .

واندفع بسام الى الداخل ، ودلفت خلفه والبواب يصيـح خلفنا :

– قلت لكم انه غير موجود .

اخترق بسام الباب الجانبي واخذ ينادي على فاطمـــة ، بصوت مرتفع ، احدث دخولنا المفاجيء الى المشغـــل نوعا من الفوضي بين العاملات ، وارتفع ضجيجهن ، انها فرصة للراحـــة هبطت من السماء ، رفع بسام عقيرته بالنداء .

واقبلت من بين الصفوف ، ترتدي السواد ، لا تكاد تحملها قدماها ، هزيلة ضامرة ، تبدو امرأة مسنـــة ، وتقـــدمت في

خطوتين نحوها ، ولكنها كانت تخطو نحو الصوت وكأنها منومة ، لم ترفع عينيها الا حينما صارت على بعد عدة خطوات منا ، وكنا نقف فى اول المشغل ، تجمع حولنا فتيات المشغل فى فضـــول ، حاول بسام طردهن ولكنهن تمادين فى الاقتراب ، اهتزت فاطمة حينما رأتنى امامها ، تلاقت عيوننا فى لحظة اشراق سمـــاوى ، تبعثرت الكلمات وضاعت ، انقذنا بسام قائلا :

— هيا نخرج من هنا فقد كدت أختنق .

وتحركنا لنعود ، ولكن عاملات المشغل يشكلن دائرة ثرثارة تسأل فى فضول نهم ، راحت كل واحدة تزيح الاخرى لترى اكثر وتسمع افضل ، الارتباك يشل فاطمة ، لا تتحرك ، بعض الكلمات تناثرت بسرعة البرق عن علاقتنا ، وتعالت ضحكات مكتومة ، لم احاول ان افعل شيئا ، صوت الملاحظ جلجـــل فى قوة آمـراً العاملات بالعودة الى اعمالهن ، فجأة ذابت الدائرة وعاد الهدوء يشمل المشغل ، اخذنا نشق طريقنا الى الخارج .

كانت الدموع تتساقط من عين فاطمة دون بكاء ، نوع من الدموع ينساب باصرار وبصمت ، تنظر الى دون أن تقول شيئا ، بذلت جهدا لاقول كلمة ، او اسأل سؤالا ، ولـــكن لا فائدة كان حلقى جافا ولسانى مشدودا .

حاول بسام ان يذيب تجمد الموقف ببعض الكلمات ، ولكن سرعان ما عاد الجو كما هو ، وكنا نسير على غير هدى بعـــد ان تركنا السيارة امام المشغل ، ولكن فاطمة قالت :

— من هنا البيت ..

واشارت الى شارع ضيق ، سرنا بضع خطوات ، وكانت مجموعة من الصبية يتقاذفون الكرة فى صياح وجلبـه ، صاحت فاطمة فى احدهم :

— وليد ، يا وليد ، اقبل يا وليد .

وتلفت صبى اسمر صغير السن ، ضئيل الحجم ، برهـة نحو مصدر الصوت ، ولكنه سرعان ما تشاغل عنها بالجرى خلف

الكرة ، راحت تصيح عليه من جديد ، ولكنــه تظاهر بعــدم سماعها ، اسرع بسام وامسك به ، والصبى يجـاهد للافلات ثم تشبث بالارض وصاح :

- دعنى يا رجل ، لماذا تجرنى هكذا ؟

- امك تنادى عليك .

- وما يخصك انت ؟

- هى تنادى عليك منذ مدة ونحن معها .

- انها أمى وليست امك .

واضطر بسام الى تركه ، فاقبل الصبى بمفرده وهو ينظر الى بسام فى غضب ، وتقدمت اليه ، ولكنه تجنبنى واتجه مباشرة الى حيث كانت تقف فاطمة .

جلسنا فى حجرة فاطمة ، ودار الحديث حول حياتها ، لم أحاول ان اسأل كثيرا ، لقد ذهب الماضي ولن يعود .

ابن اختى يدور حولى مستطلعا متشككا فى قرابتى ، وفاطمة أكدت له ، الا انه ينظر الى فى ريبة ويتفحصنى باهتمام ، واخيرا صاح :

- خال .

قلت فى نشوة :

- نعم .

قال ، وبريق غريب يشع فى نظرته :

- أين بندقيتك ؟

قدمت طلبا للانضمام للجيش ولكنهم رفضوه .
قالوا لى : انك لم تعد تصلح .

حاولت ان اشرح لهم قصتى ، ولـكنهم اصروا على الرفض ، وابتسم احدهم وهو ينظـــر الى ايدى اليسرى ، وانا أهدد بهـــا ، واليمنى بتراء كئيبـــة ويتدلى كم جاكتتى متهدلا فى فراغ ، قال :

ـ لا تغضب يا عمى ، هنا الكثيرون الذين يملكون اليـــد اليمنى .

وارخيت يدى بسرعة ، كثيرا ما شعرت بالمـــرارة ، حتى أصبحت عادة ، لا يمكن ان تجد لاجئا يعيش دون نوبات متلاحقة من الشعور بالمرارة .

جررت قدمى ومشيت نحو باب المخزن ، هزتنى كلمـــة (عمى) وودت لو اصرخ ، مازلت قادرا على النضـــال ، ولكنى لم أفعل ، يبدو اننى تمنيت الاحلام الصعبة ، جلست فى مـــكانى المعتاد فوق الحجر الابيض اراقب الرائح والغادى .

منذ مدة وانا جالس فوق هذا الحجر ، وامام هذا المخزن بعد ان اصبحت خفيرا وحارسا بالليل وبالنهار لمخزن البضـــائع ولكن احرسه ممن ؟ من اليهود أم من العرب ؟ لا ادرى ، فقط اجلس بالساعات الطويلة احملق فى الارض ، تاكلنى الرغبـــة فى

معاودة الاشتراك فى القتال ، فى تنظيم «فى تدريب» فى معاونة ، فى عمل شيء يمس حركة النضال التى يجب ان يخوضها اللاجئون لكى يعودوا الى ديارهم .

ومرات كثيرة احاول ، ولكنى افشل فى المحاولة ، وكلما تحدثت الى احدهم فى هذا الشان ، نظر الى يدى وهز رأسه فى مواساة زائفة وقال :

— لقد عانيته ما فيه الكفاية ، هون عليك .

اهون على ؟ هل هذا كلام يقال والبلد فى يد غريب .

غريب ، مجموعات من الرعاع والسفلة يدنسونها ، ويتحكمون فيها ، وهم يقولون لى : هو عليك ! وكيف تعود الديار اذا هانت الامور ، نعم لقد كان يقول الشيخ الضرير عن هذه الحالة كلاما كثيرا ، لا اذكره كله ، ولكنى اتذكر حينما قال :

— الامر الهين لا يسعى اليه الرجل العاقل ،

تمتم الرجال الجالسون حوله :

— نعم يا مولانا صدقت ورب النور .

ابتسم الشيخ الضرير ، وقال :

— ولكن لا يوجد بين كافة الامور امر هين .

ضحك الخبثاء ، وقالوا وهم ينصرفون ، كما يقولون دوما ، مجنون والله ذلك الشيخ .

ابتسمت وانا ارى نفسي جالسا مثل الجدة العجوز امام كوخ الصفار تراقب ولا تتدخل ، وجحافل الشباب تخترق الفيافى والتلال فى اصرار الشباب وعزمه ليحرروا الوطن ، ليأخذوا بالثأر من ظلم اليوم الاسود ، ليمهدوا الارض للعودة ، وتبدأ موجات العودة تمر امامى ، اننى اراها الان ، هاهم كثيرون ، أسرعوا يا قوم ، لقد حانت اللحظة ، ها هى أرضكم تفتح ذراعيها

لترحب بكم ، لا .. بل تبكى من الفرحة ، وتصرخ من السعادة ، ولكن ما الذى جعلك تقفين هكذا ؟

وانتن ما الذى جعلكن تقفن والباقيات مسرعات فى طـريق العودة .

نعم : ماذا ؟ لماذا تضحكن ؟ حسنا اضحكن كما يحلو لكن ، ولم لا حلم الحياة كلها يتحقق .

ــ يبدو انك سعيد يا عم بلال ؟

ــ نعم .

ــ وما اسمه اذا ؟

ــ اسم من ؟

وتضاحكت فتيات المشغل ، انهن هكذا ، الفتيات يضحكن فى كل الاوقات والازمنة ، انها مازالت تسأل هذه الثرثارة :

ــ اسم المولود الجديد ؟

واخرى تسأل :

ــ وفاطمة كيف حالها الان ؟

غشيتنى لحظات من السعادة جعلتنى أعجز عن متابعـة الاجابة على اسئلة الفتيات وهن يتضاحكن حـــولى ، وكلهن يسألن فى الحاح متصل ، ما لونه ؟ ما شكله ؟ ما اسمه ؟ هل هو فى جمال فاطمة ؟ أم على شاكلة ابيه ؟ ومتى يمكن رؤيته ؟

وكلما بدات الاجابة على سؤال ، قاطعتنى اخرى بسؤال جديد ، ولم يخلصنى منهن الا حضور صاحب المخزن .

عدت الى جلستى وحيدا افكر فى زوجتى وابنها ، لقـد كدت انساه ، حقيقة ما لونه وكيف يبدو ؟ لقد نسيت تقاطيـــع وجهه ، لم أشعر تجاهله بعاطفة ما ، انه يبدو غريبا ، ولا اشعر بالابوة التى يقولون عنها ، هأنا اصبح رب اسرة ، مشكلات السن

والمأكل والتعليم ، والمشكلات الاخرى اكثر .

ابن اختى يذهب الى المدرسة ، ويســــألنى كل يوم عن البندقية ، وهاهو وليد جديد سوف يسأل هو الاخــــر ابن البندقية يا ابى ؟

العمل كخفير لهذا المخزن الملعون لا يدر على مالا ، والحياة قاسية صعبة ، وتحاول فاطمة ان تساعدنى بالعمل احيانا ولكن صحتها السيئة دائما تحول دون استمرارها فى العمل .

واللعبة قذرة ، ورغيف الخبز محشو بالعرق والدمــوع ، وصانع الخبز يفهم سر اللعبة ، فيعلو بالرغيف الى اعلى والمعدة بيت الداء ، تطلب خبزا ، ويتناول الرجل الجائع حجرا يصعــد عليه لتطول يده رغيف الخبز ، ولكنه لا يطوله لان حامل الرغيف يرفع يده ، والمعدة بيت الداء وفى البيت بيــوت كثـــيرة تطلب خبزا ، فيضع الرجل حجرا فوق حجر لتطــول يده الرغيف ، والحجر يهتز فوق الحجر الاول ، وعلى الرجل ان يقف متنبهـــا لكى يحصل على الرغيف ولكى لا يسقط من فوق الحجر ، ولكن الرغيف يعلو قامة الرجل ، فيأتى بحجر ثالث ، وينجح الرجــل اخيرا فى وضع الاحجار فوق بعضها طبقات ويصعد عليها ليمــد يده نحو رغيف الخبز والمعدة جائعة والاحجار غير ثابتــة تهتز ، وعلى الرجل ان ينتبه الى ما يفعله ، ولا يستطيع الحصول على الرغيف الا اذا وقف متنبها ويشغله هذا عن ما دونه من الامــور فلا يدرى اذا ما كانت عورته مستورة او مكشــــوفة ، ولو فكر فى ذلك لسقط من فوره وبعدها لن يحصل على رغيف الخبز،ولانه يعلم ذلك ، ولان فى بيته افواها مفتوحة ، فانه يظل متنبهـــا فى وقفته جاعلا همه كله فى الحصول على الرغيف ، ويبتسم صاحب اللعبة فيرفع يده بالرغيف الى اعلى ، وتتكرر اللعبـــة ولا تنتهى ومع هذا يقول العارفون ببواطن الامور الدارســـون لمجــــريات الاحداث ، وهم يضعون اصابعهم فيما بين اسنـــانهم ، ان ثمن

الرغيف لم يزد ولم يتغير ، رغم ارتفاع كافة الاسعـــار لـــكافة الاشياء ، ويتجشأ كبيرهم ويبتسم فى فخر .

اقبل صديقى بسام ، سلم وجلس مهموما ، على غير عادته ، انتظرت ان يتكلم ولكنه ظل صامتا ، صحت فيه :

— ما بك يارجل ؟

— لا شيء .

— بل لابد ان هناك شيئا ما احزنك الى هذه الدرجة .

قل يا رجل نحن اخوة ؟

— أخى ..

— ماذا به ؟

تقلصت عضلات وجهه فى توتر حزين ، وقال :

— قتلوه .

— أين ؟

— بالقرب من بحيرة طبـــرية ، كان مع مجمـــوعة من الفدائيين .

وشعرت بالمرارة ، نفس المرارة التى شعرت بها حينمـــا قبضوا على اخى ، ونفس المرارة التى شعرت بها وانا اسمع عن مقتل امى وابى واخوتى ، وكل رفاقى الذين ماتوا ، كما احسست بالمهانة والضعف والثورة تهب فى اعماقى . شعور المرارة ، ماالذى يعنى الشعور بالمرارة ، خيبة امل اذا ظل هكذا مجـــرد شعور بالمرارة ، ولكنه يصبح لهبا مقدسا يقود الطريق الحقيقى للعودة .

— اذا لا تبك هكذا مثل الارامل ، انه شهيد بعـــد ان ادى واجبه .

قال بسام فى الم حاول ان يداريه :

— الفراق صعب ، لقد كان اصغر اخوتى ، حملتـــه على

كتفى ونحن نرحل من اراضينا ، عانيت لاوفر له الطعام ، علمته وربيته ، سعدت به بعد ان كبر والتحق بالمنظمة .

— كنت تود الاحتفاظ به فى صندوق من العاج !!

— ولكن ..

— لا تكن أحمق ، انه شهيد بطل .

لقد صنعت بطلا وهذا يكفى فخارا للعالم بأسره ، والحزن عليه عار ومسبة فى حقك .

ران صمت طويل ، كنت اصلى من اجل روحى المعذبة وروح هؤلاء الخائفين من الجنة ، يقول الشيخ الضرير ، فى اجــــابة لسؤال طويل يتكرر عليه مســـاء كل يوم ، ان الموت فجيعـــة ومصيبة كبرى للفرد ، ولكنه على المستوى البشرى نعمة كبرى ، والذى يؤمن بذلك يموت شهيدا ، قلت كما قالوا : انه بالفعـل شيخ مخرف مخبول .

انفجر بسام قائلا :

— اريد ان اثأر له ، لم اعد راغبا فى العيش بهذه الطريقة ، اريد ان افعل شيئا بنفسي .

— حسنا ، هذا ما كنت اقوله لكم جميعا ، نحن نعيش على حافة الخوف لا فى داخله .

وقف بسام ، وكان جبينه يبرق فى ضياء العرق ، وقال :

— انا معك من الان .

ها هو اول رجل ينضم الى فرقتى الجديدة ، بداية مرحلة جديدة من العمل .

كان ايمانى ان عمليات التسلل الى معسكرات العدو واعمال القناصة وعمليات الفرق الانتحارية هى افضل طريق لتحـــرير الوطن ، كنت مؤمنا بقدرة الحرب غير النظامية ، وكما ضــاعت فلسطين تعود ، ربما يرجع ايمانى بهذا الاسلوب الى تعلقى بحرب

العصابات فى معسكرات القناة ، ربما ، ولكنه بالتأكيد كان ايمان كل لاجىء يعيش فى انتظار لحظة العودة .

وشعرت اننى وجدت طريقا يرفعنى الى مستوى تقديرى لنفسي بدلا من الجلوس دوما على حجر املس احلم فقط بيـــوم العودة .

شيخنا الضرير ، مثل علامات الحياة ، تظهر بكثرة فى فترات وتنعدم فى فترات اخرى ، وانا اذكره دوما لحاجتى الى تذكـر الاجابة التى يلقيها كل انسان يدعى العـــلم والفلسفة لســؤال تقليدى يطرحه كل البشر كل يوم ، وفى احد الامسيات ، بينمـا كان الشيخ فى جولته اليومية يحدث الناس فى امور لا يرغبون فى سماعها ، قال :

ـ يا قوم ، انى نذير لكم ، ان تكفوا عن الحياة العابثة وان تسلكوا طريقا اقرب الى الصواب وان تستعدوا لعدوكم وهـذا خير لكم ، والا اصابكم شر دائم وصرتم بعد ذلك نادمين .

قهقة القوم وتصايحوا ، ولكن فى حـــزن ردوا على الشيخ واشاروا الى ما بين ايديهم ، كان فى قلوبهم وجـــل وضعف وفى عقولهم يقف جلاد احمق انتصب فى بهو اخيلتهم منـــذ الزمن السـاحق فى القدم يرفع سوطا وهميا من عذاب ، كبل الخـــوف الاقدام والعقول ، لو أن احدا يصيح فى وجه الجـلاد العفريت ، ولكن واحد لا يصلح ، الكل يصيح فى وجه العفريت .

قال الشيخ الضرير :

ـ يا قوم ، ان كان لكم فى الدنيا ما تخشون عليه فان ذلك ما يضعف نفوسكم ويجعلكم عرضة للذل والعبـــودية ، والويل لكم .

مكروه ذلك الرجل الذى يقول الحق ، يقولون عنه اشيـــاء بذيئة ويلوثون سمعته باوحال التهم السيئة ، بل ويوصمـــون عقله بالمرض والخبال ، رحت اقول كما يقول الشيخ ، او كما كان يقول ، ولكن القوم لاهون لا يسمعون لعبـــد مثلى كلاما ، راحب كلماتى فى الهواء ، ومع ذلك قضيت عدة ايام وانا متحمس

فى اقناع بعض الرجال للانضمام الى فرقتى الجديدة ، وبذلت جهدا كبيرا ، ولكنى لم اضم اكثر من الثلاثين فـــردا ، وهــذا العدد لا يكفى لتكوين فرقة تشكل نشاطا له اهميته ، ورغم ذلك اعتبرت هذا العدد نواة ، على ان يزداد حجم الفـــرقة بعــد ذلك .

وجاء رسول يخبرنى ان ما افعله متعارض مع ما يفعـــله الاخرون ، وان على ان اكف حتى لا اشتت الجهــد ، وفشلت محاولاتى ، فى اقناع الرسول ، بوجهة نظرى سدى . ولم اكثر فى القول فقد وجدت اننى اضرب رأسى فى حائط لبنـــاته من الكلمات المرصوصة بعناية وليس خلفها عمل جدى ، ســوى مجموعة هائلة من الشعارات والنظريات ، ولــكن لا عمــل ، وقررت ، دون الدخول فى متاهات الكلمات ، ان اقوم بالعمــل واكتب كلمتى بالرصاص المتدفق من الرشاش .

مرض وليد ، فى ذلك الوقت الحساس ، خشيت عليه من الموت فقد كان مرضه خطيرا ، ورحت ادور به على الاطباء ، ولم يشغلنى مرضه عن متابعة خطواتى فى تكوين الفـــرقة ، ولـكن العلاج طال وامتص كل مواردى المالية ، واصبحت فى حاجة الى الاقتراض من الاصدقاء .

وهددنى صاحب المخزن بالفصـــل لاننى اصبحت اترك ابواب مخزنه كثيرا مما يعرض محتويات المخزن للسرقة !..

وشعرت بالمهانة ، وانني اقع فى هوة سحيقة من المشاكل التى كنت انظر اليها من قبل بشيء من الاحتقار والازدراء ، ولكنها مشاكل صغيرة تؤذى الاحساس والنفس ، حتى ان الاحســاس بالندم لزواجى اصبح يراودنى ويقلق تفكيرى .

كان من الصعب على انسان ، تشبع بروح الكفاح والمقاومة ، واعتنق اعتناقا كاملا ذلك المبدأ الروحى للنضال ، ان يجد نفسه وسط مشاكل بالغة الصغر ولكنها حاسمة وواجبة الحل مثــل ثمن زجاجة دواء لابنه او وجبة طعام لاسرته بينما يهدده صاحب العمل بالنظر فى امر فصله ، ويثور عليه الاصدقاء ضـــاجين من كثرة القروض ، ساخرين من غفلته وعدم حرصه على تنميـــة

مورد رزقه وزيادة ممتلكاته ، واجد نفسي محاصرا بكل هـــذا ، واعيد التفكير مرة ، ومرات فى الامر ، ولكن اجد سؤالا كبـــيرا يقف امام عقلى : كيف احافظ على تنمية موارد رزقى او حتى أزاول العمل وهناك خطر يتهدد مصدر هذا الرزق ، كما يهـدد نتيجة هذا العمل بالفناء ، بل لا يتورع عن سلبه او نهبه ؟

كيف أشيد قصرا واعيش فيه وهناك مدفع مصـــوب الى وعلى وشك الانطلاق فى كل لحظة ، المشكلة اذا ليس الرزق او القصر بل هى السلاح فى اليد الذى يؤمن الحياة ويعيدها .

ولكن السؤال يختفى ويحل محله سؤال اخر اكثر تعقيدا وصعوبة : كيف يعيش الانسان دون عمل يزاوله ودون نقـــود يحصل عليها ، ودون تلك الاشياء التى نسميها فى لحظة الانبهار البطولى بأنها اشياء تافهة ، هل تتوقف الحياة ؟
هل يظل الناس ممسكين بزناد مدافعهم فى انتظار المعركة ، اعتقد ان السؤال الاول صعب ، والسؤال الثانى اصعب .

ربما يكون هناك اناس اكثر منى تعقلا وتفهمـــا للواقع وللامور فلست الا سائقا لسيارات النقل ، سابقا ، وخفيرا لمخزن قديم فى الوقت الحاضر . ولست على جانب من التعليم والثقافة يؤهلنى للحكم على طبيعة الاشياء ، والامـــر ، فى نفس الوقت غريب وخطير ، بالنسبة لى على الاقل ، والشرر فى عينى يجعلنى لا أرى الا طلقات المدافع وقصف القنابل وتدبير المخططات لهجوم ليلى مفاجىء ، والجوع فى احشائى وعلى عيون اطفـالى يجعلنى اتلهف على استخدام كل الطرق ، وان ادت الى السرقة فى سبيل اطعامهم ، والوحيدة التى تقف بجانبى تهدىء من ثورتى بكلماتها الواعدة ، زوجتى فاطمة ، وكما دفعتنى للسفر الى القناة فى الايام السابقة ، تدفعنى الان لمواصلة السير فى نفس الدرب .

كان الشيخ الضرير يقول : فى اللحظات الكالحة من وجه الزمن الحاضر ، يصبح الضباب كثيفا ولهذا تنعدم الرؤية الواضحة . ولكن هناك بعض العيون تستكشف الطريق جيدا ، ولكن البعض لا يكفى ، يجب الكل ، والكل يستكشف الطريق فى حالة واحـدة فقط وهى وجود المعايير الثابتة .

فى الزمن السابق ، لم اكن افهم ما يعنيه الشيخ ، ولكن كلما توالت على التجارب ومضي الزمن ، تتضح رؤية كلماته امام عقلى ، واشعر انني مشيت مع الناس فى ضلالة حينما اتهموه بالخبل والجنون .

ويبدو ان الفترة التى قضيتها فى الاسر قد اثرت فى قدرتى على التفكير السليم ، فالعالم فى ناحية وانا وحدى فى ناحية ، تكومت على نفسي فى قلق ، احيانا اشعر بالغباء ، واحيانا اشعر بالثورة على غبائى ، ولكنى هذه اللحظة اقع فريسة اهازيج المجتمع المخبول .

صرخ ابن اختى :

— لم تبكى يا أبى ، هل انت خائف من اليهود ؟

— من اليهود !!

— أنا لا اخاف منهم ، انظر ..

إقترب رأسه الصغيرة منى وقال فى همس :

— لقد تسللنا ، انا وزملائى ، الى ما وراء الحدود دون ان يرانا رجال البوليس الدولى .

وانتبهت جيدا ، قلت فى فزع :

— كيف ؟! ولم يطلقوا عليكم النار ؟!

قال فى جراة طفولية :

— من ؟ اليهود !! لقد أتلفنا لهم جرارا كان يقف هناك .

حاولت ان اداري فرحة كانت قد نبتت فى قلبى ، قلت :

— كيف يا ولد ؟!

— هذه ليست اول مرة ..

هز كتفيه فى تظاهر بالبساطة واللامبالاة ومضي ، وانا انظر فى انبهار ، والحقيقة تملأ اركان نفسي كما تملأ الغرفة التى اجلس بها الان ، بل وتملأ العالم كله ، يمكن لاسرائيل ، بل ويمكن لاى جماعة تملك السلاح والمقدرة ، ان تستولى على بقعة من الارض ، مثل قاطع طريق ، ولكن لا يظل هذا هو الوضع الطبيعى

للاشياء ، وهذا ما فعله هؤلاء الصبية ، فرغم ان ما قامـوا به ، يعتبر عملا صبيانيا يجلب الضرر على الصبيـــة اكثر من الضرر الذى يصيب العدو ، الا انهم بذلك يحددون الطريق ، ويضعون الاجابة للكثير من الاسئلة التى يطرحهـــا النـاس فى كل مكان . وشعرت بالفخر ، وقلت :

— ولكن هذا يعرضكم للخطر ؟
وفتح الصبى فمه فى دهشة ، وقال :

— خطر !! اليست قريتنا فى خطر ؟

— وهل انت فى شوق الى رؤيتها ؟

— فى أشد الشوق يا أبى ، اننى احلم كل ليلة اننا نقيم فى بيتنا هناك .

ونهضت وانا اقول :

— حينما تكبر ستعرف الطريق الى (أم السلول) وصاح الصبى فى غضب :

— ولكننى اعرفه من الان يا أبى .
وتلفت خلفى وقلت :
— اذا لا تجعله يغيب عن عقلك .
— ابدا يا ابى .

وخرجت من الحجرة ، ولكن الصبى اسرع خلفى وهـــو يسأل :

— ولكن متى العودة يا أبى ؟

نظرت الى عينيـــه ، ولم اجب ، والح فى السؤال ، وانا مازلت انظر الى عينيـه ، كرر السؤال مرة ثالثـــة ، قلت وانا اواصل السير ، بعد ان قررت فى نفسي قرارا لا رجعة فيه :
— قريبا جدا يا بنى .

وقبل ان اخرج من باب البيت ، رايت الصبى وهو يلوح لى ببندقية ..

وعادت الذئاب تعوى من جديد ، تبحث عن لحم لتاكله تنبش فى قبر الصدور ، تلعق دم طفل قتلته ، واليد مبتورة ، عاجزة ، مشلولة شوهها عدوان آثم من عدو همجى ، والقلب يدق فى غل يطلب ثارا ، ولكن الغدر لا يترك للقلوب الثائرة فرصة الثورة ، انه يسرق لحظة انبثاق الثورة ، فلا ياتى الا فى الظلام ، وعلى ظهر حصان سيده ، والسيد صاحب الضيعة يخشي على ما سرقه من الضياع ، من العودة الى اصحابه الشرعيين ، فيطلق كلاب الصيد تنهش فى الصدور ، واليد مبتورة بغير سلاح ، والسماء تقذف لهبا يحرق لا يدع للمدفع ان يتحرك .

وعاد العدوان .

عاد ليمزق السماء بطيرانه ، ويحرق الارض بمدمراته ، والويل كل الويل للضعيف ، للاعزل ، صحت فى ولدى :

ــ احمل سلاحك وتقدم .

ولكن الولد اختفى ، اسرع لينضم الى زملائه .

انفجرت قنبلة فى المخزن المكدس عن اخره بأشياء كثيرة وراح اللهب الحارق يلتهم كل شيء ، ترنح صندوق اللعب ، سقط ، خرجت عرائس ايطاليا ، احترقت وهى تصدر صوتا كأنين الاطفال ، وتصاعد منها رائحة المطاط ، انفجر صندوق

آخر ، علت النيران حول الصناديق الاخرى ، اندفعت النسوة خارجات فى فزع ، سقطت دفعة (نابالم) على بوابة المخزن ، ارتفع لهب ازرق من الوجوه ، صرخت النساء فى الم اسطورى ، رفعن ايديهن المشتعلة فى ضراعة الى السماء ، ولكن دفعات جديدة سقطت من السماء ، زادت رقعة اللهب ، خرجت فى غضب مجنون اصرخ :

— الكلاب ، الكلاب .

ودفعت الباب امامى ولم اجد احدا ، وجدت البيت خاويا لا احد يجيب على ندائى المتكرر ، عدت الى الشارع ، قدر مكتوب ، تجربة معادة مكررة مملة ، القنابل تتساقط كمطر مدرار وبتساقط معها الجدران والحوائط وتشتعل النيران فى البيوت، مشيت فى الشارع مجنونا ، اعطونى سلاحا ، اردى به احدهم وبعدها اموت سعيدا ، لم يسمعنى احد ، لانه لم يكن هنا احد بالشارع ينصت او يتكلم ، لا احد ، لقد دقت ساعة الموت .

ولمحت نساء من بعيد ، هرعت الى هناك ، ورأيت صفوفا بأيديهن المدافع وسيلا من النيران يتدفق ومئات الجثث ، القدرة الحقيقية للبشر فى الصمود الى النهاية ، مدافع دبابات العدو تقصف وابلا من دفعات متتالية من النار ، تقدمت دبابة للعدو ، تصدت لها فتاة تمسك فى اليد بندقية ، والدبابة تتقدم فى صمت صرخوا عليها ان تسرع بالابتعاد ، ولكنها الرغبة فى التحدى ، الرغبة الكامنة فى المظلوم امام قوى الظلم ، وقفت الفتاة تطلق النار على الدبابة ، لا يؤثر رصاص بندقية فى مدرعة حديثة ، تقدمت الدبابة والفتاة تطلق النار ، ظلت الدبابة تتقدم ، لم تتحرك الفتاة من مكانها ، تقدمت الدبابة فوق جثة الفتاة ، وساعتها كفت البندقية وسكتت الى الابد .

صرخت فى المدينة ، رحت ادور فيها ، فلتكن الجثث عائقا دون التقدم ، وليكن بحر الدماء عائقا دون قدومهم ..

وهجم اليهود ، فى اصرار ، على المدينة ، والجرحى يسقطون وكان السماء قد غطت عن آخرها بالطائرات التى لا تكف لحظة

واحدة عن قذف القنابل من كل نوع والقتلى يكثرون ، يتراكمون ، ولكن لا قيمة للموت .

هذه ثالث مرة ، ارى حرب اليهود الوحشيـــة ، ادور فى الشوارع تتساقط حولى القنابل والبيوت ، اتخطى جثث القتلى اسمع أنين الجرحى يختلط بدوى طلقات الرصاص ، فى المـــرة الاولى خرجت من ديارى غلاما مذعورا يزحف مع جيش البشر المطرود ، وفى المرة الثانية شابا يزيل فتيل قنبلة ، وهذه المرة .. ما العمل ؟

يجب ان تتجدد الحياة ، ان تتفجر فى السهل الخصيب ، ان ينمو لبلادى ناب وظفر ، وان تأكل بأسنانها العود الجــاف ، ان تكسر حجرا صلدا ، ان تصرخ وان تقول لا ، وأن ترفض كـــل شيء ، كل حل ، كل كلمة ، كل الكلام ، ان تحارب .

يهرب البشر من المجازر ، ويهرب الانسان من واقعـــه ، ويدور مع حلقـــات التبـــغ المتصاعد من فمه حالما بعالم سعيد عادل ، ان يتصور وهما ، كلمات وفاء عن حلول بالكلمات ، ولكن النار تحرق الكلمات ، النار تصنع الصلب .

كنت اقول ذلك ، رددته فى القناة ، وفى عمـــان ، وفى كفر قاسم ، وفى مخيمات اللاجئين التى تطرز الحوافى على حـــدود بلدى .

كانت قواتنا تقف على الحدود فى تحفز ، وكنـــا خلفهم نستعد للمعركة ، وطول الليل ، وكنت جالسا فى مكانى امام باب المخزن ، شعرت ان زوج اختى قد عاد الى الحيـــاة وجلس بجوارى ، وقال :

— اسمع يا بلال .

وحملقت فى وجهه وشعرت بالخوف ، كانت هذه اول مرة اشعر فيها بالخوف ، وتملكتنى رجفـــة ، فقلت له بصـــوت خافت :

— نعم .

احكم وضع العباءة الخضراء حول كتفه وقال :

— لا تنم ، فانهم سيقاتلونكم ، وقد آن الاوان ان تموت يابلال في اليوم العاشر من الحرب ..

ثم جاءت الطائرات وقذفت المدينة ودمرتها ، وظلت تدمرها لمدة عشرة ايام ، ثم قتلت فى اليوم العاشر .

ولما كان الصباح وسمعت قذف المدافع وسقوط القنابل خيل الى ان الحلم عاد مرة اخرى ، واننى اصبحت من كثرة التفكير فى الحرب ومشاكلها قد اصبت بلوثة المعارك ، ولكن دوى الانفجار حقيقة ، خرجت الى الشارع وكنا ما نزال فى أول النهار والشمس لم تضح بعد ، فاذا القوم يتدفقون حاملى السلاح ، وصوت الراديو يعلن موعد العودة ، وهلل الناس وكبروا ، واحتشدت الحشود ، وبدأ الزحف نحو الحدود ..

تطور الموقف ، زادت طائرات العدو عددا وهجوما ، المفاجاة اخذت القوم على غرة ، اطنان النتروجين ،الملعون اطنان النابالم الحارق ، مئات من الدانات الاسطورية الحجم تأتى على كل ما يصادفها .

وجاء الليل ومضت ساعاته فى بطء ، وعدد القتلى يتزايد بشكل مخيف ، والاف الجرحى يسقطون ، ولا غوث ولا عون دمروا المستشفيات وكل مكان يصلح للعلاج ، ولكن المدينة لم تستسلم بعد ، الايدى مازالت تحمل السلاح .

وفى منتصف الليل ، بدأت مدرعات اليهود تأتى من الخلف والايدى تدافع عن ارضها ببنادق السلطان ، وقواتهم تعمل وفقا لعقول من صلب ومعدن لا تعرف سوى القتل والتدمير وتملك وسائله .

وسيطر الموت على المدينة ، وتدفقت قوات العدو من كل جانب لتزيل من امامها أى لون من الوان الحياة ، وما الذى يفعله الخسيس اذا انتصر ؟

وان كان أمل العودة يرتفع فى الصدور دائما فقد اصبح

الآن ، وبفضل هذه الحرب الشائنة ، حرب الإبادة ، الموت او العودة ، العودة هي الحياة وبدونها لن تعد للحياة قيمـــة ، اندحرت اليوم معركة الكلمات وصدق وعد الصلب .

الرحمة لك يا شيخنا ، الرحمة لك والحق معك ، والويل لنا ، لقد كنت صادقا ونحن نخرف ونجادل ونضحك من قولك ، وننعته بالخبال والجنون ، وهو الحق الصادق والقول الاكيـد ، تركناهم حتى نضجوا وكبــروا وافرخت صغارهم ، وشب عن الطوق مارد ملعون ، والآن هي المعركة ، اعطوني بندقية اقول لكم كلمتي ...

وكان الويل للباقين على قيد الحياة ، ان كل جريمتهم في نظر اليهود انهم بقوا احياء ، ويقترب كلب اجرب يركب فيلا ، الفيل ضخم الجسم ، ضعيف العقل ، شرير النية ، لا يفهم الا عن طريق نابه ، والكلب الاجرب هزيل ضامر ، ولكنه يجلس فوق الفيـل ويضع فمه في اذنه ، ويرى الكلب وهو في برجه الآمن فوق الفيل قطة تلعق طبقا من اللبن ، فيهتاج الكلب الاجرب ، ولكنه اضعف من ان يهاجم القطة ، فيهمس في اذن الفيل ضعيف العقل :

ـ هذه القطة تسبك .

ويتحرك الفيل لكي يدوس القطة بقدمه العريضة الثقيلة ، ولكن القطة تفر هاربة ، ويغضب الكلب لنجاة القطـة ، فيعض اذن الفيل حتى تدمى ويقول له :

ـ هاهي تقذفك بالحجارة حتى ادمت اذنيك .

ويثور الفيل ، فقد جرؤ كائن ضعيف وقذفه بالحجارة ، وينطلق باحثا عن القطة التي فرت هاربة الى بيتهـا تحتمي به ، ولكن الفيل ضعيف العقل الدامي الاذن ، يهـــدم البيت ويبعثر محتوياته ويقذف القطة في شراسة فتسقط في حفرة تتألم وينزف جسدها دما ، والكلب الاجرب سعيد حيث هو على ظهـر هـذا الفيل ضعيف العقل ..

ويأتي رجل حكيم يسأل في صوت واهن :

— اليست هناك من طريقة لوقف هذا الحيوان الشرس ؟

فيجيبه رجل ، ياتى من بعيد ، ولكنه يرى جيدا :

— اقتلوا اولا هذا الكلب الاجرب ، او ابعـــدوه عن اذن الحيوان المسكين ، ضعيف العقل كبير الاذن .

وتندفع جماهير تحمل فؤوسا وبنادق ، تجذب الكلب من حصنه لتنهال عليه ضربا حتى يقتلونه ، ويسعد الفيل ويجرى مسرعا يمرح فى الحديقة وياكل فى امان ، وتعود الحمامة لتضـع حبة حنان بمنقارها على اذنه المجروحة .

ويسيل الدم قذرا من الكلب الاجرب يلوث يدى ، وسحبت يدى بسرعة ، قال بسام :

— سلمت يدك .

نظرت الى السكين فى يدى اليسرى بنشوة وكدت اقبلهـا ولكن جذبنى بسام وهو يقول :

— انهم قادمون .

وبسرعة كنا نختبىء خلف جدار متهدم ، وتقدمت سيارة نصف مجنزرة ودارت دورتين ، ثم لمح الجنـود زميلهم يرقد فى بحر من الدماء ، فولوا هاربين وهم يوزعون نيرانهـــم فى كل اتجاه .

مكثنا خلف الجدار حتى اختفوا ، انهم كثيرون ويمـلكون السلاح ، ولكنهم خائفون مثل النعاج ، جبناء مثل جمـــاعات الارانب .

والمدينة خاوية ، او يخيل اليك ذلك من النظر الى الشوارع وتدور الداوريات المسلحة ليل نهار ، والناس فى البيـوت خلف الجدران ينتظرون عودة المسيح ، ونحن قلة ولكن فى قلوبنـــا رغبة فى الموت .

لكزنى رفيقى فى جنبى فانتبهت جيدا ، رايت سيـــارة مكشوفة تحمل مجموعة من الجند فى ايديهم المدافع سريعـــة

الطلقات وفى حالة تأهب للضرب ، وكان الليل قد بدأ يغطى الارض .. فكرت بسرعة ، وطوحت السكين بقوة اليـــد العسراء التى اضناها الالم والحقد ، انغرست السكين فى صدر الجندى ، رفع يده فى الم صامت ، سقط مدفعه على حافة العربة ، ترنح قليلا ، أزدادت سرعة العربة ، سقط الجندى على ارض الشارع ، تمدد فى سكون والدماء تندفع كشلال ، لم تتــوقف السيــارة فرت هاربة والجنود يطلقون النار بدون هدف وبخوف .

وكان لابد من الفرار من هذا المكان ، فسوف يعودون بقوات اكبر ، ولكن الى اين ؟ انهم يطلقون النار بقصد الابادة ، ليست هذه حربا كما يعرفها العالم بل هى ابادة شعب لاحــلال اخرين محله ، من كان فلسطينيا مثلى يعرف ذلك جيـــدا ، ليست المسألة مسألة حرب ومعارك بل اخطر من ذلك واعمــق ، وهؤلاء الذين هاجروا من اوروبا الى بلاد كانت مجهولة لعالمهم ، ابادوا سكان تلك البلاد ابادة كاملة بحجة السلام ، هم اليوم ايضا ، هم المعاونون لعملية ابادة جديدة .

السلاح الوحيد الذى كان بيدى انغرس فى صدر الجندى ومن اين لنا بسكين اخر ؟ وهم يستولون على كـــل شيء حتى السكاكين .

رحنا ننتقل بسرعة خلف الجدران فى حركة يقظة ، مبتعدين عن مكان الحادث ، عثرت قدمى بشيء صلب ، انحنيت اتحسسه فاذا به عود من الحديد الذى يستعمل فى البناء ، رفعته سعيدا وهمست الى بسام :

— هذا افضل من السكين .

رد بسام فى ضيق :

— ولكن ماذا نفعل به امام مدافعهم ، يجب الحصـــول على مدفع رشاش ، والاتصال بباقى المجموعة حتى ننسق العمليات .

قلت ، وانا اتصور عود الحديد ينغرس فى ظهر احدهم :

— المهم ان نقاوم حتى الموت ، هذا دورنا .

— بأسياخ الحديد ، هذه الاعمال انتحارية لم تعد مجدية ، يجب ان نتعلم كيف لا نموت ، لقد كنا نموت دائما وهـذا يكفى حتى الان .

— يجب الا نسكت ..

— وان يشعروا هم بعدم الامان .

كنا قد ابتعدنا كثيرا عن المكان الاول ، وجلسنـا نستريح قليلا ، وفى كل لحظة تمر داورية للعدو فى تلصص خائف فزع ، ذلك الخوف الذى يطل من عيونهم وهم يطلقون النار فى وحشية .. هو مقتلهم ويجب ان نزيد من خوفهم فيزدادون وحشيـة ، ومن الوحشية والظلم يخرج الثوار .

وقفت السيارة وهبط احد الجنود يحمل مدفعه مصوبا فى تحفز ، تقدم من جثة مدنى ملقاة على الطريق ، ركل الجنـدى الجثة ، سقطت ساعة القتيل تبرق فى الظلمة ، انحنى الجندى بسرعة والتقط الساعة ، واسرع بركوب السيـارة التى انطلقت مسرعة .

همست الى بسام :

— اليس معك ما يبرق ؟

أجاب بسام فى حيرة :

— معى خاتم ، ربما نستطيع شراء رغيف خبز به .

وتذكرت الطعام ، ولكن لا يهم ، انهم يستولون عـلى كـل شيء ، النقود والطعام والشرف ، والحياة ايضا ولهذا نقاتلهم .

اقتربت سيارة الداوية ، رميت الخاتم على الارض ، ظل يتدحرج ثم توقف ، توقفت السيارة ، يبدو ان جنديا لمح الخاتم كانت به ماسة تبرق ، هبط فى نشوة .

اقترب وانحنى ليلتقط الخاتم ، ابتسمت فى نفسي وقلت:

— يهودى !!

ولم يستطيع الجندى ان يلتقط الخاتم فقد جذبته بسرعة

من رقبته بالعود الحديد ، بعد ان اعددته لهذا الفـرض ، كانت مفاجأة ، صرخ فى رعب ، سقط على الارض ، جذبته نحـــوى ، استولى بسام على سلاحه ، اخذ الجنود يطلقون النار نحونا فى سيل كثيف ، صحت وانا ممسك بالجندى اسيرا امامى :

ــ قل لهم ان يكفوا حتى لا يقتلوك ، ونحن كثيرون .

توسل اليهم زميلهم فى صوت متهدج من الخوف ، ولكنهم ظلوا يطلقون النار ، اصابته رصاصة فى احشائه ، تحشرج صوته وهو يقول :

ــ عليكم اللعنة جبناء ، ما الذى جعلنى آتى الى هنا ؟

اطلق بسام النار من مكمنه اصاب جنديا آخـــر ، تركت الجندى اليهودى يسقط فقد اصبح جثة هامـــدة ، اشرت الى بسام بالفرار ، مستغلا ارتباكهم والظلام المحيط .

ولكن ما فائدة هذا ، شريدان بلا مأوى ولا طعام يفتك بهما الحزن على اسرهما التى اجبرها اليهود على الهجرة ماذا يمـكن ان يفعلاه امام قوات لا حصر لها فى يدها السلاح تطلقه بسبب وبدون سبب !

أحيانا يصر الموت على تخطينا فى كل مرة نتعرض له وكنـا نجد انفسنا أحياء نتبادل النظرات فى أسي ، أصبحنا مثـل كلاب ضالة تعيش فى الخرابات والجحور .

نخرج اثناء الليل لنقتل جنديا او اكثر ثم نعود الى الاختباء كان بسام يقول لى :

ــ الليلة اقتل جنديا منهم واموت .

ونخرج وليس فى ايدينا سوى سلاح بدائى اخترعته قطعة من الصلب الحادة الاطراف تنتهى بقطعة من الخشب طويلة الى حد ما ، نربض فى مكان مظلم ، فاذا عبرت احدى الداوريات امامنا قذفنا بسلاحنا فى تصويب دقيق ، ينفذ الصلب فى سرعة فى صدر احدهم ، فيسقط دون صوت يقع مثل حجر من الجير ، وترتفع طلقات الرصاص من رشاشات الجنـــود ، وتأتى لحظـة الموت

الاكيدة ولكن لا يهم ، متنا ام عشنا ، المهم اننا حتى الان لم نمت وقد اردينا بهذه الطريقة اكثر من ثلاثين منهم .

فى البداية الاولى لعملية الاحتلال اليهودى ، كانت الامور العامة غير واضحة ، وكان ما يدمى للقلب حقا انه لاتوجد طريقة للاتصال بالعالم الخارجى ، ماذا يدور خارج القطاع ؟ ماذا يدور فى الامم المتحدة ؟ لا شيء ..

جدار من الصمت بيننا وبين العالم ، لا نرى ولا نسمع الا تعليمات هؤلاء الكلاب ، بيان هام : كيف تحول نقودك الى عملة الدولة ، تحذيرات هامة : عدم تنفيذها يؤدى الى نسف المنازل والدور بمن فيها ، الاعدام رميا بالرصاص يجرى فى ميدان المحطة فى الساعة العاشرة فى خمسين فردا متمردين على الحكومة ، وهكذا ينعق البوم بصوت الخراب ، اللصوص شكلوا حكومة ، حاكما ورئيسا وقضاة ، تغيرت المعانى ، الثورة على الظلم اصبحت تسمى تمردا وخروجا على تعليمات الامن والسلام .

والناس ، الناس من حولنا ، أين هم ؟ ماذا يقولون ؟

لكزنى بسام ، حاولت الانتباه ، ولكن دون جدوى ، الجوع هدنى أرغب فى النوم ، احيانا يرغب الانسان فى النوم تحت وابل القنابل .. الخطر قائم ، ولكن الحياة تمضي ، دفعنى بسام بعنف ، يبدو ان هناك خطرا اكيدا يهددنا تحركت معه فى وجوم ، انبطح على الارض وجذبنى معه ، الارض خشنة ، انفجرت قنبلة بالقرب منا ، هزنى الانفجار بعنف ، كنت ممدا على وجهى شعرت ان الارض اصدرت صوتا مكتوما ، اندفعت بعض قطع من الحجارة وارتطمت بجسدى ، يبدو ان تراب الارض قد غطى المكان كله مختلطا بدخان الانفجار ، تذكرت فتاة كنت قد قابلتها يوما فى الاسماعيلية ، يبدو انها فتاة الميدان .. جذبتنى من يدى ، دخلنا الى حجرة مظلمة ، لم اعد ار شيئا تحسست جسدها ، كان ناعما املس ، رائع هذا الجسد الانثوى .. تحسست مرة اخرى ، ولكن الارض خشنة ، ودوى الانفجار ما يزال يدوى فى عنف ، شعرت بالرغبة الجارفة فى حضن امرأة .

كان لا بد لنا من الهرب ، زحفنا تحت وابل من الطلقـــات المجهولة المصدر ، اخترقنا حاجز الزمن العاقل .

كان الخطر يهددنا فى كل خطوة ، ومع هذا لم يكن امامنـــا سوى التقدم ، ورحنا نزحف من جديد وفى اصرار ، والرغبـــة فى النساء تحيرنى .

همس بسام قائلا :

— وصلنا يا بلال .

— الى اين ؟

— الى مقر الفرقة ، يمكن الان ان نستريح قليلا .

— والطعام ؟

— لا اريد سوى كوب من الشاى

يا الهى ، هذه مأساة لا معنى لها ، حجـــافل الديدان تعبر الطريق ، تصدر صوتا مكتوما مثل حشرجة رجل يموت ، الديدان تصعد الجبل ، تتدفق على الوادى الاخضر ، تأكـــل النبت ، تدوسه ، تبول عليه ، وتسير فوقه لتصعد تلالا يفوح منهـــــا رائحة الورد ، ولكن الورد يذبل حينما يرى الديدان تقبل عليه ، وتنكس الوردة رأسها فى حزن ، تبكى ، تتساقط دموعهـــا على ارض التلال تنبت شوكا يخترق اجساد الديدان وتتلوى الديدان فى ألم ، تقفز بسرعة ، وتتحول دموع الورد الى بحر من الشوك ، والشوك يلاحق الديدان ، جيش الديدان يموت ، اختفى ، عادت البسمة الى الوردة الحزينة ، رفعت رأسها وكفت عن الدموع ، نظرت الى الشمس فى حنان ، هتفت من قلبها وقالت :

— امى .

ونظرت الشمس الى الوردة وحيتها فى ابتسامة ، داعبتها بأهدابها الذهبية ، انتعشت ودبت الحياة فى الجسم الرقيـــق ، عادت رائحة الورد تفوح وتملأ الوادى ، هتفت التـــلال تكبر ، سمعت الوديان هتافات التلال ، نفضت عن أجسادنا كبوة الزمن

النحس ، وتماوجت ، قذفت بعثرات الزمن الوحــل ، اخرجت نبتا اخضر ، كبر النبت واصبح شجرا يتدلى منه ثمــر احمر ، هتفت البلدان تكبر ، جرى طفل نحو الثمرة ، ولكن ذراع الطفل اصغر من ان تنال الثمرة ، دمعت عيناه هتفت الشجرة وقالت :

— لا تبك في اليوم السعيد .

ومالت نحوه ، ورأى الطفل الثمرة المحبــوبة بين يديه ، زغردت اضحوكة حبلى في فمه ، وصاح جهاز الراديو معلنا البيان الاول ، الله اكبر .

ورايت في منامي ، رفيقي الشيخ الضرير ، كان يبتسم في سعادة ممسكا بالبيان الاول ، قلت :

— والان ، سيدى الشيخ ، هل لك في كلمة تقولها ؟

اشار بالورقة التى في يده ، وقال :

— لم يعد عندى ما اقوله ، هذا يكفى .

اختفى الشيخ وهو يلوح لى بالورقة ، اذاع الراديو البيان الثانى ،،

طلع الفجر .

سادت تباشيره فـوق الارض ، جلس الراعى فوق الربوة ، ينظر الى قطيعة ويرســـل من مزماره لحنا ، تفرقت الاغنام ترعى فى هدوء ، او تشمشم فى الارض باحثة عن نبت اخضر ينمو بين الاحجـــار ، وكلب اسود يقف فى نشوة فوق ربوة عالية ، يرهف اذنيه ليسمع لحن سيده ، يفرد جسده ويتمطى فى كسل سعيد .

الاغنام لا تأكل عشبا ، انما تشم رائحة الارض المفقودة ، ارض ردت اليها ، والهواء يخرج من المزمار طـــربا ينتشر عبر الوديان ، يمسها بسحره يدور حول التلال ، ينفخ فى اذن الطير، ها هو اليوم الموعود .

انا اسمع لحنا يتردد فى الافق ، اسبح فى الفضاء وادور مع الريح القادم من الشرق ، يحملنى الهواء لارى الاشجار والحقول والقرى والجبال تمر سراعا ، وانا وحدى اركب سحابة بيضاء ، اجلس عليها فى هدوء واضحك فى سعادة ، كل شيء يهون لتحصل على السعادة اخيرا ، ولكن كيف تحتفظ بالسعـــادة ، ها هى السحابة تهبط وارى القوم يجتمعون وفى القوم خطيب يتـــكلم ، انه يهدد بقبضة يده ، اقتربت منه ، اننى لا اسمع شيئا ، ارى يده تتحرك فى الهواء بعصبية ولكنى لا اسمع كلاما يخرج من فمه .. الرجل يتكلم دون صوت ، هذه بدعة ، جاء رجل ضخم دفعنى بقوة ، وجاء اخر ولكزنى بعنف وهو يقول :

ـ ابتعد من هنا يا هذا .

تراجعت بضعة خطوات ، ولكنه عاد يدفعنى ثانية ويقول :

ـ يا لك من رجل احمق ، الم اقل لك ابتعد ؟

وتراجعت خطوات اخرى ، ومع هذا صاح فى غضب :

ـ قلت لك ابتعد ، انت تزاحم القوم .

ازاحم القوم ! لقد مضوا ، لم يبق احد ، انى لا ارى احدا ، ولم اتحرك ، فغضب الرجل غضبة هائلة ، وقال :

ـ اذا انت تود ان تقول ان سيدنا يخطب فى الهـواء ، ولا احد هنا الا انت ؟

ابتسمت فى اشفاق ، كما كان يفعل معلمنا الشيخ الضرير حينما كنا نسبه ونصفه بالجنون ، وقلت :

ـ حتى انا لا اسمع شيئا !!

تقدم الرجل الضخم وقال بحسم :

ـ انت تسب سيدنا .

ـ ابدا ، ولكن ..

ـ ولكنك تسبه .

ـ لا ، فقط اقول ..

ـ تقول انك تسب سيدنا .

ـ لا ..

جاء رجلان وامسكا بى ، والرجل الضخم يقول :

ـ انت رجل خطر على المسلمين والاسلام .

سنضعك فى السجن .

عجبا ، هذا الرجل الذى يتكلم دون صوت امام المسلمين ،

يا شيخنا كنا نقول عليك كما كان الناس يقولون ، مجنــون او مخبول وكنت اقول كما كانوا يقولون ، اللعنة على كل من نعتك بما ليس فيك ، ولكن هكذا نحن لا نحب المخلصين .

دفعنى الرجال الى السجن ، ومكثت يوما ، واذا ما جاء اليوم الثانى رايت حارسي يقول :

— أتحب ان افرج عنك ؟

قلت فى لهفة :

— جزاك الله كل خير .

فابتسم فى خبث ، وقال :

— فقط على شرطين .

— كل ما تقوله مقبول ، لو مكثت هنا يوما آخر سأجن .

— اولهما : ان تخرج من هنا ولا تعود ابدا .

— حسنا ، وثانيهما ؟

— ان تدفع لى الف دينار .

— الف دينار !! من أين ؟

— والله لولا اننى متعاقد مع مولاى على هذا ما اخذت منك دينارا واحدا ، ولكنك للاسف دخلت ضمن المقطوعية .

— ما هذا يا رجل ؟ من مولاك هذا ؟

— الا تعرفه ؟

انه الذى امر بالابقاء عليك فى السجن ، هذه سياسة اخترعها سيدنا الامام ، يأمر بالسجن والاعدام والنفى ونحن ..

— تقبضون ثمن الافراج .

— نعم ، للصالح العام ، للامة .

— ولكن هذا ظلم وحرام

– يارجل لا تكن ساذجا الى هذه الدرجة ، انها احـــدى وسائل تدبير الميزانية ، ميزانية الامام . وحتى ناخذ اجورنا .

– انها لعبة مسلية !!

– للغاية ، هل ترغب فى الانضمام الينا ؟

نحن فى حاجة الى مساعدين .

– والذى يرفض الدفع ..؟

– نذبحه .

– اذا اقتلنى .

– ولكن قتلك سيكلفنا ، وهذه خسارة فى الميزانية ويتسبب ذلك فى خصم جزء من راتبى ، ارجوك ادفع فانا انفق على اسرة كبيرة .

اشفقت على الرجل .. قتلته .

انصرفت لاعنا تلك البلاد ، وعدت اطوف بالبلدان ، مثـل الوان ريش الطاووس ، كل بلد لها لون واضح وعدة الوان اخرى تتضح فيما بعد ، وفى كل بلد امام يخطب فيها .

واخيرا احسست اننى اختنق ، انه عـــالم مرذول ، عالم الكلام بدون صوت عالم الساقية الخـــربة التى تئز ولا تروى حقلا .

وعدت الى الراعى فوجدته حزينا ، تجمعت الاغنام حوله والكلب يلعق قدميه فى حزن ، قلت للراعى :

– ما بك يافتى ؟

لماذا انت حزين ؟ لقد كنت تشدو بلحن جميل ؟!

لم يرد ، نظرت الى عينيه ، الحزن الدفين يظهر فى العيون العربية ، والعيون العربية عرفت الالم والسهاد والندم ..

والحزن الدفين ، تشكلت فى خلال عصور ضاربة فى القدم بلون الحزن ، وتجمعت نقط حمراء فى عـــين الفتى ، ظننت انه يود البكاء ، كررت عليه السؤال ، قال وهو يدارى وجهه :

— لم يعد القوم يسمعوننى ، راحوا يتسمعـــون من خلف الابواب المغلقة ما يقوله الاخرون .

حتى هذا الفتى يشكو الانصات اليه ، كل يرغب فى الكلام ولا احد يرغب فى الانصات ، جزر العزلة تنبع من الرغبـــــة فى الحديث المنفرد ، هكذا كان يقول الشيـخ الضرير ، وكان قوله حكيما .

قلت اشجع الفتى :

— ربما تشدو بصوت لا يسمعه الجميع ، ثم ان القـــوم ، اليوم ، كثرت اعدادهم ، وامتدت بهم الديار ، وتراكمت عليهم الديون ..

نظر الفتى بعيدا ، وقال فى ثقة مما يقول :

— ان القلوب المؤمنة تسمع اللحن مهما كان البعد .

رأيت بعض القوم يقبلون ، قلت فرحا :

— ها قد اقبلَ بعض القوم ، اعزف لحنك الان .

مضت لحظات من الصمت قبل ان يرد الفتى وهـــو ينظر الى القادمين :

— لابد ان يأتوا جميعا .

— جميعا ! حتى ما كان منهم بعيدا فى المغارب ؟

— من المغرب والمشرق والجنوب ، من كل مكان ، انه لحن لا يسمعه بعض القوم دون البعض اما ان يكونوا جميعا والا فلا لحن هناك .

يبدو الصدق فى كلماته ، وحقا ما يقول ، تركته وارتقيت جبلا ، واخذت اردد :

ـ يا قوم ، يا من انتم فى صحراء المغرب ، الا تسمعـــون يا قوم ؟

جاوبنى صوت الراديو يذيع النشرة :

ـ نداء الى .. القمر فى الطـــريق ، نداء الى .. رفعت عقيرتى وناديت :

ـ يا آكلى لحوم الاضحية فى العيد المقدس .

يا شاربى ماء الاردن والنيل والفرات .

يا اصحاب المجدل وحطين وبدر .

الا تسمعون ؟

مازال الراديو يذيع النشرة :

ـ من ردفان الى الكرك ، عد الى القاعدة ، من النهر الازرق الى المجموعة الخامسة العيد قادم ، من ..

ناديت ، كررت النداء ، رفعت صوتى بقدر ما استطيع :

ـ ياقوم ، ان هنا فتى يقول انه سوف يعزف لكم لحنـــا ان سمعتموه ، ولن تسمعوه الا جمعا ، كانت لـــكم الحيـــاة والاخرة ، وان خشيتم على ما فى ايديكم خرج اليكم من فى القبور وسبوكم ولعنوكم ، وبعدها ستموتون عبيدا .

الراديو يقول :

ـ بيان رقم الف ومائة ، قامت وحدات من المجموعة رقم سبعة تعززها وحدات من المجموعة الخامسة عشرة باحتـــلال مناطق حول نهر العوجة وتندفع الان الى مصبـــه على البحر ، وتمركزت بعض القوات فى كفر قاسم .

وسمعت صهيل الخيل ، وامواج البحر ، ورعد البرق ، وتلاطمت موجات حبات الرمال ، واصوات القوم تدمدم ، ورأيتهم قادمين .

قادمون من المشارق والمغارب ، قادمون من كل مكان ، جريت الى الفتى وصحت فيه :

— انظر ها هم قادمون جميعا ، جميع من نطــق مثلك ، واكل من لحم الاضحية .

وارتفع اللحن ، لحن اليوم الموعود ، قويا مثل رعد السماء .. انه صوت الرب ، الملائكة تغنى تنشد ترنيمة صـلاة الفجر ، والقوم يقبلون ويرددون فى نشوة ، يا الهى ..

اننى اراك الان ، اسمعك ، ارى نور خلقك يفرش الارض ..

يا قوم هللوا وكبروا ، انها مزامير السماء تعزف لكم لحن النصر لحن العودة ..

وجاء الشيخ الضرير وجلس ، كان يبتسم فى هدوء ، نظـر الى فى حب ، تحسس جبهتى ، تمتم فى خفوت ، اشـــار الى اخرين ، حاول الاخرون رفعى من على الارض ، صرخت بقوة :

— لا ..

يا اخوتى فى بطون القبور ، يا عيونا مزقها الكافرون .

يا عظاما حطمها قدم الظلم .

يا اخوتى فى لحد المعركة ، ها نحن نعود ، وسنسير فى تمهل فوق أرض ترابها أجسادكم .

حاولوا رفعى مرة اخرى ، قاومت ، لا اريد ، اود ان اظل هكذا محتضنا الارض الحبيبة ، ولكنهم تغلبوا على ورفعـونى ، جسدى يهتز ، اشعر ببعض الالم ، ولكن لا يهم ، المزامير تدوى فوق قبور الشهداء ، وغصن زيتون يرفرف فوق جبين اسمـر يحمل طفلا ، انه طفل عدوى ، ولكن لا حقد هناك ، ان كـل من ذاق الظلم عفت نفسه عن ارتكاب الظلم ، يا طفلى المسكين لاتخف .. لك ان تحيا فى سعادة ، ولن نقول لك ما قاله والداك لاطفال كفر قاسم .

ما زلت ارى الشيخ الضرير ، جالسا يتكلم ، بينما الراعى

الاسمر يعزف اللحن ، والقوم قادمون مقبلون ، ولكن سحابة من السواد تحلل الافق ، تحجب الرؤية عنى ، احاول جاهـدا ان ابصر ما حولى ، ولكن لا فائدة ، ظلال كثيفـة تغطى على عينى ، اسمع فقط ، العازف الفتى ، ونشرة الاخبار من الراديو وصوت الشيخ يتمتم ، ولكنى لا اذكر ما يقوله الان ، فقط اذكر ما كان يقوله ، حينما رقد لاخر مرة ، فقد نظر حوله ، وقال :

والان اهبط القبر فى سلام ، ووداعا يا قوم ، لقد تركت فيكم امانة ان تضيعوها تتفرقوا شيعا فى الارض واحـــزابا ، وبعدها لن يعزف لكم لحن ابدا .

وداعا يا قوم .

الراديو يقول :

ـ استطاعت قوات المجموعة .. تطهير منطقة ام الدفوف ، وتحاول الان تطهير منطقة ..

لم اعد اسمع .

واخيرا اقول كما كان يقول رفيقى الشيخ الضرير ، حينما رقد لاخر مرة ، وداعا يا قوم ....

(بلال)

الدقى فى ١٩٦٧/٧/٢

للمؤلف :

ثمار الشوك .. رواية ..

سلسلة الكتاب الماسي ـ الدار القومية للطباعة والنشر

ما بعد الخوف .. مسرحية ..

دار النصر للطباعة والنشر بالاشتراك مع وكالة الاهرام

(المسرحية الفائزة بالميدالية التقديرية فى مؤتمر الادباء الشبان لعام ٦٩)

الجرار رقم ٣٥ .. رواية ..

سلسلة كتابات جديدة دار الكاتب العربى

(الرواية الفائزة بجائزة الرواية فى مؤتمر الادباء الشبان لعام ١٩٦٩)

القبقاب الوردى .. مسرحية اطفال ..

وزارة الشباب ـ (مسابقة الفنون المسرحية) .

(المسرحية الفائزة بالميدالية الذهبية فى مسابقة الفنون المسرحية ١٩٦٩)

تحت الطبع :

* **عقول للبيع** .. مسرحية ..

سلسلة مسرحيات عربية ـ الهيئة المصرية للتأليف والنشر

* **خضرة الشريفة** .. مسرحية ..

سلسلة كتاب الطليعة ـ وكالة القاهرة للطباعة والنشر

* **الحب** .. رواية ..

سلسلة كتاب الطليعة ـ وكالة القاهرة للطباعة والنشر

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

رقم الايداع بدار الكتب ٥٠٨٨